العقيدة الإسلامية

أصولها وتأويلاتها

الجزء الرابع

النبوات

الأستاذ الدكتور

محمد عبد الستار نصار

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والأديان

كلية الشريعة ــ جامعة قطر

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

﴿ إهداء ﴾

- إلى الطفولة الجميلة .. البريئة .. الطاهرة .. النقية .. ممثلة في جمالهم .. وبراءتهم .. وطهارتهم .. ونقائهم .

- إلى من جعلهم الحق من زينة الحياة الدنيا فأكملها بوجودهم .

- إلى من أتمنى من العلي القدير أن ينبتهم نباتا حسنا ويصلح لي فيهم حتى يعملوا الباقيات الصالحات .

- إلى من عوضني الله بهم عن طول الصبر والإنتظار .

- إلى زهرات حياتي وعطر وجودي الذين جعل الله تربيتهم الصالحة أمانة في عنقي وأسأله أن يعينني عليها .

- إلى أبنائي

يحيى

إبتسام

إبتهال

أهدي هذا الكتاب رمزا للحب والتواصل بين الآباء والأبناء .

والدكم / محمد نصار

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى الدراسة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسل الله ، وعلى خاتمهم - بخاصة - محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه - وبعد -

فلا تزال الدراسات الكلامية فى حاجة إلى مزيد من الجهد فى سبيل تجلية قضاياها أمام الدارسين بطريقة أكثر ملاءمة لروح العصر ، الذى شاعت فيه آراء كثيرة ، لم تكن موجودة فى العصور الغابرة ، تريد أن تنال من العقيدة الدينية الصحيحة ، سواء ما يتصل منها بقضايا الألوهية ، أم بقضايا النبوة ، أم بالغيبيات بصفة عامة .

وأظهر الأفكار التى ترفع فى وجه الدين ، هى تلك التى يدعى أصحابها أنها حقائق علمية ، وما هى من العلم فى شىء ، وإنما هى أفكار إلحادية ، لم تمحصها التجربة العلمية ، ولم يدعمها برهان صحيح ، إنها عقائد جامدة ، دخل بها أهلها دائرة البحث ، وهم بها مؤمنون ولصحتها معتقدون ، وأهم ما ينطوى عليه منهجهم هذا ، أنه غير علمى ، لأن من خصائص المنهج الصحيح ، هو « الحياد » و « الموضوعية » وترك كل أفكار سابقة ، إلا ما تمليه النتائج التى تفرزها مقدمات صحيحة .

إن هذا الموقف وما شابهه من قضية الدين عموماً ، إنما ينطوى على غرور كاذب بالعقل ، والعلم ، ولم يرق أصحابه إلى مستوى التمثل الحقيقى لرسالة الدين الصحيحة ، وما تمثله من غاية هى : تحقيق سعادة الإنسان فى حياته الأولى وحياته الآخرة ، وإذا كانت السعادة غاية يطلبها الإنسان ، فكيف تكون حياته إذا لم تملأ قلبه عقيدة صحيحة ودين قويم ؟ إنها حياة القلق والاضطراب والصراع النفسى الخ ، ذلكم لأن الدين فطرة فى النفس البشرية ، و هذا ما نطقت به آيات الكتاب الحكيم ، فى مثل قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون »

(الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣) وقوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم : ٣٠)وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » [١] وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة أنه قال : «خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين » [٢]

الرسالات الإلهية عطاء ربانى لإصلاح المجتمعات الإنسانية :

اقتضت حكمة البارى سبحانه وتعالى أن يبعث فى كل أمة رسولا ، يبلغ عن الحق رسالته ، ويحمل إلى من يرسل إليهم مناهج الإصلاح والتقويم ، التى تهدف إلى إقامة الإنسان على الطريق الصحيح ، والصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، فمن اتبع هدى الله فقد فاز ، وبعد عن الضلال ، ومن أعرض عن ذكره الذى جاءت به الرسل ؛ فإن له معيشة ضنكا فى الدنيا ، ويحشر يوم القيامة أعمى كما يصور ذلك قوله تعالى : «.... فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » (طه : ١٢٣- ١٢٦)

وعطاء الحق تبارك وتعالى هذه المناهج الإصلاحية (الرسالات الإلهية) للبشر شمل كل تجمع بشرى أخذ شكل «الأمة» كما يصور ذلك قوله تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (النحل : ٣٦) وقوله : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (فاطر : ٢٤) ولقد بين القرآن الكريم أن علم الحق سبحانه وتعالى بما يحتاجه البشر مما به تصلح حياتهم

---

(١) رواه أبو هريرة ، وهو متفق عليه ، وهو مخرج فى إرواء العليل.

(٢) رواه الإمام أحمد والإمام مسلم من حديث عياض بن حمار .

فى العاجل والآجل ، إنما هو شأن له وحده جل وعلا قال تعالى : « ... الله أعلم حيث يجعل رسالته » (الأنعام : ١٢٤) وأمام هذه الحقيقة لا تثبت دعاوى أولئك الأغرار ، الذين يزعمون أن الرسالات السماوية لا معنى لوجودها لأن فى العقل غناء عنها . [١] أو أولئك الذين يدعون أن أساس التصديق بتلك الرسالات - وهى المعجزات التى يؤيد الله سبحانه وتعالى بها أنبياءه ورسله - إنما هى مخاريق لا يصدقها العقل . [٢] فهذا وذاك إن دل على شىء فإنما يدل على قصور نظر وضحالة فكر ولا يستطيع عاقل أن ينكر حاجة كل مجتمع بشرى إلى قانون ينظم حياته ويحدد العلاقات بين أفراده بعضهم بعضا ، وبين هذا المجتمع وغيره من التجمعات الأخرى . على أساس من تحرى العدل ورفع الظلم ، حتى تكون حياته سليمة صحيحة . وهذا يعنى أن غيبة ذلك القانون يحول دون حياته المستقرة ، حيث يحل سلطان الأفراد محل سلطان القانون ، وتحدث المنازعات والخصومات كبديل للوفاق والوئام ، والاضطراب والفوضى محل النظام والاستقرار .

إن تاريخ البشرية العام يطلعنا على ضرورة ذلك كله ، حتى لدى القبائل التى كانت تحيا حياة البداوة والبساطة ، حيث كانت تحكمها الأعراف والتقاليد ، التى يقوم على تنفيذها من تؤهله مواهبه لذلك ، هذا فضلاً عن المجتمعات المتحضرة والراقية ، التى تتعقد فيها المصالح وتتشابك المطالب .

وإذا أقر العقل ذلك كله فأولى له ثم أولى ، أن يقر حاجة البشر إلى رسالات إلهية كل واحدة منها تمثل مشروعاً إلهيا معصوماً من كل خطأ ، يساق للإنسان ليقيمه على طريق الهداية والرشاد . تتضاءل دونه بكثير كل المشروعات البشرية التى يفرزها العقل الإنسانى ، ذلكم لأنه - فى ذاته - أداة قاصرة ، لا يمكن أن تصل إلى الحقيقة

---

(١) انظر : التفتازانى . المقاصد جـ٢ ص ١٧٤ وما بعدها ، وكذلك : نيبرج : مقدمة كتاب الانتصار للخياط ص ٣٢ .

(٢) انظر : د/ مدكور . فى الفلسفة الإسلامية ص ٨٩ . لترى ما نقله عن البيرونى وأبى حاتم الرازى منسوباً إلى الرازى « الطبيب محمد بن أبى بكر » فى هذا المقام .

وحدها ، اللهم إلا أن يتعهدها الحق تبارك وتعالى بوحيه ، الذى يوجهها إذا حادت عن الجادة ، ويوضح لها ما تكون قاصرة عن إدراكه . وصدق الله العظيم الذى بين أن طريق الحق واحد ، وأما ما سواه ، فإنما هى سبل تقود من يرتادها إلى الهلاك والضلال المبين ، قال سبحانه فى إحدى وصاياه العشر التى جاءت فى صورة شملت أمراً ونهياً فى مقام واحد ، أمرا باتباع الصراط المستقيم ، ونهيا عما سواه ، قال تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (الأنعام : ١٥٣)

الكتاب الذى نقدم له :

والكتاب الذى نقدم له بهذه المقدمة ، إنما يمثل دراسة ليست بالمختصرة ولا بالمطولة ، فى موضوع من أهم موضوعات العقيدة ، وهو باب النبوات ، آثرت فيه الانطلاق أولا من أصول ديننا الحنيف : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله الكريم الشريفة الصحيحة . ثم أوردت آراء بعض العلماء فى القضايا التى تقتضى إيراد آرائهم ، فى تفسيرهم لتلك القضايا ووازنت بينهما بمنهج علمى محايد ، وآثرت منها ما يكون دليله أقوى وحجته أبين . دون تعصب إلا للحق ، والحق وحده . وإذا كان سلف أمتنا من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان على الحق ،كما جاء فى الحديث « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » (١) فإن القصد والغاية ألا نحيد عن هذا الطريق، وحده دون سواه ، وفى إطار بذل الجهد ، فى نقل القضايا الأساسية إلى شكل يقبله الدارسون ، بصورة تجمع بين عمق تراثنا وأصالته ، والرؤية العصرية ، التى تكشف عما يحدث فى الواقع مما يتصل بموضوع الدراسة .

---

(١) روى هذا الحديث جمع من الصحابة ، وهو متفق عليه . انظر : العقيدة الطحاوية : ص ٦٩ تعليق الشيخ محمد ناصر الألبانى أحد محدثى العصر على هذا الحديث .

الفصول التى يحتويها الكتاب :

يحتوى هذا الكتاب على عدد من الفصول ، تتكامل فيما بينها ، كى تعطى صورة واضحة وتامة لدارسى النبوات . وقد جاءت ما بين مطول مبسوط ، وبين ما هو أقل ، من حيث الحجم ، لا من حيث الموضوع ، وكان السبب فى هذا وذاك هو طبيعة البحث ، من ثم سنرى الفصل الرابع الذى تحدث عن تاريخ بعض الأنبياء ، قد طال بالنسبة إلى غيره من الفصول ، وها هى ذى فصول الكتاب :

الفصل الأول : الرسالات الإلهية ، ضرورية لصلاح المجتمعات الإنسانية .

الفصل الثانى : النبوة - الرسالة - الوحى .

الفصل الثالث : وحدة الرسالات السماوية فى أصول العقائد والعبادات والأخلاق .

الفصل الرابع : تاريخ موجز لبعض الرسل الذين ورد ذكرهم تفصيلاً .

الفصل الخامس : صفات الرسل : الواجب منها والمستحيل والجائز .

الفصل السادس : دلائل صدق الرسالات الإلهية .

الفصل السابع : الإسلام خاتم الرسالات ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .

والله وحده نسأل ، أن يكون الجهد الذى بذل فى إعداده خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به ، وأن يغفر لى إذا كان فيه قصور . كما أسأل القارئ الكريم أن يكتب لى بملاحظاته ، فالعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ، وفوق كل ذى علم عليم ، كما يقول رب العالمين .

القاهرة - مدينة نصر فى غرة ربيع الأول ١٤١٦ هـ

٢٩ من يوليو ١٩٩٥ م

المؤلف

الفصل الأول

الرسالات الإلهية ضرورية لصلاح المجتمعات الإنسانية

فى هذا الفصل ثلاثة مباحث رئيسية :

١- حاجة البشر إلى الرسالة الإلهية .

٢- حكم إرسال الرسل .

٣- المنكرون للرسالات الإلهية والرد عليهم .

وهى كما - ترى - مترابطة أشد الترابط ، إذ أولها يقرر القضية على أساس ما يحتاج إليه الإنسان ، فردا كان أو جماعة ، مما تصلح به حياته الدنيا ، على الوجه الصحيح الذى يورثه سعادة فى الآخرة . وإذا تبين أن الحاجة إلى الرسالة تنبثق من طبيعة الإنسان نفسه . وإذا تقرر أن القوانين والأعراف الوضعية لا يمكن أن توفر له مطالبه الروحية ، فضلا عن أن تنظم حياته على وجه تتحقق فيه العدالة ، فإن الإيمان باتصال السماء بالأرض لتنظيم هذه العلاقات يصبح مسألة يحتاجها البشر ، حتى يتم لهم الاجتماع ، ويتحقق العمران ، وهذا يعنى أن إرسال رسول يقوم بمهمة الهداية والإرشاد إلى الطريق المستقيم من الله تعالى لعباده أو لبعضهم ، حكم إلهى بمقتضى اللطف والرحمة الإلهية . وهذا موضوع المبحث الثانى . وإذا ثبتت الحاجة - كما قلنا - فإن إنكار بعثة الرسل ، يكون موضوعا يقتضى المناقشة لمعرفة الأسباب والدوافع ، ورد شبهات من يرى ذلك . وهذا هو المبحث الثالث . وسنوفى كل واحد من الثلاثة حقه فيما يأتى .

أولاً : حاجة البشر إلى الرسالة الإلهية .

تنبثق حاجة البشر إلى الرسالة السماوية التى تهديهم إلى سواء السبيل من طبيعة الإنسان نفسه ، فقد خلقه الله سبحانه وتعالى ، ومنحه طبيعة الكائن المتكيف ، سواء أكان ذلك مع بنى نوعه من البشر ، أم مع غيره من الكائنات الأخرى ، حين يتعامل

معها بما يقتضيه وضعه ، بين مراتب تلك الموجودات ، وهذا التكيف يعادل فى مفهومه « التمدن » و « التحضر » أى : الاجتماع ، فالإنسان لا يمكن أن يعيش وحده ، لأنه كائن اجتماعى ، ولا تستقيم حياته على الطريق السوى إذا عاش منفردا. لأجل هذا كانت له علاقات متعددة تحتاج إلى تنظيم وتعديل ، حين تنحرف طبيعته عن مسارها الصحيح ، لأنه مزود بمجموعة من الغرائز والرغبات . إذا لم تهذب بوضع الضمانات التى تجعلها سوية ، فإنه يحيا لذاته فقط ، وتتعقد الحياة تبعاً لذلك ، فتصبح جحيماً لا يطاق ، نظراً لتعارض رغبات كل فرد من أفراد الإنسان مع رغبات غيره .

ولعل مما يؤكد أن الإنسان لا يعيش إلا فى جماعة ، ما زوده الله به من آلة النطق ، إنها كانت فيه كى تصور المعانى والأفكار التى تعتمل بها نفسه ، فتصب فى حروف وألفاظ ، وبهذا يستطيع الفرد أن يتفاهم مع غيره من بنى نوعه ، وإذن فالحاجة إلى التفاهم ، دليل يؤكد أن كل فرد من أفراد النوع الإنسانى فى حاجة إلى الآخرين ، على قدر مطالبه وحاجاته .

إن حاجات الأفراد بعضهم إلى بعض ، لا تقف عند نمط محدد ، ولا عند عدد معين ، بل تزيد وتتكاثر كلما كثرت مطالب الفرد فى معيشته ، وذلك بتعديل نظرته إلى كل من الضروريات والكماليات والتحسينات ، سعة وضيقا ، رقيا وحضارة .. الخ ، فكلما صعد فى سلم التحضر والرقى كثرت مطالبه ، واتسعت - تبعا لذلك - دائرة علاقاته ، فتخرج من نطاق الأسرة ، إلى القبيلة إلى الأمة ، ثم إلى الإنسانية جمعاء . ويشير إلى ما قدمناه قول الحق تبارك وتعالى : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائـل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » (الحجرات : ١٣) فالآية واضحة الدلالة على ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان من حيث كونه كائنا اجتماعيا (لتعارفوا) .

وإذا كانت هذه هى طبيعة العلاقة بين الأفراد ، فما القانون الذى ينظمها حتى لا تتشابك المصالح وتتعارض ويتعقد الاجتماع كما ألمحنا ؟ . إن قيل : إن عقل الإنسان كاف فى معرفة الحقوق التى ينبغى أن تنال ، والواجبات التى ينبغى أن تؤدى

- وهذا مقالة طائفة البراهمة كما سيأتى - فإن هذا القول غير صحيح - كما سيأتى أيضا - لأن عقل الإنسان يتعثر كثيراً فى إدراك ذلك ، وبخاصة عندما تتغلب عليه العواطف والنزوات ، وإن قيل بكفاية قانون يتواضع عليه الأفراد ، أو تقليد أو عرف ، يكون أثرا من آثار مفكريهم أو عقلهم الجمعى ، فيقال كذلك : إن الإنسان مهما ترقى فى مضمار التفكير ليخرج قانونا يتواضع الناس على التعامل معه ، فإن تفكيره يظل عرضة للزلل والخطأ ، والواقع يرينا أن كثيراً من القوانين الوضعية - إذا اجتهد الواضعون لها حتى يغلب على ظنهم أنها تحقق العدالة - لا تعالج من الأمور إلا قشرتها الظاهرة ، ولا تنفذ إلى بواطنها ، وللقارئ أن يقارن بين رجلين : أحدهما ارتكب إثم السرقة فى غيبة رجل الشرطة ، فهو فى نظر القانون برئ ، ولا يقع تحت طائلته ، فى الوقت الذى يكون فيه آثما فى نظر الشرع الإلهى ، وثانيهما : وضع له شيء داخل حقيبته أو بيته دون علمه ، نكاية فيه ، ثم رفع أمره إلى الشرطة للقبض عليه متلبسا بحيازته لشيء لم يختره بإرادته ، إنه فى نظر القانون آثم ، بينما هو فى نظر الدين برىء .

ثم من جانب آخر : هل يمكن أن يدرك المقنن الوضعى عواقب الأمور ، فيعلم ما به يصلح الإنسان ، وما به يفسد ؟ إن قيل بالنفى فقد ثبت المطلوب ، وهو العجز البشرى عن تشريع قانون يكون به صلاح المجتمع الإنسانى ، وإن قيل بالإيجاب كان هذا القول غير مقبول ، لأنه يضع الإنسان فى وضع الإله الحق فى إدراك الأمور وعواقبها وما به صلاح المجتمعات وما به فسادها . ولو سلمنا جدلاً بقدرة الإنسان على ذلك ، فهل يمكن أن تحل القوانين البشرية محل القوانين الإلهية من حيث التقديس والاحترام والتقدير ، وهذا كله لازم لقبول التشريع والنزول على مقتضاه ؟

لم يبق - حينئذ - إلا أن يكون استتباب النظام بين الجماعة ، قائما على أساس من العدل ، الذى يستمد قوانينه من سلطة عليا ، فوق سلطة البشر ، وأن يكون لتلك القوانين ، قوة أسمى من الإنسان نفسه ، بحيث يستشعر قوة سلطانها عليه ، وقهرها ، رغبة ورهبة ، ويمنحها من التقديس والتقدير ما يقتضى تنفيذ ما أمرت به واجتناب ما نهت . وهذا مؤسس لدى الإنسان على قطبى العقل والإرادة ، اللذين قام

اعتقاده فى تلك السلطة عليهما . فهو بعقله الواعى يدرك أن الغاية من تلك القوانين ، لا تهدف إلا صالحه ، لأن المشرع الحكيم لا غرض لذاته منها ، إذ هو غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعة من استجاب لها ، ولا تضره معصية من أعرض عنها . قال الله تعالى : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الإسراء : ١٥) .

ولما كانت تلك القوانين لا تصل إليه إلا بواسطة من بنى نوعه - ضرورة التفاوت التام بين الحق سبحانه وتعالى وبين بنى الإنسان - يلتقى عندها المعنى الإلهى بالمعنى البشرى ، فيكون المعنى الأول سبيلا إلى التلقى من الله سبحانه وتعالى ، لما يشرعه من القوانين الضابطة لما يسعد به الإنسان فى حاله ومآله ، وعاجله وآجله ، ويكون المعنى الثانى سبيلا إلى التبليغ حتى يصل قانون الخالق إلى المخلوق ، والمعبود إلى العابد ، والإله الحق إلى المؤله المعتقد فى حقيقة ألوهيته ، فإن العقل يدرك صحة هذه المقدمات ، ويدرك كذلك ما يترتب عليها من نتيجة ، وهى حاجة البشرية إلى أناس معصومين بعصمة الحق تبارك وتعالى لهم ، خصهم بمزايا تجعلهم أهلا لتحمل هذه المهمة يؤيدهم بالخوارق التى تؤيد دعواهم . وهى من تلك الدعاوى بمنزلة الدليل ، إنهم رسل الله وأنبياؤه الذين بهم ينتظم الاجتماع الإنسانى ، فى صورته الصحيحة ، متى استجاب المدعوون لما يرشدونهم إليه ، إن مهمتهم محصورة فى قضية « البلاغ » والنتائج التى تقتضيها هذه المهمة ، إنما هى للمرسل (بكسر السين) وحده قال تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (المائدة : ٦٧) وقال : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (الغاشية : ٢١-٢٢) « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ... » (البقرة : ٢٧٢) « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء......» (القصص : ٥٦) .

وليس من حق العقل القاصر أن يتطاول على مقام الألوهية فيتصور سبلا أخرى من وسائل إيصال القوانين الإلهية إلى البشر ، إذ لو كان هناك ما هو أجدى من تلك الوسيلة لما أعرض عنها الحق سبحانه ، وهو الحكيم الخبير ، لأنه يعلم حيث يجعل رسالته .

إننا لا ننكر أن تقوم فى المجتمعات هيئات تضع القوانين لتنظيم هذه المجتمعات ، لأن هذا واقع لا ينكر ، وهو أمر سيظل موجودا ما وجدت الحياة ، فالعقل الإنسانى من طبعه الثقة فى ذاته ، بل قد يزعم - أحيانا وعلى لسان المغرورين - أنه فوق الوحى ، لأن الوحى إنما جاء لكى يفهم به .

أما الذى ننكره بشدة ، فهو مثل هذا الزعم الكاذب ، الذى لم يقم عليه دليل ، فالعقل البشرى مهما سما وترقى ، فهو عرضة للخطأ والزلل ، وأما الوحى فهو طريق معصوم لأنه منهج الله الذى تكفل بعصمته . ويوم أن قال بعض مفكرينا بالوحدة بين الدين والفلسفة ، بدعوى أن الدين مصدره الوحى ، وهو من الله تعالى ، وأن الفلسفة أساسها العقل ، وهو من الله كذلك ، فالمصدر هنا متحد ، نسوا أن الفارق بينهما واضح مع وحدة المصدر ، هو العصمة للوحى ، وعدم العصمة للعقل .

الأنبياء من البشر وليسوا ملائكة :

وكون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من البشر أمرا يسلم به العقل السليم لأنهم من جنس من يدعونهم إلى طريق الحق ، من ثم تبين أن استنكار كفار قريش ، لأن يبعث الله بشرا رسولا لم يكن له ما يبرره ، لا فى منطق العقل ولا فى منطق الدين . لذا رأينا القرآن الكريم يحسم القضية حسما . كما يصوره قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » (الأنعام : ٨ ، ٩) إذ لو كان ملكا كما يطلبون ، لما كان فى إمكانه أن يبلغ رسالة الله التى أمر بتبليغها حالة كونه كذلك . ضرورة اختلاف طبيعة كل من الملك والإنسان . فإذا كان الحال هكذا فلا معنى للرسالة حينئذ ، حيث لم تصل إلى المدعوين إليها . لم يبق إلا أن تتحول طبيعة الملك إلى الطبيعة البشرية حتى يتمكن من البلاغ ، ولو تم ذلك ورضى به المدعون لرجع الأمر إلى ما استنكروه ، وهو كون الرسول بشرا ، أو التبس عليهم حيث يعتقدون ملكيته ، فى الوقت الذى تحولت فيه طبيعته إلى البشرية .[1]

---

(١) انظر : الفخر الرازى . التفسير الكبير المجلد السادس جـ١٢ ص ١٧٠ .

وقد أقام القرآن الكريم الحجة عليهم فى آية أخرى ، مبينا أن هؤلاء لو أجيبوا إلى مطلبهم لما آمنوا بمن أرسل إليهم إلا أن يشاء الله ، قال تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (الأنعام : ١١١) فالقضية - إذن - ليست قضية طبيعة المرسل إليهم ، ولكنها قضيتهم ، إذ لو كانت نفوسهم مستجيبة للحق ، وعقولهم متفتحة له ، لأقرت بأن ما يجيئهم من عند الله ينبغى أن يكون بواسطة يفهمونها - الإنسان - من ثم عقب القرآن الكريم على موقفهم هذا ، بأن أكثرهم يجهلون ، وهذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن الإعراض عن الحق الواضح البين - الكفر - إنما هو صنو الجهل ولا مبالغة فى ذلك .

والمتأمل فى مطالب الكفار ومواقفهم حين تجيئهم الرسالات الصحيحة ، يلاحظ أنها مواقف لا تقوم على العقل ، بل على العناد والخصومة والعداء للحق ، إذ ليس من العقل فى شيء أن تقبل قضية « كون الرسول ملكا » وترد قضية كونه بشرا ، على الوجه الذى بينه القرآن الكريم ، كما أنه ليس من العقل فى شيء كذلك أن يطلب من الرسول فوق ما جاءهم به ، على غرار ما قرره القرآن الكريم حكاية عن مطلب بعض الكفار حين علقوا إيمانهم بالرسالة الجديدة ، حتى يفجر لهم الرسول من الأرض ينبوعا إلخ كما يصوره قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » (الإسراء : ٩٠ -٩٣) .

أجل !! إنه التعنت والكبرياء والمروق عن الحق الواضح ، وتعليق الانصياع له على مجموعة من المستحيلات .إن المطلب العادل إنما هو ذلك الذى يكون فى مقدور المطلوب منه أن يفعله ، فهل صرح لهم محمد صلى الله عليه وسلم بأنه يقدر على ذلك ، أو على بعض ذلك ؟ وهل صرح موسى لبنى إسرائيل أنه بإمكانه أن يريهم الله جهرة ؟ إن هذا كله إنما يعبر عن مجموعة من الصفات السلبية تنطوى عليها نفوس هؤلاء ، على رأسها « الجهل » وكفى به صفة ذميمة . لكل ما تقدم ، يظهر أن حاجة

البشر إلى الرسالة هى أهم حاجات الإنسان ، تفوق حاجته المادية التى لا يحيا إلا بها ، ولنا أن نتصوره حين يغيب عنه وحى السماء ، إنه يحيا حياة من ليس لهم قلوب ولا أفئدة ولا عقول ، من غير المكلفين ، وفى هذا كله إنزال له عن مكانته التى خلقه الله لها ، ومهمته التى استودعه إياها . وهى « الخلافة » عنه سبحانه فى الأرض . والقيام بما تقتضيه حقيقة العبودية تجاه المعبود .

وجه آخر للقضية :

قرر علماء العقيدة أن حاجة البشر إلى الرسالة الهادية ، على الوجه الذى قدمنا ، إنما يعبر عن إحدى حالتى النفس الإنسانية ، وهى حالة تلبسها بالبدن وحلولها فيه وأما الحالة الثانية ، فهى حالة تجردها عن البدن ، وخلوصها إلى عالمها الروحانى الذى أتت منه ، وهى بهذا الاعتبار قد طبعت على الاستعداد لقبول معلومات لا تتناهى من طرق متعددة ، وفى سبيل تحويل هذا الاستعداد إلى إدراك حقيقى ، لا تفتأ تبحث عن أنواع الكمالات ، مما يرفع من شأنها ، ويعلى من قدرها ، وهذه الكمالات التى تسعى النفس لحيازتها ، متى كانت موجودة ، أصبحت درعا يقيها المضار والمهالك ، ووصول النفس إلى المزيد من الإدراكات ، يكون تارة بطريق الحس ، وأخرى بطريق العقل ، وثالثة بطريق الإلهام . وبهذا الطريق الأخير قد أدركت أن لها حياة أخرى ، ليست دار تكليف كالحياة الدنيا ، بل دار جزاء وهى لازمة للحياة الأولى . لزوم الجزاء للعمل ، ومن ثم يصبح الإيمان بضرورة الحياة الأخرى أمراً ضروريا عقليا .

ومن طبيعة النفس البشرية ، أنها تتوق دائما إلى اكتشاف المجهول والبحث عن المستور المغيب ، وهذا يعنى أنها ترغب فى معرفة نوع الحياة الآخرة وليس هناك ما يمنعها من ذلك - على سبيل التفصيل - وبين إدراكها لوقائع الحياة الدنيا ، وتطلعها إلى معرفة كيفية الحياة الآخرة ، تظل فى تنازع مستمر ، ولا نجاة لها من هذا التنازع إلا أن يدركها خبر يقينى ، بما أعد لها فى الحياة الأخرة ، يأتيها ممن لا يجوز عليهم الكذب ، لصفاء نفوسهم ونقاء فطرتهم ، التى فطروا عليها ، بحيث يصيرون على استعداد تام ، لتلقى العلوم والمعارف من واجب الوجود إما بواسطة ملك ، وإما بغير واسطة (الإلهام) (القذف فى القلب) . كما يليق بهم أن يكونوا أهلا للمحافظة على

مكنون سر الحق سبحانه وتعالى ، والاطلاع على الغيب بإذنه ، وفى هذا يقول الحق سبحانه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ... » (الجن : ٢٦ ، ٢٧) ثم يؤمرون بتبليغ بقية أفراد النوع الإنسانى ، بما يلزمهم فى حق خالقهم ، وبما له مدخل فى سعادتهم الدنيوية والأخروية . وذلك بواسطة الشرائع التى يتلقونها . ويؤيدهم الحق تبارك وتعالى بما يثبت صدق دعواهم ، مما لا يدخل تحت طوق البشر ، حتى تقوم بذلك الحجة على كل معاند ، ويتم الإقناع بصدق دعوى الرسالة [١]

الدليل التاريخى :

يضاف إلى ما قدمناه ، الواقع التاريخى الذى عاشته المجتمعات البشرية التى جاءتها الرسالات السماوية ، وبخاصة ما آلت إليه أمورها الاعتقادية والأخلاقية والاجتماعية ، تلك التى استأهلت بحق عون السماء كى يكون منقذاً لتلك المجتمعات، متى استجابت لنداء الحق ، ولم تعرض عنه ، لتظل فى إطار التقليد الأعمى ، الذى أورثها تلك الحياة الضالة .

وليس هناك ما هو أولى فى إطار المرجعية التى تتحدث عن هذا الواقع ، من القصص القرآنى ، ذلكم لأنه ليس قصصا عاديا ، وإنما سيق للعبرة والعظة وقياس الشاهد على الغائب . كما صرح بذلك القرآن الكريم فى آخر سورة يوسف حيث قال : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١) .

والانحرافات التى كان عليها قوم كل نبى قبل مجيئه تنوعت حتى شملت الحياة الإنسانية كلها : انحرافات فى التصورات والمفاهيم والاعتقادات ، تصورات شاذة فى

---

(١) أطال الغزالى النفس فى هذه المسألة فى كتابه : المنقذ من الضلال ص ١٢٤ والشيخ محمد عبده فى : رسالة التوحيد ص ٦٨ أعنى : الحالة الثانية من حالتى النفس البشرية وكلاهما متأثر إلى حد كبير بكلام الفلاسفة الإسلاميين .

الأخلاق والسلوك ، وأفكار مقلوبة فى العادات والتقاليد والمعاملات . وكلها تعلل بأن مهمة العقل الذكى المتحرر من كل تقليد ، قد ضاعت وسط الركام الهائل من تلك التقاليد البذيئة والعادات الشاذة . إن هذا المعنى قد أشار إليه القرآن الكريم فى وضوح تام فيما استنطق به قوما تحجرت عقولهم ومشاعرهم وحبسوا أنفسهم طوعا فى حمأة التقليد المقيت ، مع ظهور الحق وإشراقه ، واتساقه مع العقل السليم والفطرة الصحيحة ، الذى يدعو إليه كل نبى ، قال سبحانه : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » (الزخرف : ٢٢ - ٢٥).

إن موازنة هؤلاء الأقوام بين ما هم عليه من ضلال فى كل شىء على الصورة التى أشرنا إليها منذ قليل ، وبين عطاء السماء الذى جاءهم على يد الأنبياء عليهم السلام ، قد غابت ، أو إن شئت فقل : أريد لها أن تغيب ، لأن عقولهم وقلوبهم قد وقفت عن الاستجابة لغير منهج الآباء والأجداد ، حتى ولو كان ذلك الغير فيه صلاحهم وفلاحهم ، كما هو منطق الآيات التى سقناها . وما أشبه موقف هؤلاء بموقف المريض الذى أخذ منه المرض كل مأخذ ، وأتاه الطبيب المناسب ليقدم العلاج الملائم لمرضه دون أن يسأله على ذلك جزاء ولا شكورا (وما أسألكم عليه من أجر) ولكنه يؤثر البقاء فى مرضه هذا . حتى أصبح الموقف برمته كما جاء فى قول الشاعر العربى

ومن العجائب والعجائب جمـــة	قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما	والماء فوق ظهورها محمـول

والمانع دون الوصول إلى الدواء الذى به تطب أمراض تلك المجتمعات ، إنما كان من صنع أنفسهم . من ثم رأينا القرآن الكريم يبرز هذه النتيجة ، وهى أنهم لم يظلموا ، ولكنهم ظلموا أنفسهم فكان عاقبتهم خسرا ، قال تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » (الزخرف : ٧٦) ثم يصور موقفهم يوم القيامة حين يعاينون العذاب

الشديد . جزاء إعراضهم عن منطق الحق ، ويتمنون أن يقضى عليهم ، انتهاء من هذا العذاب ، فقال : « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » (الزخرف : ٧٧ ، ٧٨) .

والقرآن الكريم قد أجمل هذا الموقف فى إطار شامل وكامل ، ليبرز القضية الأساسية التى نحن بصددها ، وهى : أن أقوام الأنبياء كانوا فى حاجة ماسة إلى من ينقذهم مما أضحوا فيه . ولكنهم أعرضوا . فحق عليهم الأخذ بالذنب من جراء هذا الإعراض ، لقد تحدث عن موقف قوم نوح مما دعاهم إليه ، من الإيمان بالله وحده لا شريك له وحذرهم من نتيجة الاعراض والإدبار وبشرهم بنتيجة الإقبال والرضا والقبول لما أرسل به إليهم : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » (نوح : ٥ - ٧) ثم يبين القرآن تنوع الأسلوب الذى دعاهم به ، فلم يكن منهم إلا الصد عن سبيل الله : « ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » ثم يسوق عوامل الترغيب عسى أن تتحرك نفوسهم وقلوبهم وعقولهم نحو الحق الذى جاءهم به ودعاهم إليه : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » (نوح : ٨ - ١٢) .

ونفس الموقف يذكره القرآن فى سور أخرى . وقد أجملت سورة العنكبوت الصورة كلها حين تحدثت الآيات من الآية رقم (١٤) وحتى الآية رقم (٣٩) عن قصص كل رسول وما قال لقومه وموقفهم مما جاءهم به ، وهم : نوح - إبراهيم - لوط - شعيب - هود - صالح - موسى ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ثم عقب على هذا المشهد بقوله سبحانه وتعالى : « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (العنكبوت : ٤٠) .

إن الآيات فى مجملها تضع أيدينا على قانون إلهى واضح ، وسنة ربانية ظاهرة ،

ذلكم لأن العقل الصريح يقرر أن المريض الذى يجيئه العلاج الذى يبرئه ، ثم يعرض عنه ، فإن جزاءه ينبغى أن يكون من جنس إعراضه . وإذا كان هذا الإعراض يمثل حالة من الشذوذ النفسى والعقلى ، فإن مقتضى ذلك أن تعالج هذه الحالة بما يناسبها . وقد عرض القرآن الكريم العلاج الذى يمثله المنهج الذى جاءت به رسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الصورة التى بيناها فى حديث نوح لقومه . والإصرار على الإعراض الذى يلزمه البقاء فى دائرة الأمراض يعنى أن الوسائل قد استنفدت ، فلم يبق إلا الأخذ بالذنب ليكون ذلك سنة مطردة وقانونا عاما ينطبق على كل من يعرض عن الحق ، ويصر على الباطل ، فى كل جيل وفى كل قبيل ، وهذا هو المغزى الحقيقى من القصص القرآنى .

ثم ماذا كان على أقوام الأنبياء لو أنهم اعتبروا الرسالات الإلهية مشروعات ينبغى أن تدرس ؟ أليس هذا هو منطق العقل ومقتضى الحكمة ؟ ويظهر لى أن هذا السؤال يكون صحيحا حين نتوجه به إلى الأصحاء نفسيا وعقليا .إنه كذلك صحيح فى ذاته ، من ثم رأينا القرآن الكريم يقرر أن أبسط قواعد المنهج لم تكن مرعية لدى هؤلاء ، ذلكم لأن كلا من التصديق والتكذيب حكم ، ولا يكون مقبولا فى معيار العقل الصريح إلا إذا قام على مبررات عقلية تقتضى هذا الحكم ، أقل هذه المبررات تصور المحكوم عليه تصورا يؤدى إلى نتيجة صحيحة ، تطبيقا للقاعدة العقلية الفطرية ، التى تقرر أن الحكم على الشىء فرع عن تصوره . ويظهر كذلك أن القوم كانوا أبعد الناس عن التصورات الصحيحة ، من ثم حكم عليهم القرآن هذا الحكم الواضح البين ، بأنهم كذبوا بالحق لما جاءهم قبل أن يحيطوا به علما ، فقال سبحانه : « أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » (يونس : ٣٨ ، ٣٩).

فلنلحظ هنا دعواهم : افتراه أى : القرآن الكريم ، يعنون بذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم ادعى أن القرآن من عند الله وما هو من عند الله وبالضرورة فى نظرهم فهو كاذب فى دعواه . وهذه الدعوى التى قالوها – افتراه – ليس عليها دليل ، لأن القرآن

الكريم بين أنه طلب إليهم أن يأتوا بمثله ، على اعتبار أنه قول البشر ، ولو كان كذلك كما يدعون لكان فى مقدورهم أن يجاروه ، وإذا كانوا قد عجزوا أو هربوا من مجاراته فإن هذا يدل على أنه ليس عملا بشريا ، بل هو وحى إلهى ، فأنى لهم بعد ذلك أن يكذبوا قبل أن يعلموا ؟

تلك قضية تتصل بمنهج التعامل مع كل دعوى تطرح أمام العقل ، فإذا كانت رسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تمثل مناهج الإصلاح والتقويم ، فقد كان على أقوامهم أن يدرسوها ليعرفوا قيمة ما تنطوى عليه من مقاصد وغايات ، قبل أن يعرضوا عنها ويتمسكوا بما عليه الآباء والأجداد ، حتى ولو كان فى هذا الاستمساك سوء العاقبة فى الدنيا - الأخذ بالذنب - والآخرة - العذاب المقيم - كما صرحت بذلك آيات الكتاب العزيز .

مع نبى وقومه :

نبين الآن - كدليل على مقتضى الرسالات الإلهية ، وأنها تمثل حاجة ضرورية لكل المجتمعات - صورة الواقع الذى كان يحياه قوم نبى من أنبياء الله سبحانه وتعالى ، لتكون معبرة عن مثيلاتها من حياة أقوام الأنبياء الآخرين ، ونختار من ذلك ما كان عليه قوم لوط عليه السلام من حياة اجتماعية فاسدة وأن رسولهم إنما جاء ليعالج هذا الانحراف من حيث الاعتقاد والسلوك . قال الله تعالى مبينا ذلك : « كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ، قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، قال إنى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » (الشعراء : ١٦٠ - ١٧٣) .

وقد أوردنا هذه الآيات - على طولها - لتكتمل الصورة ، التى يظهر منها :

١- خطورة المرض الاجتماعى الذى كان عليه القوم ، ذلك الذى يتنافى مع الفطرة السليمة ، ويدل على الانحراف الخلقى والنفسى والبيولوجى ، وهو إتيان الذكران وترك الوسيلة الطبيعية للإشباع الغرزى الجنسى [١] . وهذا الانحراف الأخلاقى إنما أتاهم من جهة أنهم لم يكونوا أصحاب رؤية اعتقادية صحيحة ، إذ لو كانوا صحيحى الاعتقاد لما انحرفوا هذا الانحراف الخطير ، من ثم نرى أن كل نبى كان يبدأ قومه بتصحيح المعتقد « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . وقد ذكرت الآيات التى معنا أن نبيهم لوط أكد طلبه بتقوى الله : « ألا تتقون » « فاتقوا الله وأطيعون » أى : عودوا إلى الإيمان بالله وحده ، واتركوا ما أنتم عليه من ضلالات . ولو صححتم عقيدتكم لصلح سلوككم .

٢- معاداة القوم لكل ما هو حق ، « بل أنتم قوم عادون » وتتخطى المعاداة النفسية حدودها لتنتقل إلى حالة التهديد والوعيد لنبيهم الذى جاءهم بما يصلحهم .

٣- أن دعوة النبى قومه إلى الحق كان لها ما يبررها من سوء المعتقد والسلوك معا . وانه استنفذ كل الوسائل الممكنة ، فلم يسألهم أجرا على دعوته ، ولم يعنف عليهم بل عرض ما جاءهم به بكل رفق ولين ، ولكن طباعهم الصلدة أبت الانصياع للحق ، فكان تدمير من أعرض عن منهج الله جزاءً وفاقاً لهذا الموقف الشاذ .

---

(١) والقرآن الكريم بين أن العلاقة الطبيعية لإشباع هذه الغريزة ، إنما تكون بين الرجل والمرأة ، فقال سبحانه : « نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم ... » (البقرة : ٢٢٣) وقال :« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ... » (البقرة : ١٨٧) ويؤكد الكتاب العزيز أن فوق العلاقة الجنسية الطبيعية بين الرجل والمرأة ما هو آكد وألزم لاستقرار الحياة فقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ... » (الروم : ٢١) وخلق الله الكائنات الحية كلها هكذا : الذكر والأنثى ، لتعمر بها الحياة ويطرد الوجود إلى أن يشاء الله فقال سبحانه : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الذاريات : ٤٩) . وقد أثبت الطب أن الشذوذ الجنسى من الأسباب الرئيسية لمرض فقدان المناعة « الإيدز » .

سؤال : قد يسأل سائل فيقول : إذا كان الحق سبحانه وتعالى يعلم سلفا ما سيكون عليه الأقوام من مواقف شاذة تجاه رسلهم ، فأين الحاجة - حينئذ - إلى الرسالة التى يحملها كل نبى إلى قومه ؟

والجواب : إن هذا السؤال ما نشأ إلا من عدم تحديد المراد بالحاجة . ومن ثم نقول : إن المراد بالحاجة : النقص الذى يلحق طرفا فيراد استكماله من طرف آخر ، بحيث يكون النقص أمرا حاصلا . وهذا النقص يشعر به صاحب الحاجة لا محالة ، ومظهره ذلك الانحراف الذى أشرنا إليه فى قصة « لوط » مع قومه ، ولكن طلب استكمال ذلك النقص يتوقف على بواعث داخلية ، متى توفرت تلك البواعث كان طلب الاستكمال أمرا طبيعيا ، وأما إذا لم تتوفر - إيثاراً لعوامل الإلف والعادة والتقليد - فإن الحاجة تظل قائمة مع فقدان الباعث إليها ، والمثل الواضح فى ذلك ، مثل المريض مع وجود العلاج على الصورة التى أشرنا إليها من قبل .

وهناك صورة أخرى لهذا الجواب . ذكرها القرآن الكريم ، وهى أن الرسالات إنما تمثل حجة واضحة لمن آمن بها ومن أعرض عنها على السواء ، غير أن جهة حجيتها تختلف باختلاف المقامين ، فهى حجة للمؤمن بها وحجة أيضاً على من لم يؤمن ، وهذا يعنى أن مضمون الرسالات ومحتواها ومقاصدها وغاياتها قد استوعبها عقل من آمن بها ، لأنها قامت على أساس من الاتساق مع الفطرة والعقل السليم وحرية الإرادة . وأما من أعرض عنها فلم يرق إلى هذا المستوى ، حيث ظل فى دائرة الجهل وانغلاق الروح وايثار التقليد البغيض ، ومن ثم يصح القول بأن الإلحاد ، والكفر ، هو صنو الجهل ، وليس موقفا اعتقاديا صحيحا .

إن الحق سبحانه وتعالى ، قد عالج فى قرآنه الكريم كل منافذ الاحتمالات فى القضية التى معنا ، وكأنه جل وعلا أراد - وهو الرفيق بعباده إلى آخر مدى حتى مع العاصين منهم - ألا يترك للمعاندين سبيلا إلى الاحتجاج ، حتى ولو كان احتجاجهم على سبيل المكابرة والعناد ، إذ لو لم يكونوا كذلك ، لآمنوا بالحق لما جاءهم ، فقرر أن الرسالات الإلهية إنما هى حجة على من لم يؤمن بها - كما أشرنا - حتى لا يكون

للناس حجة بعد الرسل ، فقال سبحانه : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً » (النساء : ١٦٥) ورتب عذاب العصاة على بعثة الرسول فى قوله : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الإسراء : ١٥)

ومن المؤكد أن كل رسالة من رسالات الله ، قد صادفت عقولا واعية ونفوسا متعطشة إلى معرفة الحق ، طالبة طريق الهداية وسبيل الرشاد ، وأصحاب هذه العقول وتلك النفوس ، هم الذين اهتدوا فزادهم الحق تبارك وتعالى هدى ، وآتاهم تقواهم ، ولا عبرة بعددهم من حيث القلة والكثرة أو الوضع الاجتماعى ، فهذه كلها أوضاع عرضية لا تغنى عن الحق شيئا ، إنهم يمثلون أصحاب الحاجة الذين توفرت لديهم بواعث طلبها والانتفاع بها ، ممن أشرنا إليهم من قبل .

وبهذا الذى قدمناه ، يظهر أن الحاجة إلى الرسالة الإلهية تنبعث من طبيعة الإنسان ، متى تجرد من جميع العوامل المثبطة ، كما أنها ضرورة عقلية ، حيث تمثل الحجة لمن يدعون إليها فيستجيبون ، وعلى من يدعون إليها فيعرضون على الوجه الذى ذكرنا .

وما كان لنا أن نذكر أكثر من هذا من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حتى لا يطول البحث [١] لنكشف عن قيمة المآسى التى كانت تسيطر على حياة أقوامهم حين جاءوهم ، تلك التى كانت تشكل خللا نفسيا واعتقاديا وأخلاقيا ، كانت أحوج ما تكون إلى من يأخذ بيدها إلى الطريق الصحيح ، وهذا من مقتضيات الحاجة إلى الرسالة لا من موانعها ، فى الواقع ونفس الأمر .

---

(١) آثرت ضرب المثل بقوم لوط ، ولم أشأ أن أمثل بواقع العرب قبل الإسلام ، وإن كانت انحرافاتهم أشنع ، حيث شملت كل شىء تقريبا ، ذلك لأن أحوالهم معروفة أكثر من أحوال غيرهم ، ومن أراد أن يعرفها فليرجع إلى كتب السيرة المعتبرة . ومن المراجع المعاصرة التى وفت الموضوع حقه كتاب : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين للعلامة أبى الحسن الندوى فليرجع إليه . الباب الأول . العصر الجاهلى ص ٣٩ وما بعدها .

ولعل الذى يرجع إلى سورة « الشعراء » ليقرأ ما كان عليه حال المجتمعات التى جاءتها الرسالات الإلهية ، يدرك تماما أن الحاجة كانت ماسة إلى تلك الرسالات .

ثانيا : حكم إرسال الرسل :

المقصود بالحكم هنا ، هو الحكم العقلى ، وهو ثلاثة أنواع :

١- الوجوب : وهو الثبوت الذى لا يقبل الانتفاء أصلا لذاته .

٢- الإمكان أو الجواز : وهو الذى يقبل الثبوت تارة والنفى تارة أخرى لذاته .

٣- الاستحالة : وهو العدم أو النفى الذى لا يقبل الثبوت أصلا لذاته .

والحق أن إرسال الرسل قد أخذ هذه الأحكام الثلاثة معاً ، حيث ذهب فريق من الباحثين فى القديم والحديث ، فى مجال علم العقيدة إلى القول بوجوب إرسال الرسل ، يشاركهم فريق آخر عبر عن الضرورة باللزوم . كما ذهب فريق ثان إلى القول بالجواز أو الإمكان ، وأقر ثالث باستحالة ذلك وهذا ما سنبينه .

فأما الذين قالوا بوجوب إرسال الرسل ، فهم جمهور المعتزلة ، وإنما تمسكوا بهذا الحكم ، اعتقادا منهم بضرورة وصول الألطاف الإلهية إلى مستحقيها من العباد ، وقد فهموا هذا المعنى من قول الحق تبارك وتعالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » (الشورى : ١٩) والألطاف عندهم مؤسسة على الحكمة الإلهية ، التى تعلل بها أفعال الحق سبحانه ، تلك الحكمة التى مظهرها فعل الأحسن بديلا عن الحسن ، والأصلح بديلا عن الصالح ، وهكذا فكل الأفعال التى تأخذ مراتب فى تقديرها وطبيعتها ، فما علا منها فهو واجب فى حق الله تعالى أن يفعله ، بخلاف أفعال البشر . والنتيجة الطبيعية لهذه المنطلقات التى تشكل جزءا من منهجهم فى النظر إلى أصول الاعتقاد ، أن تكون بعثة الرسل أصلح للبشر وأحسن لهم ، وأعون على الاستقامة على طريق الحق . ويربطون كلامهم هنا بمذهبهم فى العدل الإلهى . يقول القاضى عبد الجبار مبينا هذا الحكم : « الكلام فى النبوات ووجه اتصاله بباب

العدل ، هو أنه تعالى إذا علم أن صلاحنا يتعلق بهذه الشرعيات ، فلابد من أن يعرفناها ، لكيلا يكون مخلا بما هو واجب عليه ، والأصل فى هذا الباب أن نقول : إنه قد تقرر فى عقل كل عاقل وجوب رفع الضرر عن النفس . وثبت أيضاً أن ما يدعو إلى الواجب ، ويصرف عن القبيح . فإنه واجب لا محالة . إذا صح هذا ، وكنا نجوز فى الأفعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات ، وفيها ما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك ، ولم يكن فى قوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف وبين مالا يكون كذلك ، فلابد من أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال لئلا يكون عائدا بالنقص على غرضه بالتكليف . وإذا كان لا يمكن تعريفنا بذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولا مؤيدا بعلم معجز ، دال على صدقه ، فلابد أن يفعل ذلك ، ولا يجوز الإخلال به ، ولذا قال مشايخنا : إن البعثة متى حسنت وجبت » (١)

وجمهور الماتريدية يعللون حكم إرسال الرسل بنفس ما ذهب إليه جمهور المعتزلة ، إذ هى عندهم مظهر للألطاف الإلهية التى هى مقتضى الحكمة ، وهذه الحكمة هى سبب الخير العام ، الذى يستحيل تركه لأنه سفه ، يتنزه عنه البارى تعالى كما أن ما علم الله وقوعه ، يجب أن يقع لاستحالة الجهل عليه (٢)

غير أنه يظهر من كلام الماتريدى فى كتابيه : التوحيد (٣) وتأويلات أهل السنة (٤) أنه يقول بالإمكان لا بالوجوب ، أى أنه يوافق الأشاعرة ، كما سنرى ، فى الوقت الذى نراه ينطلق من نفس منطلق المعتزلة ، ويظهر أن مفهوم « الوجوب » قد يحدث فى النفس شيئاً يتنافى مع حرية الإرادة ، من ثم نقرر فى اطمئنان ، أن القول بالإمكان بديلا عن الوجوب ، كان أمرا متصلا بالقلب أكثر من اتصاله بالعقل ، كما سنبين فى موضوعه عند حديثنا عن الأشاعرة .

---

(١) شرح الأصول الخمسة : ص ٥٦٤ .

(٢) التفتازانى : المقاصد جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٣) ص ١٧٩ .

(٤) جـ١ ص ٢٨٤ . وانظر : د/ المغربى : إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدى ٣٥١ .

وأما الفلاسفة الإسلاميون فقد قالوا بلزومها ، وليس هناك من فرق بين اللزوم والوجوب ، إذ كلاهما يحمل معنى عدم التخلف ، غير أن الفلاسفة ينظرون إلى المسألة بعين تنطلق من طبيعة ذات واجب الوجود وحده ، دون النظر إلى حاجة الإنسان المقتضية لإيصال الألطاف إليه . وهذا الملحظ قد عبروا عنه بأن طبيعة واجب الوجود ، التى هى خير محض ، يلزمهـا أن يفيض عنها ما يكون امتدادا وتعبيـرا عن هذا الخير . كلازم لتلك الذات الخيرة .[1]

ولهم فى هذا المقام كلام طويل ، يتصل بما نحن بصدده ، وبالخصائص التى ينبغى أن يحوزها الرسول ، ذكرها صاحب المواقف بقوله : « وأما الفلاسفة فقالوا هو - أى النبى - من اجتمع فيه خواص ثلاث :

أولها : أن يكون له اطلاع على المغيبات ، ولا يستنكر ذلك ، لأن النفوس الإنسانية مجردة ، ولها نسبة إلى المجردات ، المنتقشة بصورة ما يحدث فى هذا العالـم ، وتشاهد ما فيها فتحكيها ، ويؤيده ما ترى النفوس وما هى عليها من التفاوت فى طريق الزيادة والنقصان ، متصاعدا إلى النفوس القدسية ، ومتنازلا إلى البليد ، الذى لا يكاد يفقـه قولا . وقد يوجد فى من قلت شواغـله لرياضة أو مرض أو نوم » .[2]

وثانيها : أن يظهر منه الأفعال الخارقة للعادة لكون هيولى عالم العناصر مطيعة له منقادة لتصرفاته انقياد بدنه لنفسه ، ولا يستنكر ذلك لأن النفوس الإنسانية مؤثرة فى المواد كما نشاهد من الاحمرار والاصفرار والتسخن عند الخجل والوجل والغضب ، فلا يبعد أن تقوى نفس النبى ، حتى تحدث بإرادته فى الأرض رياح وزلازل وهلاك أشخاص ظالمة وخراب مدن فاسدة .[3]

وثالثها : أن يرى الملائكة مصورة ويسمع كلامهم وحيا ، ولا يستنكر أن يحصل له ذلك فى يقظته ، مثل ما يحصل للنائم فى نومه ، لتجرد نفسه من الشواغل البدنية ،

---

(١) التفتازانى : المقاصد . جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٢) المواقف : جـ ٨ ص ٢١٨ .

(٣) نفس المصدر .

وسهولة انجذابه إلى عالم القدس ، وربما صار ملكة ، ويحصل بأدنى توجه » .[1]

والواقع أن كلام الفلاسفة هنا مبنى على فهم خاطئ لطبيعة النفس البشرية ، حتى فى حالة صفائها ، فهى لا تؤثر فى شىء لذاتها ، لأن المؤثر فى الوجود كله ، هو الحق تبارك وتعالى .والنتيجة الطبيعية لكلامهم هذا ، أن تكون النبوة استحقاقا واكتسابا ، وليست هبة واصطفاء .وهذا ما يرفضه العقل والدين وقد رد عليهم جمهور المتكلمين ، ومنهم صاحب المواقف فليرجع إليه ..[2]

مذهب الأشاعرة فى حكم إرسال الرسل :

قرر الأشاعرة أن حكم إرسال الرسل ، هو الجواز والإمكان ، لا الوجوب كما ذهب إلى ذلك المعتزلة ولا اللزوم كما قرر ذلك الفلاسفة ، والمبدأ الذى قرروا به هذا الحكم ، هو أن النبوة أو إرسال الرسالة لطف كما يقول المعتزلة ، ولكن اللطف عندهم غير واجب على الله ، لأنه مختار فى فعله ، فالحكمة ، أو اللطف ، إنما هى صفات الفاعل المختار ، وينبغى أن نفهم هذين الأمرين فى ضوء هذه الحقيقة ، إذ الوجوب أو اللزوم ينافى ذلك . والقرآن الكريم يقرر أن الحق سبحانه يخلق ما يشاء ويختار ، وهو فعّال لما يريد ، وقد اعتبرهم « الشهرستانى » أهل الحق - وهو واحد منهم - فقال : « قال أهل الحق : قام الدليل على أن الرب تعالى خالق الخلق ومالكهم ، ومن له الخلق والأمر والملك ، له أن يتصرف فى عباده بالأمر والنهى ، وله أن يختار منهم واحدا لتعريف أمره ونهيه فيبلغ عنه إليهم ، فإن من له الخلق والإبداع ، له الاختيار والاصطفاء ، وربك يخلق ما يشاء ويختار » .[3]

وهذا الذى ذكره « الشهرستانى » هو مذهب جمهور الأشاعرة . الأشعرى [4] - الجوينى - [5] غير أن الغزالى يرى أنها واجبة من جهة ما تقتضيه الحكمة الإلهية ،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) سنوفى هذا الموضوع حقه عند دراستنا للنبوة كما يراها الفلاسفة فيما سيأتى .

(٣)نهاية الأقدام : ص ٤٢٠ .

(٤) الإبانة : ص ٧٥ .

(٥) الإرشاد : ص ٣٠٢ .

وهو بهذا يكاد يردد كلام المعتزلة والفلاسفة .[1]

ويظهر مما سبق أن الطوائف الثلاث : الأشاعرة والمعتزلة والفلاسفة الإلهيين ينظر أهل كل طائفة منها إلى المسألة بحسب تصوره للذات الإلهية وعلاقتها بالإنسان ، ويجمعها : الاعتقاد بأن الرسالة الإلهية لطف من الله تعالى ، ولكن كلا منها تختلف عن الأخرى فى تفسيرها للألطاف الإلهية فبينما يرى أهل السنة - انطلاقا من مذهبهم فى أن الحق سبحانه لا يجب عليه شىء حتى لا يصطدم ذلك بالمشيئة والإرادة الإلهية - أن الألطاف الإلهية هى مظهر للفاعل المختار فى فعله ، وإيصالها إلى البشر أمره إليه سبحانه . ومن ثم فلا يجب عليه شىء ، نرى المعتزلة ينظرون إلى اللطف الإلهى على أنه واجب لذات الحق سبحانه وتعالى ، لا من قبيل الواجبات التى تفرض على الفاعل من الخارج . ويظهر أنهم يستندون فى هذا إلى أمرين واضحين :

أولهما : مقتضى الحكمة الإلهية . ذلكم لأن الحق سبحانه وتعالى حكيم فيما يفعل ، ولما كان كذلك فإن من الحكمة أن يبعث إلى كل أمة رسولا يأخذ بيدها إلى الطريق الحق ، بحيث يكون ذلك أمرا مطردا لا يتخلف .

ثانيهما : أن الايجاب الذى قالوا به إنما يرجع إلى مقتضى الذات الإلهية ، وليس له مصدر غيرها . ويساعدهم على هذا الفهم بعض النصوص القرآنية التى جاءت لتبين أن الحق جل وعلا قد كتب على نفسه أشياء يصل أثرها إلى عباده مثل قوله تعالى : « قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ..» (الأنعام : ١٢) . فالآية ظاهرة الدلالة على أن إيجاب الرحمة على الله تعالى أمر ذاتى له سبحانه هو من مقتضى علاقته بخلقه . وهذا مظهر لصفة كمالية يرددها المسلم فى صلاته كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل ، جاءت مرة على صورة متفردة « الرحمن » وأخرى على وزن صيغة المبالغة « الرحيم » .

---

(١) التفتازانى : شرح العقائد النسفية ص ١٣٣.

وأما الفلاسفة الإلهيون ، فقد جاء حكمهم موافقا لاعتقادهم في أن ما يتوقف عليه النظام فهو لازم ، وأن واجب الوجود خير محض ، ومن خيريته يلزم نظام الحياة البشرية ، التي لا تكون إلا ببعثة رسول .

ونحن لا نرى فرقا كبيرا بين الطوائف الثلاث ، من حيث جوهر القضية ، اللهم إلا في طريقة التعبير عنها . والقرآن الكريم قد بين أن جميع الأمم والشعوب قد أدركها لطف الله سبحانه ببعثة الرسول ، في صيغة يظهر منها أنها أمر لازم ، جاءت هذه الصيغة في أسلوب حاصر ، بحيث يبين منه ، أن أمر الرسالة لم يتخلف أبدا ، قال تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (فاطر :٢٤) . كما جاءت في القرآن الكريم آيات تقرر القضية على سبيل البيان تارة ، مثل قوله : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ... » (النحل : ٣٦) وأخرى على سبيل توقف العذاب على بعثة الرسل ، كما في قوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الإسراء : ٢٥) . إن هذه الآيات في جملتها تقرب بين وجهات النظر التي قالت بها هذه الطوائف في القضية التي معنا .

والآن نخص طائفة القائلين بالاستحالة بدراسة خاصة حتى نستكمل أقسام الحكم العقلي ، التي صدرنا بها هذا المبحث .

ثالثا : المنكرون للرسالة الإلهية :[1]

أنكر الرسالات الإلهية طوائف أربع :

١- الطائفة الأولى :

أولى هذه الطوائف لم تقل بالإنكار صراحة ، ولكنها أنكرت لوازم الرسالة ، من

---

(١) التقسيم العقلي يقتضي أن يكون هذا المبحث داخلا ضمن المبحث السابق (حكم إرسال الرسل) لأن الإنكار حكم ، ولكني آثرت أن أجعل له عنوانا خاصا لأهميته ، وقد ذكرت ذلك من باب الاهتمام ببعض أجزاء الكل ، لما له من خصوصية .

نزول الملك بالوحى، ورتبت على ذلك إنكار ما يخبر به الرسول من الأمور التى يتوقف الإيمان بها على السماع ، فى عرف المتدينين ، كالحشر والحساب والجنة والنار ..الخ . والمسألة هنا واضحة فى أن هذا الإنكار إنما هو تكذيب للنبى فيما أخبر ، وإطاحة بالدين من أساسه ، لأنه فى عرف المسلمين منهج إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم ، إلى ما فيه صلاحهم فى الحال والمآل ، ولن يتأتى ذلك إلا بواسطة الوحى الذى يحمل خبر المرسل (بكسر السين) إلى المرسل (بفتح السين) .

والإخبار الصادق هو مناط الرسالة ، والظاهر أن حكم هؤلاء قائم على فهم خاطئ للنبوة ، كما يظهر أن الشبهة التى بنى عليها هؤلاء الذين جاء انكارهم للنبوة بإنكار لوازمها ، إنما جاءت من عدم قدرتهم على تصور نزول الملك الذى يحمل الوحى إلى النبى ، لعدم إمكان اختراق السماء فى نظرهم ، كما أنهم من ناحية أخرى ينكرون كل ما لا يقع عليه الحس ، ويزعمون أن المغيبات لا وجود لها ، من ثم ينتهون إلى قضية لا يشاركهم فيها إلا من أخذ بمذهبهم ، وهى أن الوجود كله مادى فقط . وهذا تصور ناقص للوجود . إذ الوجود الحقيقى له جانبان ، أحدهما مادى والآخر معنوى ، والثانى آكد من الأول فى درجة الوجود ، والشعور به مسألة فطرية لا يمكن إنكارها . وعدم اعتراف هؤلاء به لا يعنى أن كلامهم صحيح ، فعدم علمهم إلا بوجه واحد لهذا الوجود - وهو الوجود المادى - لا يعنى عدم الآخر ، وهو المعنوى ؛ لأن عدم العلم ليس علما بالعدم ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية .

وتحدثنا كتب الفرق أن أحد المنتسبين إلى طائفة السمنية - طائفة هندية كانت تنكر الرسالات ، بل تنكر الإله كذلك لأنه ليس مادة - ناظر أحد المسلمين فى قضية الوجود ، زاعما أنه ليس وراء المحسوسات وجود آخر ، ورتب على هذا أن النظر لا يفيد العلم ، وليس هناك من معارف سوى ما يدركه الحس وحده . وانتهت المناظرة بهزيمة السمنى وانتصار المسلم عليه [1] وهناك فريق من المنكرين يقترب

(١) انظر : الرد على الجهمية ص ٣١٤ ومذهب الذرة عند المسلمين ص ١٢٩ ، وكذلك كتابنا : العقيدة الإسلامية جـ ١ ص ٥٢ .

موقفه من موقف هؤلاء ، وهم الصابئة المشركون ، فقد أنكر هؤلاء النبوة لقولهم بالمتوسط الروحانى ، وأما المتوسط من البشر فهو فى نظرهم لا يصلح ، يقول الشهرستانى فى تصوير رأيهم : « فالصابئة كانت تقول : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ، والجسمانى بشر مثلنا ، يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ، يماثلنا فى المادة والصورة ، قالوا : ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون »[1] ووجه الشبه بين هؤلاء وأولئك أن فريقا منهم - وهم السمنية - أنكر المتوسط الروحانى - الملك ..الخ - وهو لازم للنبوة ، وأما هؤلاء فقد أنكروا المتوسط البشرى وهو عين النبى ، فكأنهم قالوا بمتوسط من نوع خاص ، وهذا الذى ذهبوا هو الذى بين القرآن الكريم ما يترتب عليه من إشكال ، فى قوله : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

٢- الطائفة الثانية :

والطائفة الثانية أنكرت الرسالة صراحة ، وهى طائفة « البراهمة » وأسست إنكارها على كفاية العقل فى إدراك الخير والشر ، من ثم تصبح بعثة الرسل عبثاً لا يليق بالحكيم ، قالوا : لأن ما يجىء به الرسول - على فرض التسليم ببعثته - إما أن يكون موافقاً للعقل ، وإما أن يكون مخالفا له ، فإن كان الأول ، كان مجيئه عبثاً ، لأن العقل كاف فى ذلك ، وإن كان الثانى كان إرساله عبثاً كذلك ، لأنه أتى بما لا يدركه العقل .

٣- الطائفة الثالثة :

الطائفة الثالثة - وهم بعض البرهمية أيضاً - تقرر أن الشرائع مشتملة على أمور لا فائدة منها ، لا للعبد ولا للرب ، فالفروض والواجبات التى تجىء بها الرسالات فيها مشقة على العباد ، ولا يعود على المعبود منفعة منها .

---

(١) الملل والنحل جـ ٢ ص ٧ .

٤- الطائفة الرابعة :

والطائفة الرابعة أنكرت الرسالات بإنكارها للمعجزة التى تقوم عليها ، لأن العقل لا يصدقها ، ولا يصح الاعتماد عليها فى تقرير صحة دعوى الرسالة لجواز أن تكون من قبيل السحر والتخييل .

والحق أن الطائفة الثانية من بين الطوائف الأربع ، هى التى ينبغى أن نبين موقفها بشىء من التفصيل ، لأن القول بشريعة عقلية تحل محل الشريعة الإلهية . قول يتردد فى كل جيل وفى كل قبيل ، وبيان الدوافع والأسباب لظهور مثل هذا القول ، ثم الإتيان على الأساس الذى قام عليه أمر تقتضيه الدراسة .

وقد صور « البغدادى » موقف هؤلاء على الوجه الآتى . فقال : إن « البراهمة » أثبتوا التكاليف من جهة العقول والخواطر ، من ثم أبطلوا كل ما يتوقف الإيمان به على الوحى ، زاعمين أن كل عاقل من العقلاء لا يخلو قلبه من خاطرين ، يأتيه أحدهما من عند الله تعالى ، يلفت نظره إلى مواقع الأدلة التى يستنبط منها « العقل » المدلول ، ومن ذلك معرفة الله تعالى وتوحيده . وثانيهما من قبل الشيطان ، يحرضه على معصية الخاطر الأول . وعللوا ذلك بأن وجود الخاطر الثانى ضرورى ليعتدل بهذين الخاطرين للإنسان دواعيه ، ويكون - حينئذ - مخيرا بين أحد الخاطرين ، ولو كان الأمر بخلاف ذلك لكان الإنسان مضطرا ، فلا يكون مكلفا لأنه لا تكليف مع الإلجاء ، ولا يكون الاختيار إلا حين تكون البدائل .[1]

ولم تقف هذه الطائفة عند تقرير هذه الشبهة - شبهة كفاية العقل عن الرسالة - بل زعمت أن الرسل قد جاءوا بإباحة ما لا يقره العقل من ذبح البهائم وإيلام الحيوانات ، وتحميل العاقلة الدية عن القاتل .. الخ .

ويلاحظ هنا أنهم جعلوا العقل أساس الحكم على الأشياء تحسينا وتقبيحا وبالضرورة حكما عليها ، كما رأينا فى استنكارهم ذبح البهائم .

---

(١) البغدادى : أصول الدين ص ١٥٥ .

هذه شبهتهم ، وهذا موقفهم من قضية النبوة . وسيأتى الرد على هذه الطائفة مع غيرها . ويظهر أن هذه الفرقة كان لها تأثير على أصحاب الاتجاه الاعتزالى وبخاصة المسرفون منهم فى تقدير قيمة العقل كالنظام ومن وافقه (١).

الأسباب والدوافع :

وقبل أن نرد على هذه الطوائف الأربع ، ينبغى أن نلقى نظرة سريعة على ما حدث فى القرن الثانى الهجرى فى محيط الفكر الإسلامى من وجود اتجاه تشكيكى مسرف ، حمل لواءه بعض الأغرار الموتورين ، من أصحاب الديانات القديمة كالبرهمية والمجوسية الذين اعتقدوا أن الإسلام قد عفا على ديانتهم بغير حق ، وانتزع منها سلطان الحضارة والمدنية . فتحركت نفوسهم إلى معارضته والكيد له ، لأسباب ودوافع نفسية ترتبط بعقائدهم القديمة ، التى ظلت فى قلوبهم وذلك بالتشكيك فيه ، بإثارة الآراء والأفكار الشاذة ، فالبرهمية الهندية تثير الشكوك حول النبوة ، على الوجه الذى أشرنا إليه فى إيجاز ، والثنوية الفارسية بكل اتجاهاتها تنفث سمومها لتنال من التوحيد الإسلامى ، وتقول بالأصلين القديمين (٢) ، الذين يحكمان الوجود : إله الخير وإله الشر ، ويرمز لهما بالنور والظلمة ، ولهم فى ذلك كلام طويل ، هو إلى الخيال أقرب منه إلى المنطق والعقل . (٣)

إن التراث الإسلامى قد حفظ لنا ما كان يفعله أمثال : بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء فى مجالسهم الخاصة ، التى كانوا يعقدونها لإستحداث آراء شاذة تنال من الإسلام وأصوله ، واتخذت هذه الآراء أشكالا متعددة وصورا مختلفة ، حتى يمكن أن يكون لها تأثير على العقول والنفوس ، فبشار يتبنى فكرة : تمجيد النار وتقديسها وهى فكرة ثنوية كما نعلم ، ويقول فى ذلك شعرا يظهر منه هذا المعنى ، ويرتب على هذه الفكرة الخبيثة أفضلية إبليس على آدم عليه السلام

---

(١) نفس المصدر .
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٣.
(٣) انظر كتابنا : العقيدة الإسلامية جـ ١ ص ١٠٣ .

، لأنه من الطين وإبليس من النار ، فيقول :

إبليس أفضل من أبيكم آدم　　　فتذكروا يا معشر الفجار

النار عنصره وآدم طينــة　　　والطين لا يسمو سمو النار

إنه بذلك يريد نقض القضية التى بينها القرآن الكريم حين ذكر الحوار الذى دار بين الحق تبارك وتعالى وبين الملائكة لما أمرهم بالسجود لآدم ، ثم حسم القضية بقول الحق تبارك وتعالى : « إنى أعلم ما لا تعلمون » (البقرة : ٣٠) ثم يتبنى تلك الفكرة الخبيثة وهى : أن إبليس كان على صواب حين خرج على الأمر ، شعورا منه بأن عنصره أفضل من عنصر آدم ، كما قال القرآن مصورا تبريره لعصيان الأمر بالسجود : « أأسجد لمن خلقت طينا » (الإسراء : ٦١) وقوله : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » (الأعراف : ١٢) . من أجل هذا وغيره انتظم « بشار » فى سلك الزنادقة . الذين تظاهروا بالإسلام ، ولكنهم كانوا على دين المجوس ، وبخاصة ديانة « مانى » يشاركه فى هذا : الأفشين ، وحماد وابن المقفع ، كما يذكر ذلك عنهم « الجاحظ » .[١]

وتؤلف كتب فى «الشكوك» وتوضع أخرى فى الحديث ، تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقله ، وتبدو حركة الزندقة بكل أنواعها ، على ألسنة بعض الشعراء ومن يدعون العلم زندقة ،كان مظهرها : التهتك والاستهتار مع تبجح فى القول ، يصل إلى ما يمس الدين ، لم يقله صاحبه عن نظر ، بل عن خلاعة وفجور . وأخرى تقوم على النظر ، واتباع فلسفة بعينها مع إظهار الإسلام فى الشكل فقط . واتباع دين المجوس ، وثالثة مظهرها الإلحاد [٢] وبالجملة : يمكن القول بأن العصر العباسى الأول [٣] منذ بداية عصر أبى جعفر قد ظهرت فيه تلك الحركات المتطرفة

---

(١) الحيوان : جـ ٤ ص ١٣٦ . انظر أيضاً : أحمد أمين . ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٥٤ .

(٢) أحمد أمين . ضحى الإسلام : ص ١٥٤ .

(٣) د.حسين عطوان . الزندقة والشعوبية فى العصر العباسى الأول .

لعوامل كثيرة يذكرها المؤرخون ، لعل على رأسها أن ملك بنى العباس قام على أكتاف الموالى ، وكان معظمهم من الفرس ، ذوى الديانات القديمة ، غير أن هؤلاء الخلفاء لم يدخروا وسعا فى الحفاظ على الدين والدفاع عن حماه ، فمنذ أبى جعفر والهادى والمهدى رصد للزنادقة من يقوم على تتبعهم والأخذ على أيديهم ، وفى نفس الوقت شجع الخلفاء العباسيون علماء الكلام - وبخاصة المعتزلة - لمجادلة هؤلاء فأبلوا بلاء حسنا فى ذلك وكان لواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والعلاف والنظام أثرهم الواضح فى جدال هؤلاء وقطعهم . (١)

وكانت النبوة من بين العقائد المستهدفة على الوجه الذى بينا ، ضمن الدين عموما ، وقد كان القرنان الثانى والثالث الهجريان مسرحا لهذه الحركات الشاذة . ولكن الواقع كان أقوى منها بكثير ، فقد تولد عن ذلك كله ، أن ظهر بشكل واضح جداً ، الاتجاه الإيمانى ، الذى يدعو جمهور الأمة إلى التمسك بحقيقة الدين ، والإيمان بالرسالات الإلهية ، وتأكيد عقيدة النبوة ، هذا بجانب الاتجاه العلمى ، الذى تولى - بتوجيه الخلفاء - جدال الخصوم كما ذكرنا . ومن ثم وقف السواد الأعظم من المؤمنين فى وجه هذا التيار الإلحادى الجارف (٢)

١- ابن الراوندى .

خصصنا هذا المفكر بالدراسة من بين أصحاب الاتجاه الإلحادى تجاه الدين عموما والنبوات على وجه أخص ، لما كان له من تأثير فى محيط الفكر الإسلامى ، حيث دعمت آراؤه الإلحادية بنوع من التفلسف الذى قد يظن أنه تفكير منظم ، أى أنه فلسف إلحاده وبعد عن منهج الاتهام الساذج للأديان ، كما كان الحال شأن غيره ،

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ١ ص ١٤١ .

(٢) انظر : ابن خلكان . وفيات الأعيان . لترى ترجمة هؤلاء النفر الذين مثلوا كتيبة الإيمان فى مواجهة هذا التيار ، أمثال : عبد الله بن المبارك . وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة ، وداود الطائى ، والفضيل بن عياض .

لاسيما وأن الرجل يدعى أنه مسلم ، غير أن الكتب تتحدث عنه [1] فتقرر أن أجداده الأعلون كانوا يهودا ، ويغلب على الظن أن غلبة دين آبائه وأجداده كانت وراء إلحاده .

كان معتزليا فى مطالع عمره ، وأغرم كثيرا بمنهج المعتزلة ودقة خواطرهم فى الغوص وراء المعانى ، وتعرضهم لدقيق الكلام ، ولكنه ترك الاعتزال لأسباب لم تعرف على سبيل التحقيق ، وانقلب خصما لهم ، بل ألف كتابه « فضيحة المعتزلة » نسب إليهم أشياء لم يقولوها وفسر أقوالهم بمنهجه الخاص ، فعل الخصم اللدود الذى يحاول أن يلصق بخصمه كل اتهام . فلم يكن من هؤلاء إلا أن دافعوا عن أنفسهم ومنهجهم وانتدب « الخياط » نفسه ليكون مدافعا عنهم ، فى كتابه « الانتصار » كما ألف الجاحظ كتابه المعروف « فضيلة المعتزلة » ليثأر لهم من ذلك الخارج عليهم .

والحقيقة أن كل المصادر تكاد تجمع على إلحاد « ابن الراوندى » ومروقه عن الدين وطعنه عليه ، يستوى فى ذلك من كتب عنه من العرب المسلمين ، ومن تناوله بالدراسة من الغربيين ، ولعل أوفى دراسة ظهرت حتى الآن عن هذا الرجل هى تلك التى قام بها الدكتور عبد الأمير الأعسم وعنوانها : « ابن الريوندى » فى المراجع العربية الحديثة .[2] وقد نقل المحدثون أقوال القدامى عنه ، بحيث لم يزيدوا شيئا فى ذلك وردد الباحثون الغربيون أقوال الشرقيين ، والباحث نفسه قد نقل أقوال السابقين التى نسبوا محتواها إلى ابن الراوندى وينقل عن ابن خلكان أن للرجل أكثر من مائة كتاب [3] لم يبق منها شىء ، اللهم إلا شذرات متفرقة ، معظمها فى كتب خصومه . وهذا كله يجعل الحكم عليه غير دقيق . أما ما يتصل بموضوعنا فيذكر قول صاحب الانتصار عنه : « وقال فى كتاب « الدامغ » : إن الخالق سبحانه وتعالى ليس عنده من الدواء إلا القتل ، فعل العدو الحنق الغضوب ، فما حاجته إلى كتاب

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان جـ ١ ص ٩٤.

(٢) يقع الكتاب فى مجلدين متوسطين ط دار الآفاق الحديثة - بيروت ١٩٧٨ .

(٣) جـ ١ ص ٩٤ ويذكر أن له من الكتب نحوا من أربعة عشر ومائة كتاب .

ورسـول » [1] . ويبدو أن أمر « ابن الراوندى » لم يخف على بعض « اليهود » المخلصين للدين ، فنبه إلى خطورة الرجل ، مشيرا إلى ما كان يفعله آباؤه اليهود فقال : « ليفسدن عليكم هذا كتابكم ، كما أفسد أبوه التوراة علينا » [2] .

والذى يقرأ ما نسب إليه فى كتابه « الزمردة » يرى إنكاره للرسل صراحة ، كما يذكر ذلك « نيبيرج » فى مقدمة كتاب « الانتصار » للخياط وفى كتابه « الفرند » يطعن على رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وكان يكفى الرجل أن يطعن فى النبوات بصفة عامة ، بطعنه فى الأساس الذى تقوم عليه ، وهو المعجزة ، وفى هذا كفاية عن الطعن مرة ثانية فى رسالة النبى الخاتم ، ولكن يظهر أن أحقاده هى التى دفعته إلى معاودة هذه المطاعن تنفيسا عن تلك الأحقاد . وسيأتى ردنا عليه وعلى غيره فى محله من هذه الدراسة .

أما كتابه الذى طعن فيه على النبوات ، فقد كان مجهولا إلى عهد قريب ، حتى اكتشف « پول كراوس » بعض المخطوطات الإسماعيلية فى الهند ، وهى جزء من المجالس المؤيدية » التى تنسب إلى المؤيد فى الدين هبة الله بن أبى عمران الشيرازى داعى الدعاة الإسماعيلى فى عهد الخليفة الفاطمى المنتصر بالله ، وهى عبارة عن ثمانمائة محاضرة ألقيت فى دار العلم بالقاهرة فى القرن الخامس الهجرى ، وقد جمعت كثيراً من القضايا الإسلامية الهامة . وفى المجالس من السابع عشر إلى الثانى والعشرين من المائة الخامسة ، يتناول المؤلف قضية النبوة ، ويورد بعض الآراء المنسوبة إلى ابن الراوندى ، التى أودعها كتابه السالف الذكر فى الطعن على النبوة ويرد عليها وقد قام « پول كراوس » بترجمتها إلى اللغة الألمانية والتعليق عليها ، ونشرها سنة ١٩٣٤ فى مجلة «الرفستا » الإيطالية . [3]

ويظهر من أسلوب « ابن الراوندى » فى عرض آرائه اختفاءه وراء غيره من أصحاب

---

(١) ابن الريوندى جـ١ ص ٩٦ .

(٢) معاهد التنصيص جـ ١ ص ٧٦ نقلا عن د. مدكور . فى الفلسفة الإسلامية ص ٨٤ .

(٣) د . مدكور : فى الفلسفة الإسلامية ص ٨٥ .

الاتجاه المعادى للنبوات ، والبراهمة هنا هم أساتذته ، فهو يردد أفكارهم وآراءهم التى ألمحنا إليها من قبل ، وأساسها الاكتفاء بالعقل على اعتبار أنه مناط التكليف وفى قدرته إدراك الخير من الشر والحسن من القبيح .. الخ ، ثم من جانب آخر : إذا كانت النبوة تقوم على المعجزة على اعتبار أنها دليل صدقها . والمعجزة أمر غير مصدق - عقلا - كما يزعمون ، فإن ما قام عليها يكون مردودا . وسيأتى ردنا على هذه الدعاوى بعد ذلك .

٢- الرازى الطبيب :

شخصية غير عادية ، ملأت القرن الثالث الهجرى صخبا وضجيجا بما ساقه من آراء فى الدين ، كانت وليدة ثقافته الواسعة ، واعتزازه بعقله ، وسيقتصر حديثنا عنه على هذا الجانب فقط . وسنعتمد فى تحليلنا لآرائه على ما كتبه عنه بعض القدامى . أمثال : البيرونى ونصير خسرو وحميد الدين الكرمانى وأبى حاتم الرازى ومن المحدثين أمثال : پول كراوس والدكتور إبراهيم مدكور . لأن كتب الرجل ورسائله فى هذا الجانب لم تصل إلينا ، وإنما هى شذرات متفرقة منسوبة إليه فى كتب هؤلاء الذين ذكرناهم من القدامى . ولقد استطاع المحدثون أن يحكموا عليه من خلال ما تناقلته عنه كتب السابقين .

يذكر « البيرونى » أن « الرازى » كان صاحب منهج فلسفى خاص ، ينزع إلى الاستقلال وترك التقليد ، من ثم لم يقف من فلسفة أرسطو موقف المقدر لها والواثق منها ، كما فعل بعده أصحاب الاتجاه المشائى فى العالم الإسلامى ، أمثال : الفارابى وابن سينا وابن رشد ، ولكنه نظر إليها بعين الناقد البصير . يستوى فى ذلك : نظرياته الطبيعية ، وآراؤه الفلسفية الميتافيزيقية ، وهو فى نفس الوقت يقدر المذاهب الشرقية من المزدكية والمانوية والهندية [(١)] وفى هذا الموقف تجاه الفكر الشرقى الممثل فى المذاهب الدينية الوضعية ما ينبئنا سلفا عن الأفكار التى يمكن أن تفرزها

---

(١) البيرونى : رسالة فى فهرست كتب محمد بن زكريا ، وأبى حاتم الرازى : أعلام النبوة ص ٤٢ ، نقلا عن : د. مدكور فى الفلسفة الإسلامية ص ٤٩ .

فلسفـة « الرازى » تجاه الدين السماوى بصفة عامة ، والإسلام بصفة خاصة . وإذا كانت الفلسفة اليونانية ممثلة فى المعلم الأول ، محل مؤاخذة واستدراك لديه ، فى الوقت الذى رأيناه يعلى من قدر الفكر الشرقى ، كما ألمحنا ، فإن النتيجة الطبيعية لذلك أن يقرر أن هذا الفكر الذى امتزجت فيه عناصر الفلسفة بالدين ، هو الذى ينبغى أن يكون المعيار الذى فى ضوئه ينظر إلى الأديان السماوية ، إنها نزعة غريبة ، ومعيار جديد وخطير . من ثم رأيناه يقرر أن المحاولات التى تبذل فى التوفيق بين عناصر كل من الدين والفلسفة إنما هى محاولات محكوم عليها بالفشل ، وكأن الرجل كان ينظر بعين المستقبل إلى ما فعله الفارابى وابن سينا ، ومن شايعهما من فلاسفة الإسلام فى هذا السبيل ، غير أنه وقف على الطرف المقابل لأولئك الذين رفضوا التوفيق بينهما ، بحجة أنه توفيق بين معصوم - وهو الدين الذى طريقه الوحى - وغير معصوم ، وهو الفلسفة التى هى من عمل العقـل البشـرى الذى يصيـب ويخطـئ ذلـكم لأن « الرازى » يعتقد تمام الاعتقاد بعكس ما يعتقد هؤلاء . حيث يذهب إلى أن السبيل الوحيد لإصلاح الأفراد والجماعات ، إنما هو الفلسفة وحدها ، وأما الأديان فقد كانت مدعاة للتنافس والتناحر والتطاحن ، بين من آمن بها ومن صد عنها ، بل إن تعدد الأديان أدى إلى تعدد الاتجاهات ، وأصبح بينها صراع حاد ، بسبب أثر كل منها فى نفس معتنقيه ، وما يمثله من استقطـاب تجـاه الأديـان الأخرى [1] .

مخاريق الأنبياء أو حيل المتنبئين ونقض الأديان :

هذان الكتابان نسبهما البيرونى وغيره إلى « الرازى » وهما من الكتب التى تحوى بين دفتيها « الكفريات » وقد وجد الزنادقة فى الكتاب الأول من هذين الكتابين ضالتهم التى ينشدونها ، لأنه يوافق معتقداتهم الباطلة ، ولأن منهجه يحمل طابعاً فلسفيا ، وكون هذا الكتاب صادرا عن مسلم - ولو بالاسم - له دلالة أخرى يطمئن إليها كل اتجاه منحرف عن طريق الإسلام الصحيح ، وهو أن هذا الانحراف الذى هو قمة

(١) نفس المصدر ص ٨٩ .

الاعتدال لديهم قد طال شخصية فذة ، لها قدرها فى الأوساط الفكرية والعلمية ، لذا رأينا لهذا الكتاب تقديرا وقبولا لدى القرامطة وغيرهم ممن لهم موقف مضاد من الإسلام ، إما برفضه - كما هو حال الزنادقة - أو بتأويل نصوصه ومبادئه على وجه لا يقره عقل صريح ولا دين صحيح ، كما هو حال القرامطة وجميع الباطنية عموما .

إن الذى يروج من الكتب والأفكار - غالبا - إما أن يكون فى نهاية الاعتدال وتحرى الحق ، وهذا له أنصاره من أرباب الحق ودعاته ، وإما أن يكون فى نهاية الانحراف والصد عن طريق الهدى والرشاد وهذا - أيضا - له أنصاره من دعاة الباطل وحملته . ونحسب أن كتاب « الرازى » كان من هذا النوع ، والذى يطالع المناقشات التى أودعها « أبو حاتم الرازى » فى كتابه « أعلام النبوة » يلاحظ أن الداعية الإسماعيلى لم يذكر « أبا بكر الرازى » إلا بصفة « الملحد » وهو هنا يعتمد على نصوص الرازى نفسه ، التى يبين منها ما يبرر وصفه بهذه الصفة . وقد أورد « پول كراوس» فى كتابه عن الرازى : رسائل فلسفية ، مضاف إليها قطعا من كتبه المفقودة [(١)] بعضا من المناظرات التى تمت بين الرازيين : أبى حاتم (صاحب كتاب أعلام النبوة) وأبى بكر محمد بن زكريا ، وبخاصة ما يتعلق منها بموضوع النبوة . وذكر ما أشرنا إليه من قبل ، من أن الداعية الإسماعيلى ، كان يذكر الرازى بصفته لا باسمه ، وقرر أنه عندما اطلع على نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بواسطة الدكتور حسين الهمدانى ، فى بمباى بالهند وجد أن الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة قد فقدت ، ومن المحتمل أن يكون اسم « الرازى » موجودا بهذه الصفحة المفقودة ، ثم بين أن الداعية الإسماعيلى المعروف « حميد الدين الكرمانى » قد أكد فى كتابه « الأقوال الذهبية » أن المراد بالملحد لدى أبى حاتم ، إنما هو « الرازى » .[(٢)]

---

(١) نشر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٣٩ . وأعيد تصويره دون ذكر محققه ببيروت ١٩٧٧ دار الآفاق الجديدة وقد قام الدكتور عبد الرحمن بدوى بدراسة تحليلية للمناظرات بين الرازيين ، اعتمادا على ما ذكره پول كراوس فى هذا الكتاب وما ذكره « الكرمانى » فى مقدمة كتابه « الأقوال الذهبية » فى كتابه : من تاريخ الإلحاد فى الإسلام .

(٢) پول كراوس : رسائل فلسفية ص ٢٩١ .

ونحن هنا نشير إلى تلك الواقعة فقط ، لبيان أن حركة الإلحاد التى دعمت بواسطة هذين الرجلين : « ابن الراوندى » و « الرازى » وبخاصة ما يتعلق منها بقضية النبوة . قد ولدت تيارا آخر . أخذ على عاتقه تفنيذ مزاعم هذا الاتجاه ، وهذا ما سنبينه بعد قليل فى ردنا على ممثلى المعارضة لقضية النبوة ، مستعينين فى ذلك ببعض الردود التى وردت فى كتاب أعلام النبوة ، والأقوال الذهبية ولعل مما يثير التعجب ويلفت الانتباه ، أن يتصدى للرد على الرازى داعية إسماعيلى معاصر له ، والاتجاه الإسماعيلى نفسه معروف الأهداف والمقاصد وهذه النقطة ، لا يمكن أن يمر عليها الدارس بهذه السهولة ، إذ هى فى حاجة إلى دراسة خاصة ، تكشف عن الدوافع والأسباب التى حملت هؤلاء على هذا الموقف . (١)

الرد على منكرى النبوة :

لا يمكن للكاتب مهما حاول أن يكون محايدا أن يظل كذلك ، من ثم لم أستطع وأنا أصور آراء هذه الطوائف التى أنكرت النبوة ، أن أكبح جماح القلم ، لأكون عارضا فقط حتى يأتى دور الرد ، الذى نحن بصدده الآن فليعذرنى القارئ إن وجد هنا أفكارا فى الرد ، سبق أن ذكرتها حين العرض .

١- الرد على الطائفة الأولى :

وهى التى أنكرت النبوة بإنكار لوازمها الخ ، وهؤلاء بنوا إنكارهم على نظرتهم إلى الوجود ، فهم لا يقرون منه إلا أحد نوعيه ، وهو الوجود المادى ، ومن ثم لا يعترفون إلا بنوع من المعارف ، وهو : المعارف الحسية . والمناقشة مع هؤلاء غير مجدية ، حتى يصححوا موقفهم من الوجود ومن المعرفة ، من ثم رأينا علماء الكلام يعتبرون كلام هؤلاء لا وزن له ، لأنه تعبير عن وجهة نظر معينة لا تقوم على أساس

(١) من المحتمل جداً أن يكون موقف دعاة الإسماعيلية ممثلا فى علميها : أبى حاتم الرازى وحميد الدين الكرمانى تغطية لموقفهم تجاه الرأى العام الإسلامى من قضية الدين عموماً ومنهجهم فى النظر إلى قضاياه ، وبخاصة موقف الكرمانى ، الذى تجمع كل الدوائر الدينية على أنه فيلسوف ملحد .

صحيح [1] إذ الوجود - والمعرفة تابعة له - لدى جميع العقلاء من جميع الطوائف والملل نوعان : مادى ومعنوى . والمعرفة - إذن - حسية وعقلية . وإنكار الوجود المعنوى بغير دليل ، تحكم لا يقبل فى مقام البحث العلمى ، من ثم نرى أن اللوازم التى أنكرها هؤلاء والتى لا تتم النبوة بدونها ، من نزول الملك وامتناع خرق السماء ..الخ ، لم يقل بإنكارها سواهم ، وهى أمور ممكنة فى ذاتها ، والعلم التجريبى جاء ليؤكد صحة بعض ما أنكروه كالصعود إلى الفضاء . بعد التقدم الهائل فى مجال الأبحاث الفضائية والعلم عموماً يكشف كل يوم عن الجديد الذى كان يعد بالأمس من قبيل المستحيلات .

إن الوحى فى ذاته أمر ممكن ، كما سبق أن أشرنا ، وهو يتوقف على أمرين كلاهما ممكن كذلك ، وهما : استعداد نفس النبى لتلقى الوحى ، ووجود ملائكة تبلغ عن الله تعالى ما يوحى به إلى رسله وأنبيائه . وينبنى القول باستعداد نفس النبى لهذه المهمة على أساس التفاوت فى العقول والنفوس ، من حيث القوة العقلية والصفاء النفسى وليس ذلك التفاوت مقصورا على التعليم والتلقى ، بل فى أصل الفطرة ، التى لا يكون للإنسان مدخل فيها ، باختياره وكسبه ، وبعض البشر قد خصوا بنقاء الفطرة وسلامة القوى العقلية بحيث يبدهون من الأمور ما يكون نظريا فى حق غيرهم ، ومن هنا لا نستغرب - عقلا - أن توجد نفوس لها من صفاء الجوهر ما يؤهلها للاتصال بالأفق الأعلى ، بسبب ما يمنحها الله من الفيض الإلهى ، الذى تكون به كذلك . كما صرح بذلك الشيخ محمد عبده . [2]

وليس لهؤلاء ألايسلموا بصحة ما قدمناه من تفاوت البشر فى الاستعداد ، وإذا كان الأمر هكذا فليس أمامهم إلا النتيجة الحاسمة التى لا يستطيعون ردها وهى إمكان اتصال تلك النفوس بالملأ الأعلى . وليس من حقهم كذلك أن يلزمونا بظاهر دعواهم ،حين يتشبثون بها عارية عن دليلها ، زاعمين أن قولهم حق فى ذاته ، إذ لو

(١) التفتازانى : المقاصد جـ٢ ص ١٧٤ .

(٢) رسالة التوحيد : ص ٨٥ .

كان كذلك لما نازعهم فيه غيرهم ، وهم طوائف أكثرمن أن يحصرها عد ، ثم إنهم فى هذه الحالة قد غفلوا عن قضية هامة لا يقرها المنطق ، وهى أخذ الدعوى فى الدليل أى : وضعها محله ، فهذا يسمى بالمصادرة على المطلوب ، لأن الدعوى لا تتم إلا بالدليل ، فكونها هو ، لا يقبل عقلا .

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال فى هذا المقام هو : إذا كانت هذه الطائفة قد عارضت النبوة قديما ، فما قيمة الرد عليها الآن ، وقد انقرض أفرادها ؟ والجواب عن هذا السؤال من الأهمية بمكان ، ذلكم لأن معارضى الدين عموما والنبوة بصفة خاصة وإنكار لوازم النبوة على وجه أخص ، أمر يمكن وجوده فى كل جيل ، ومما يتصل بموضوعنا هذا يمكن أن يقال : إن لوازم النبوة ، وهى إمكان الوحى ووجود الملك الذى يحمله عن الله ، مسألة لا يزال فريق من أدعياء العلم فى يوم الناس هذا ينكرونها ، تحت دعوى رفض « الغيبيات » التى تشكل جزءا هاما من الدين ، بل هى أساسه ، وكم عانينا من أناس بلهاء يطلبون منا أن نفسر لهم الدين تفسيراً علميا ، وهذا المصطلح - علمى - فى نظرهم لا يعدو أن يكون عالم المشاهدة ، وإذن فكل ما لا يدركه الحس فى نظرهم فإنما هو من قبيل الغيب المرفوض . ولازلنا نقرأ مشاريع « نهضوية » [1] يرى أصحابها أنها النهج الذى يمكن أن ينقذ أمتنا من واقعها المرير ، فإذا دققت النظر فى تلك المشاريع وجدتها تلتقى فى أهدافها ومنطلقاتها مع فكر هؤلاء القدماء . رفض الوحى وإحلال العقل محله ، لأنه غيب لا وجود له فى معيار « العلم » فى زعمهم . ولا شك فى أن هذا النهج يجعل من الإنسان إلها حيث يحله محل « الإله » لأن عقله حل محل الوحى . وفى ضوء هذا التصور الخاطئ ، نسمع من يدعى أن صحوة العقل بالتقدم

(١) يمكن الرجوع إلى الدراسة التى قدمها الدكتور حسن حنفى تحت عنوان : من العقيدة إلى الثورة وتقع هذه الدراسة فى عدة مجلدات ، وهى تمثل أحد الاتجاهات المطروحة الآن فى الساحة الفكرية ويكاد ينتهى صاحبها إلى القول بأن التراث القديم - والدين جزء منه - إنما ينبغى أن ينظر إليه نظرة تاريخية فحسب ، والواقع يفرض علينا أن يكون العقل ، هو الذى يملك زمام الحكم حسنا وقبحا ، صوابا وخطأ الخ ومن هنا ندرك قيمة الرد على أولئك القدماء ، لأن نفس النغمة قد أعيد صياغتها بطريقة معاصرة ، لا تختلف فى محتواها عن مضمون ما قاله القدماء .

العلمى والمعرفى ، قد تجاوزت مفهوم القدماء التراثيين عن الدين عموما وعن الوحى بصفة خاصة .

والمحصلة من هذا كله أن تيار الإعراض عن الحق ، بل التصدى له ، ليس أمرا مرحليا ، يظهر فى حقبة تاريخية ثم يختفى ، وإنما يشكل موجات مستمرة قد تختلف قوة وضعفا باختلاف الأحوال والملابسات التى تساعد على ذلك .

وأما « الصابئة » التى أنكرت نبوة « البشر » وقالت بالنبوة « الملكية فموقفهم غير صحيح » لأن العقل يقرر أن الرسالة كى تؤدى وظيفتها على وجه صحيح ، فإن المرسل ينبغى أن يكون من نوع المرسل إليهم . وقد سبق أن قررنا أن « الرسول » من البشر يصنعه الله على عينه ، ويؤهله لتحمل التلقى عن الله ، فهو بهذا المعنى له جهتان : جهة للتلقى ، وفى تقديرنا أن هذه الجهة هى التى يختار الحق تبارك وتعالى رسوله بمقتضاها لا بمؤهلات من عنده ، ولكن بتأهيل الحق له ، وأما الجهة الثانية فهى التبليغ لمن يرسل إليهم ، والرسول هنا مأمور بذلك ، كما جاء فى قوله تعالى : « ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك .... » (المائدة : ٦٧) . وقد أشرنا من قبل إلى قضية هامة ، أشار إليها القرآن الكريم تتصل بما نحن بصدده ، وهى وحدة النوع بين المرسل والمرسل إليهم . كما أشرنا إلى اللبس الذى يحدث من بعث الرسول ملكا ، كما جاء فى قوله تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » (الأنعام : ٩) .

والعجيب فى موقف الصابئة أنهم يعترفون بنبوة بعض البشر : عازيمون وهرمس - وهما شيث وإدريس كما ذكر ذلك عنهم « الشهرستانى » وليس لهم أن يقولوا إنهما كانا حكيمين عاليين لا نبيين مرسلين إذ لو كان الأمر كذلك لما وجب اتباعهما والمحافظة على حدودهما وأحكامهما وانتهاج مناهجهما فى الدعوات والصلوات والصيام والزكوات . [1] ومن ثم يظهر أن معارضتهم للنبوة من البشر قد انخرمت بإقرارهم هذا ثم اقتفائهم أثر هذين النبيين البشريين على حد قول « الشهرستانى » .

وحسبنا هذا القدر لنرد على الطائفة الثانية :

---

(١) الشهرستانى : نهاية الأقدام . ص ٤٢٨ .

٢- الرد على الطائفة الثانية من طوائف المنكرين :

وقد بنى هؤلاء إنكارهم للنبوة على كفاية العقل فى إدراك الحسن والقبح والخير والشر كما أسلفنا . والزعم بأن العقل كذلك زعم باطل ، لأنه أداة للفهم والإدراك ، وهو أداة قاصرة عن إدراك حقائق الأشياء على الوجه الصحيح فى كثير من الأحيان . ولعل أكبر ما يوضح ذلك ولا يمكن إنكاره ، تفاوت العقول فى إدراك حقيقـة الشىء الواحد ، بل يتفاوت عقل الإنسان الفرد من حالة إلى أخرى فى فهم شىء بعينه . وإذا كان الأمر هكذا فأى عقل ذلك الذى يمكن أن يتخذ حكما على الأشياء ؟ أهو عقل الفلاسفة ، ولكل منهم تصوره الخاص فى كل الأمور العقلية ، وإذا وجدنا بين بعضهم اتفاقا ، فلن يكون من جميع الوجوه ؟ أم هو عقل المتدينين العقليين ، أمثال المعتزلة من مفكرى الإسلام والخلاف بينهم شديد وفرقهم شتى ؟ أم عقل غير هؤلاء وأولئك ، وهم أكثر بعدا عن أن تتفق عقولهم على شىء واحد ؟ إن اختلاف المذاهب الفقهية فى تراثنا الإسلامى يعود إلى سبب واحد ظاهر فوق السبب الذى نجده لدى الكاتبين وهو التفاوت فى ثبوت النص الدينى - والحديث هنا مقصود أولا - الذى يكون أساسا لاستنباط الحكم الشرعى منه . هذا السبب هو التفاوت فى فهم النصوص ، فضلا عن النص الواحد . وهذا كله يؤكد أن العقول ليست سواء حتى يمكن أن تستقل بإدراك حقائق الأشياء والحكم عليها .

ولعل هذا الذى ذكرناه هو المدخل الطبيعى للحكم على العقل ومداركه من حيث كونه غير معصوم ، من ثم رأينا بعض الباحثين من علمائنا الكبار ، ينظرون إليه تلك النظرة التى تنزع منه الثقة فى أن تكون مداركه فوق الخطأ ، ونخص بالذكر هنا : حجة الإسلام الغزالى ، صحيح أن الرجل ساق المسألة بطريقة يبين منها الصنعة فى الحكم على العقل . ولكن الحقيقة تقره على ما انتهى إليه فى هذا السبيل . لقد شكك فى الإدراك الحسى ، وله الحق الكامل فى ذلك ، من حيث عدم الوثاقة فيه . ثم انتقل إلى التشكيك كذلك فى قدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة إلا بنوع من العون الإلهى الذى يأتيه عن طريق الوحى ، يقول فى ذلك : « قالت الحواس : بم تأمن أن تكون

ثقتك بالعقليات ، كثقتك بالمحسات ، وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ... » [1] وقد تأيد هذا التشكيك لديه بما يراه فى المنام على أنه حقيقة فإذا به فى حال اليقظة وهم وسراب ، وانتهى أبو حامد من هذه القضية إلى أن العقل لا يمكن أن يستقل وحده بإدراك الحقيقة ، ووصوله إلى هذه النتيجة جاء بعد أن انتابته حالة من الداء العضال الذى دام شهرين ، لأن علاجها لم يتيسر ولم يمكن دفعه إلا بدليل يؤكد الثقة مرة ثانية بالعقل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا كان الشك قد طالها ، فإن الثقة فيها تكون منزوعة ، بحيث لا يصح أن تكون مأخذ دليل يوثق فى نتيجته .

إن المنقذ له من هذه الحيرة هو الإيمان الكامل بأن الضمان الوحيد للثقة بالعقليات بحيث لا يتطرق إليها نوع من الشك ، هو النور الإلهى الذى يقذفه الله تبارك وتعالى فى القلب ، يقول فى ذلك : « حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقا بها على أمن ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرح ومعناه . فى قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » قال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » . [2]

وهذا الذى انتهى إليه حجة الإسلام ، قد قال بما يقرب منه غيره من الباحثين فى الفلسفة الحديثة ، وأعنى هنا « ديكارت » الذى عالج قضية الشك المنهجى بما يقرب كثيرا من علاج الغزالى لها ، ويعتمد على اليقين الدينى فى توثيق اليقين العقلى ، يقول فى ذلك : « على أن اطمئنانى إلى الوضوح لا يزال مفتقرا إلى التثبت ، فقد يكون خالقى قد صنعنى بحيث أخطئ فى كل ما يبدو لى بينا ، أو قد يكون سمح

---

(١) المنقذ من الضلال : ص ٨٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٨٥ .

للروح الخبيث (الشيطان الماكر) أن يخدعنى على الدوام . الحق أنه بدون معرفة وجوده وصدقه ، فلست أرى أن باستطاعتى التحقق من شىء ألبتة ، أعود إذن إلى فكرة الله ، فأجد أنها فكرة موجود كامل ، والكامل صادق لا يخدع ، إذ أن الخداع نقص لا يتفق مع الكمال ، وعلى ذلك فأنا واثق من أن الله صنع عقلى قادرا على إدراك الحق ، وما على إلا أن أتبين الأفكار الواضحة ، وصدق الله ضامن لوضوحها » .(١)

من ثم يتبين أن العقل فى ذاته لا يمكن أن يعمل مستقلا عن ضمانات الوحى حتى يتمكن من الوصول إلى اليقين ، بل إنه فى هذه الحالة لا يضمن اليقين الدائم ، وهذه حقيقة يقرها العقل الصريح ، إذ لو كان غير ذلك بأن كانت النتائج التى يصل إليها دائما صحيحة ، لما استدرك اللاحق على السابق شيئا ، ولحل العقل محل الوحى فى كل شىء ، وليس من قبيل الكلام الساذج ما نراه فى تراثنا الإسلامى ، لدى كبار مؤلفينا من تصدير كتبهم باللجوء إلى عون الحق تبارك وتعالى أن يرشدهم إلى طريق الصواب فيما هم بصدده ، وليس من قبيل العفو ما نقرأه فى ختام مباحثهم من تعليق العلم النهائى إلى دائرة العلم الإلهى ، فيقولون : « والله أعلم » إن هذه كلها دلالات لها قيمتها فى نظرة هؤلاء إلى العقل . مع العلم بأن رغبتهم فى طلب العلم اليقينى وما يقتضيه هذا الطلب من استعداد نفسى وروحى ، ما يتضاءل بجانبه إلى حد كبير ما نحن عليه فى يوم الناس هذا ، فضلا عن حياة هؤلاء الزاعمين باستقلال العقل وقدرته على صياغة الحياة ، تلك التى لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى ، و ليس فى مقدورنا أن نقول أكثر من هذا . إن هؤلاء ليس عندهم استعداد لأن تكون الحقيقة الدينية إطارا للحقيقة العقلية ، وضمانا لسير العقل إلى غايته . وهم موجودون فى كل جيل كما أشرنا سلفا ، ومن الباحثين المعاصرين الذين لهم موقف واضح من العقل تجاه البحث فى الميتافيزيقا ، أستاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود حيث يذهب إلى أن البحث العقلى فيما وراء الطبيعة عبث ، وأسس حكمه هذا

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٦٧ ، وأيضا د. محمود زقزوق : دراسات فى الفلسفة الحديثة . ص ٩١ . والباحثان قد اعتمدا على نصوص ديكارت التى ذكرها فى كتابيه : التأملات فى الفلسفة الأولى . ومقال عن المنهج .

على ضرورية النبوة من الوجهة العقلية ، على الصورة التى وضحناها سابقا. وإمكانها فى ذاتها ، وصحتها من الناحية الواقعية ، بناء على أنها تأيدت بالمعجزة ، التى تنزل منها منزلة الدليل من الدعوى . ومتى كان الأمر هكذا ، فإن كل ما يأتى به الخبر الصادق - قرآنا كان أو سنة - عندنا نحن المسلمين ، وبخاصة ما يتعلق منه بعالم الغيب ، وهو أوسع المجالات الدينية ، ينبغى التسليم به ، ولا مجال للعقل كى يزج بنفسه فى دائرته ، لأنه فوق طاقته . ومن ثم فإن المباحث الميتافيريقية التى جاء النص الدينى بالحديث عنها ، ما كان ينبغى أن توجد ، وأن ظاهر الشرع هو المعتبر فى ذلك . وهذه الأفكار قد قال بها فى أكثر من موضوع من كتبه ، وبخاصة فى كتابه : الإسلام والعقل وفى تعليقه على كتاب المنقذ من الضلال لأبى حامد الغزالى .[1]

والحق أن ما ذهب إليه هو عين الحقيقة ، ذلكم لأن العقل عندما فرض نفسه على المباحث الميتافيزيقية ، لم يعطنا حلا مقبولا لها ، بل كان عمله فيها أشبه ما يكون بتصورات خاصة بكل باحث على حده ، ولم تكن النتائج التى توصل إليها الباحثون مؤسسة على مقدمات عقلية ضرورية ، وحسب القارئ أن يرجع إلى قضية واحدة ، أعاد بحثها الفلاسفة الإسلاميون ، اتباعا منهم لما كان عليه أسلافهم - وبخاصة الأفلاطونية المحدثة - وهى قضية : الصدور أو الفيض .[2] مع استصحاب ما وجه إليها من اعتراضات ، ليعلم أن العقل فيها - وفى غيرها مما يشابهها - لم يصل إلى معطيات مسلمة ، فضلا عن أن تكون صحيحة فى ذاتها . وحسبنا أن يكون ما قدمناه ، تقريرا للدائرة التى ينبغى أن يسعى من خلالها . والتى تكون فى مقدوره وطاقته .

التسليم الجدلى بكفاية العقل :

ولو أننا سلمنا جدلا بكفاية العقل فى إدراك الحق ومعرفة الصحيح من غيره فى الاعتقادات ، والخير من الشر فى السلوك والمعاملات ، فلم لا نسلم بأن الوحى

---

(١) ص ٢٨٧ .

(٢) انظر كتابنا : فى الفلسفة الإسلامية ص ٩٥ .

يتعادض معه فى ذلك ويقويه ، إن قيل بغير ذلك ، كان هذا القول تحكما لا يقبل ، وإن سلم فقد ثبت المطلوب .

وقد اتبع الكاتبون فى العقائد هذه الطريقة مع الخصم فقالوا : « فيقال لهم - أى لمنكرى النبوة بناء على الاكتفاء بالعقل - : ولم لا يجوز أن يكون ما جاء به الرسول مما يستدرك بالعقل ، ويكون بعث الرسل تأكيدا له ، ومثله غير ممتنع ، كما لا يستحيل قيام أدلة عقلية على مدلول واحد . وإن كان فى الواحد كفاية ، ويكون باقى الأدلة مؤكدا » .[1]

وليست هذه الصورة هى التى يمكن أن تكون وحدها فى القضية التى معنا ، إذ هناك احتمال آخر . وهو أن يكون ما يجىء به الرسول مما يوافق العقل ، ويدرك به ولكن يغفل العقل عن إدراكه ، فيكون مجيئه تنبيها له ، حتى يدركه [2] ، ولا يمكن دفع هذا الوجه ، لأن الغفلة من طبيعة العقل عندما تحجبه الموانع والشواغل ، لهذا المعنى أشار القرآن الكريم إلى طائفة من البشر ، كانت الغفلة حالهم ، فلم يلفت انتباههم الآيات الباهرات ، التى أودعها الحق تبارك وتعالى فى الأنفس والآفاق لتكون دالة على عظمته وجلاله ، قال تعالى : « وما أكثرالناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ، وكأى من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (يوسف : ١٠٣ - ١٠٥).

وفى هذا الذى سبق من الرد ، كفاية ، وهو متجه إلى كل من يدعى قدرة العقل على صياغة حياة البشر ، يستوى فى ذلك أصحاب الفكرة الأصليين من البراهمة ، ومن شايعهم فى ذلك قديما وحديثا . وقد مر بنا أن لكل من « ابن الراوندى » و « الرازى » ما يشبه قول هؤلاء من بعض الوجوه .

٣- الرد على الطائفة الثالثة :

وهى التى قام إنكارها للنبوة على أساس أن الشرائع تشتمل على تشريعات لا

(١) أبو سعيد النيسابورى : الغنية فى أصول الدين . ص ١٤٨ .

(٢) نفس المصدر .

فائدة منها لا للعبد ولا للرب الخ . وهذا الموقف منهم مبنى على سوء الفهم والتقدير للمقاصد الشرعية ، ولا يمكن أن يقوم هذا الفهم السيء فى وجه التشريع الإلهى الذى يشكل الضمان الحقيقى لسير الحياة الإنسانية على أسس صحيحة . ثم يقال لهؤلاء : بأى معيار حكمتم على الشرائع الإلهية بذلك ؟ إن قيل : بمعيار العقل ، فقد بان لنا من قبل عدم قدرته على إدراك حقائق الأشياء إلا بمعين من الوحى ، وإذا تبين أن الأمرهكذا فماذا يبقى من معيار حتى يكون مقياسا فى ضوئه يحكم على التشريعات الإلهية التى يأتى بها الأنبياء ؟ ولو سلمنا جدلا بأن بعض التكاليف تشتمل على المضار ، كالصلاة فى البرد والصوم فى الحر - مثلا - فهل عرف هؤلاء ماذا يمكن أن يكون وراء تلك المشقة الظاهرة من المنافع الدنيوية والأخروية ؟ ويحق لنا أن نقول بوضوح : نحن هنا لسنا فى موقف الدفاع عن التكاليف الإلهية ، التى تجىء بها الرسالات الإلهية ، فى مواجهة قوم ينكرون ذلك ، ولكنا نقول : إن المعانى السامية والقيم العليا ، والنتائج الحاسمة ، التى تحملها تلك الرسالات فى تكاليفها وتشريعاتها لا يشعر بها تذوقا واستشعارا بعظمتها إلا من آمن بها وعاشها تجربة فى الواقع . ومن ثم يصبح إنكار هذا كله من موقع بعيد عن طبيعة تلك التكاليف ، أمرا غير مقبول عقلا .

كما أن ما تذرع به بعض المنكرين ، من أن الشرائع الإلهية تبيح ذبح البهائم وإيلامها الخ ، ليس قائما على أساس صحيح . فهذه عملية لها ضوابطها فى كل تشريع إلهى . وهم غير عارفين لتلك الضوابط ، فكيف يجعلون جهلهم بها دليلا على رفضها ؟ . وبالجملة فإن الجهل بالشيء لا يمكن أن يكون دليلا على عدم صحته فى معيار العقل الصحيح ، وإذن فلا يمكن أن يقبل حكم على شىء ما لم يكن قائما على تصور صحيح لذلك الشيء ... وأما العداوة القائمة على الجهل فأمر يحمل فى ذاته تهافت ذلك الموقف ، وقد صح ما قيل : من جهل شيئا عاداه .

ثم إن الشرائع السماوية لا تكلف إلا بما يطاق ، وجاءت لتضع عن البشر الإصر وأوامرها ونواهيها وتحليلها لأشياء وتحريمها لأخرى تقوم على أساس صحيح ، فلا تأمر إلا بالمعروف ولا تنهى إلا عن المنكر ، وتحل الطيب وتحرم الخبيث . وتضع للإنسان

ضوابط العلاقات بينه وبين غيره من الكائنات . كما بينت له وضعه بين تلك الكائنات بما يظهر معه أن كل عناصر الكون المخلوق ، إنما جاءت مسخرة له لاعتبار مكانته التى خلقه الله عليها وهى : تمثيله لقضية الخلافة عن الله فى الأرض . فهل يمكن بعد هذا كله أن يحتج على نظام إلهى كامل ، بفكر بشرى ناقص . ؟

٤- الرد على الطائفة الرابعة :

وهذه الطائفة تطعن فى الرسالة الإلهية على أساس من الطعن فيما تقوم عليه وهو « المعجزة » وقد مر بنا أن من أبرز القائلين بذلك ، كل من « ابن الراوندى » و « الرازى » بدعوى أن العقل يرفضها ، وأن الفواصل بينها وبين غيرها ، من الخوارق الأخرى غير دقيقة . والواقع أن كل من عارض الرسالات الإلهية بهذه الشبهة ، موقفه غير صحيح ، ذلكم لأن المعجزة أمر إلهى خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة تأييدا له فى دعوى الرسالة ، وهى منها بمنزلة الدليل من الدعوى ، كما أشرنا ، وبعض معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يكون مقرونا بالتحدى وطلب المعارضة ، وبعضها يكون علامة واضحة على صدق الدعوى ، وإن لم يكن تحديا للقوم ، والفرق بينهما وبين الخوارق الأخرى واضح كل الوضوح كما سنبينه فى مكانه من هذه الدراسة ، عند حديثنا عن المعجزة .

وحسبنا أن نورد هنا بعضاً من الردود التى عارض بها « أبو حاتم الرازى » سميه « أبا بكر الرازى » حتى يتبين لنا مدى تهافت موقف هؤلاء عموما . فإذا كان الذى بنى عليه هؤلاء معارضهم واحدا فإن الرد على أحدهم ينسحب على موقفهم جميعا فى كل عصر .

لقد نبتت نابتة فى يوم الناس هذا ، تتعالم بإنكار المعجزات الحسية لرسولنا عليه الصلاة والسلام ، مع أن الأصل فيها الأخبار الصحيحة ، وليس معهم من دليل سوى الإنكار نفسه ، وهذا هو الجهل بعينه ، حتى لو قال أصحابه بخلاف ذلك . إنه إفلاس روحى وعلمى فى نفس الوقت .

فحوى المناظرة بين الرازيين والأساس الذى بنى عليه الرازى الطبيب إنكاره للنبوة :

سنورد هنا جزءا من المناظرة التى وقعت بين « الرازيين » لنكشف عن طبيعة المواجهة بين الحق والباطل ، ونبين أن المعارضة للنبوة لا تقوم على أساس صحيح .

يقرر « الرازى » الطبيب أن اختصاص بعض البشر ليتحملوا عبء الرسالة ، أمر لا تقتضيه الحكمة الإلهية ، لأنه لا معنى له ، والأولى بالحكيم أن يلهم الناس جميعا ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم . ولا يفضل بعضهم على بعض حتى لا يكون ذلك بابا للأحقاد والعداوات .

أما « الرازى » أبو حاتم فقد بين فى الرد على هذا الكلام أن تقرير حكمة الحكيم ليس راجعا إلى تصوراتنا البشرية ، بل إلى الحكيم ذاته ، وهب أن الحكيم فعل ذلك . بحيث لا يحتاج الناس بعضهم إلى بعض ، فهل هذا موافق لطبيعة الإنسانية المدنية ؟ إن هذا التصور غير مطابق للحقيقة والواقع ، ذلكم لأن الإنسان فطر على أن يحيا مع بنى نوعه ، حياة اجتماعية ، تقوم على تبادل المنافع ، وهى قائمة على الحاجة . وإذن فكل دعوى تتجاوز ذلك تكون غير صحيحة ، وكيف لا تكون كذلك والواقع يرينا أن الناس موزعون بين إمام ومأموم وعالم ومتعلم فى جميع الملل والأديان والمقالات ، من أهل الشرائع وأصحاب الفلسفة ، ولا نرى الناس يستغنى بعضهم عن بعض ، غير مستغنين بإلهامهم عن الأئمة والعلماء ؟

إن الناس غير متساوين فى العقل والفطنة والهمة . ومن قال بخلاف ذلك فإنه يدفع العيان والواقع . وهذا عناد ومكابرة ويرفع الخصوصية (الهوية) الذاتية لكل فرد وإذا ثبت أن الوضع الصحيح للإنسان الذى يقره واقعه الملائم لفطرته ، هو التفاوت بين المواهب والاستعدادات فإن العلاقات بين البشر إنما تقوم على حاجة الأدنى للأعلى ، وهكذا . بخلاف الحيوان الذى لا تتفاضل أفراده ، لأن مطالبه محصورة فى الجانب المادى فقط ، وهو يشبعها بضرب من الطبع والغريزة ، ولا دخل للعقل والإرادة فيها ، لأنه فاقد لهما . [1] والذى ينظم العلاقات بين أفراد الإنسان على وجه صحيح ، قانون

---

(١) رسائل فلسفية ص ٢٦٨ .

يقوم على تنفيذه من يختاره الله بحكمته لتبليغه إلى من أرسل إليهم .

ونلتقط الخيط هنا من المدافع عن النبوة لنقول للمعارض : إن لازم كلامك أن الحكيم قد فاته الوجه الأكمل لحكمته فأرسل للناس رسلا ، وهذا نقص لا يليق به ، ثم من جانب آخر : ألم يجعل الحق سبحانه وتعالى لكل منا عقلا وإرادة كما سبق ، وهذا أشبه ما يكون بالوحى الخاص ، فلماذا لم يهتد الناس بعقولهم إلى ما ينفعهم ؟ ثم ماذا يضير القضية كلها لو كان بجانب الوحى الخاص وحى عام ينبه العقل حين يغفل والإرادة حين تغيب ؟ . وفى نهاية هذا الكلام يمكن أن يقال : هب أن الحكيم فعل مثل ما تريد : أكنت تسلم بفعله هذا أم كنت تعترض كما تعترض على الوجه الذى عليه الوضع مع وجود الرسالات ؟

إن الواقع فعله ، والصورة المفترضة فعله كذلك فمن يدرينا أنك لن تعترض لو كان الوضع على مثل ما تعترض به ؟ ثم أخيرا : كيف يحتفظ أصحاب الموقف المعارض بقولهم بحكمة الحكيم مع تصورهم لحالة لم يفعلها كما ذكرنا ؟ وكيف يمكن أن نكون نحن المخلوقين معيارا لإرادة خالقنا ؟ إن عدم الرضا بحكمة الحكيم منهج قوم ينصبون من أنفسهم آلهة أخرى ، قد تسول لهم أحلامهم المريضة ونفوسهم الملتوية أنهم على الحق ، وأن سواهم ليسوا كذلك . ألم يقل القرآن الكريم : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ... » ثم عقب على ذلك بقوله : « قل إن هدى الله هو الهدى ... » (البقرة : ١٢٠) وقوله : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ... » (البقرة : ١٤٥) إن أهواء هذا النفر من المعترضين على منهج الحق تبارك ، هى المعيار- فى نظرهم - للحقيقة ، وهذا خبال كبير ، من ثم صرح القرآن الكريم لرسوله صلى الله عليه وسلم ولنا جميعا من بعده بأن هذه الطريقة تنزع عن المسلم الشخصية السوية ، وتجعله ظالما لنفسه : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين » (البقرة : ١٤٥) .

إن المظهر الحقيقى للإيمان الصحيح ، هو التسليم المطلق لما يوحى به النص الصحيح والمراوغة والجدال فى غير محله ، دليل زيغ القلوب ومرض النفوس ، حتى حين يتشبث باتباع المتشابه ، فما بالكم إذا كان هذا الحال مع النصوص المحكمة ؟ كما يقول الحق تبارك وتعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » (آل عمران : ٧) فما حقيقة إيمان هؤلاء الذين يجادلون فى المحكم من أمهات الكتاب ، والآيات التى تحدثت عن الرسل والرسالات وعن الحكمة الإلهية فى ذلك كثيرة ؟

الفصل الثانى

النبوة والرسالة والوحى

١- النبى والرسول :

جاء فى القرآن الكريم وفى السنة الصحيحة لفظ كل من النبى والرسول ، إما على سبيل الإفراد ، وإما على سبيل الجمع . ولكل من اللفظين معنى فى اللغة وآخر فى اصطلاح علماء العقيدة فما هما ؟

أولا : المفهوم اللغوى :

(أ) النبى :

لهذا اللفظ عدة اشتقاقات ، فإما أن يكون مشتقا من النبأ ، وهو الخبر وهو فعل الإنباء أو الإخبار ، ويحتمل أن يكون على وزن « فعيل » بمعنى « مفعول » أى أنه منبأ بالغيوب ، أو بمعنى : فاعل أو مفعل وهذا المعنى يشير إلى أنه منبئ عن الله تعالى. هذا إذا لوحظت الهمزة فى اللفظ ، وأما فى لغة من لا يهمز فى أصل الكلمة ، فإنه يكون مأخوذا من النبوة (بفتح النون وتشديدها) وهو ما ارتفع من الأرض ، فيقال : نبا الشىء بمعنى ارتفع ، وتكون العلاقة بين هذا المعنى وبين « النبى » أنه يكون مرتفع الشأن ، فوق طور البشر العاديين ، كما ترتفع الربوة على سائر ما جاورها . ذلك لاختصاصه بالوحى ، وخطاب الله تعالى .[1] من ثم يتضح لنا أن اللفظ يمكن أن يفيد ثلاثة معان :

١- ما يفيد اسم المفعول (منبأ) بمعنى أن الله تعالى أنبأه بالغيب ، الذى يختص به من يشاء من عباده ، دون نظر إلى طرف ثالث ، وتكون العلاقة هنا ثنائية بين

---

(١) شرح السنوسية الكبرى . ص ٣٤٩ .

الحق تبارك وتعالى ومن أطلعه على غيبه ، بواسطة هذا الإنباء بأى طريق من طرق الإيحاء المختلفة .

٢- ما يفيده اسم الفاعل (منبئ) بمعنى الإخبار عن الله تعالى ، وهنا يظهر الطرف الثالث فى العلاقة ، وهو من ينقل إليهم نبأ السماء عن طريق هذا النبى .

٣- الارتفاع وعلو الشأن ، سواء أكان ذلك قبل البعثة أو بعدها ، فأما قبل البعثة ، فلأن الحكمة جرت بأن يكون من يختاره الحق تبارك وتعالى ليكون نبيا عالى الشأن فى قومه ، شرف نسب وكرامة محتد ، وطهارة اعتقاد . كما قال فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم : « وتقلبك فى الساجدين » (الشعراء : ٢١٩) وفى حق موسى عليه السلام : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » (طه : ٣٩) .

وأما بعد البعثة فلأن النبوة مهمة عالية رفيعة والنبى مؤهل بتأهيل الله له لأن يكون كذلك .

وقيل : إن لفظ النبوة مشتق من « النبى » - نون مشددة مفتوحة بعدها باء ساكنة ثم ياء - وهو الطريق ، ووجه الاشتقاق أن النبوة هى الطريق والمنهج الذى يصل بمن يتخذه سبيلا إلى ما يصلحه فى العاجل والآجل . [(١)]

وفى الجملة : فإن اللفظ يشمل هذه المعانى مجتمعة ، ذلكم لأن النبى إذا لوحظ فيه جانب التلقى فهو منبأ ، وإذا لوحظ فيه جانب الإخبار فهو منبئ ، وأما إذا لوحظ فيه مكانته فى القوم قبل البعثة ، ومكانته مع ما نبأ به بعد البعثة فهو المرتفع العالى شأن الهادى بين المهديين . وإذا اعتبر المنهج الذى نبأ به ، فهو السبيل الهادى إلى طريق الرشاد .

---

(١) المواقف : جـ ٨ ص ٢١٨ .

(ب) الرسول :

وهو مشتق من مصدره (إرسالا) وبهذا المعنى يكون واسطة بين مرسل (بكسر السين) ومرسل إليهم ، وهذا المعنى المطلق يتحقق فى الرسول بالمعنى الاصطلاحى - كما سنبين - لأنه يتوسط بين الله سبحانه وتعالى باعتباره صاحب الدين ، الذى سيحمله تبعة ومسؤولية الرسالة وبين من يرسل إليهم . ويلاحظ أن المعنى اللغوى هنا لم يتجاوز كون « الرسول » واسطة ، على حين أن المعنى اللغوى للفظ « النبى » قد تضمن معنى الإنباء عن الله تعالى ، كما يتضمنه معانى أخرى كما ذكرنا ،كما دل لفظ « الرسول » على معنى لم يتضمنه أحد معانى « النبى » وهو وضوح العلاقة بين طرفين : مرسل ومرسل إليهم فى معنى « الرسالة » .(١)

ثانيا : المعنى الاصطلاحى :

اختلف العلماء فيما بينهم فى تعريف النبى بالمعنى الاصطلاحى وكذا الرسول والعلاقة بينهما . ولعل السبب فى ذلك راجع إلى ما جاءت به بعض الآيات القرآنية التى تعطف أحدهما على الآخر ، بما يفهم منه المغايرة لأن العطف يقتضى ذلك ، كما فى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (الحج : ٥٢) . واعتبار العطف مقتضيا للمغايرة ، وجه من وجوه الفهم لمعنى العطف إذ قد يكون بمعنى التفسير والبيان ، ولهذا المعنى يرى بعض الباحثين أنه لا فرق بين الرسول والنبى إلا فى الاشتقاق اللغوى . كما سنبين .

---

(١) ولهذا المعنى قرر « القاضى عبد الجبار » أن لفظ الرسول من الألفاظ المتعدية ، أى : الواسطة بين المرسل والمرسل إليه ، وإذا أطلق فلا يفهم منه المعنى المراد إلا بالعرف والاصطلاح كما أن لفظ « العاصى » إذا أطلق فلا يفهم منه أنه من خرج على أوامر الله إلا بالعرف والاصطلاح الشرعى . وإذا لم يلاحظ العرف فلابد من التقييد ، فيقال : رسول الله (شرح الأصول الخمسة : ص ٥٦٧) .

يرشح للفهم الذى عليه من يرى أن العطف يقتضى المغايرة أن النبى غير الرسول ، وهناك حديث جاء فى هذا الباب ، كان إجابة عن سؤال سئله الرسول صلى الله عليه وسلم عن عدد الأنبياء وعدد الرسل . فكانت الإجابة أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا ، وأن عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وقد ذكر « البغدادى » فى « أصول الدين » [1] أن هذا مما أجمع عليه أصحاب التواريخ . مما يحفز الهمة إلى تحقيق هذه المسألة ، بالبحث عن درجة الحديث الوارد بذلك ، ثم تتبع سياق الآيات التى جاء فيها ذكر الرسول مع النبى ، ورأى كبار المفسرين فيها ، ثم أخيرا : النظر فى الفرق الذى قال به جمهور العلماء بين كل من النبى والرسول . وعلى الرغم من أن المسألة خلافية ، وليست أصلا ، بل هى فرع عن أصل ، إلا أن تحقيقها أمر يحتاج إليه البحث العلمى . والآن سنورد أقوال بعض العلماء المعتد بهم فى مجال الدراسات الكلامية ، فى تعريف كل منهما ، ومن ثم فى العلاقة بينهما ، ثم نحقق المسألة فى ضوء أقوالهم هذه ، ذكر صاحب « السنوسية » الآراء فى المعنى الاصطلاحى لكل من النبى والرسول ، على سبيل الاجمال ، دون أن يعزو كل رأى إلى صاحبه فقال : « فالنبوة عندنا هى : اختصاص بسماع وحى من الله بواسطة ملك أو دونه ، فإن أمر بتبليغه فرسالة ، فالمختص بالأول والثانى (سماع الوحى والأمر بتبليغه) رسول وبالأول فقط (سماع الوحى) نبى ، فالرسول - إذن - أخص من النبى مطلقا فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا .

وقيل : هما بمعنى واحد .

وقيل : بينهما عموم وخصوص من وجه ، فيجتمعان فى الرسول من البشر ، وينفرد النبى فيمن أوحى إليه من البشر ، ولم يؤمر بالتبليغ ، وينفرد الرسول فيمن أوحى إليه من الملائكة وبعث إلى غيره [2]

(١) ص ١٥٧ .

(٢) وهذا رأى لم أجده لدى غير السنوسى من علماء الكلام . والإيحاء إلى الملائكة لكى يبلغوا عن الله كما هو ظاهر عبارته (وبعث إلى غيره) كان مطلب بعض الكفار ، كما جاء فى قوله : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم=

وقيل : هما متباينان ، فالرسل هم أصحاب الكتب والشرائع والنبيون هم الذين يحكمون بالمنزل على غيرهم ، مع أنهم يوحى إليهم .[1]

والرأى الذى ذكره « السنوسى » أولا هو ما عليه جمهور المتكلمين من الأشاعرة فالنبى - على هذا الفهم - هو : من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول هو : من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه .[2] فيشتركان فى « الإيحاء » ويختلفان فى « التبليغ » من ثم قيل : بينهما عموم وخصوص مطلق ، بمعنى : أن كل رسول نبى، لأنه موحى إليه ، وليس كل نبى رسولا ، لأنه غير مأمور بالتبليغ ، بخلاف « الرسول » فإنه مأمور بذلك .

وهناك فرق أخف من هذا الذى ذكره العلماء بين « النبى » و « الرسول » هو أن « النبى » لا يشترط فيه شرع وكتاب جديدين ، بخلاف الرسول ، ومن ثم فيمكن أن يكون النبى داعية إلى العمل بشرع رسول سبقه ، ويكون ذلك بإيحاء من الله تعالى .

وفى تقديرى أن الفرق الأول الذى اتفق عليه جمهور العلماء ، وهو أن الرسول يشترط فيه « التبليغ » بخلاف النبى فلا يشترط فيه ذلك ، فرق ترى النفس فيه شيئا ينبغى الوقوف عنده كثيرا ، لأننا لو سلمنا بصحة هذا الفرق ، لما كان للنبوة معنى اجتماعى على الإطلاق ، وتصبح والحالة هذه كأنها وحى لشخص بعينه ، وليست هذه هى المهمة الكبرى التى يمنحها الحق سبحانه للبشر حين تتوافر مقتضياتها . والقرآن

= وعتوا عتوا كبيرا » (الفرقان : ٢١) وطلبهم هذا غير طبيعى ، كما صرح بذلك القرآن فى آية أخرى حيث قال : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » (الأنعام : ٩) إذن من الواضح أن كون المبعوث ملكا يبلغ القوم رسالة ، أمر مستبعد ، فكيف يصور على أنه نوع من أنواع الاختصاص بالبعثة ؟

(١) ص ٣٥٠ .

(٢) انظر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٤٣ وأصول الدين ص ١٥٤ وللباقلانى من الأشاعرة رأى آخر ، إذ يرى أن النبى يشترك مع الرسول فى مهمة التبليغ ، غير أنه يعمل بشرع رسول سبقه كأنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بين موسى وعيسى عليهما السلام . انظر : العقائد النسفية ص ٣١ .

الكريم صريح فى أنه ما من أمة إلا جاءها نذير من عند الله تبارك وتعالى ، والإنذار لا يكون إلا بالتبليغ كما أنه صريح فى أن من الرسل من عرف باسمه وبكتابه وشرعه وبالقوم الذين أرسل إليهم ، وهؤلاء قلة إذا قيسوا بغيرهم ممن لم يرد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وهذا كلام يساق على التقريب لا على التحقيق ، لأننا لا نعرف عدد الأنبياء والرسل على وجه دقيق بعد أن تبين لنا - كما سيجىء - أن الحديث الوارد فى هذا المقام ليس صحيحا .

والقضية - فى نظرنا - لا تحتاج إلى أن يستفيض القول فيها بعد أن حسمها القرآن الكريم ، فقد ذكرت الآية الكريمة أن من الرسل من لم يرد ذكر قصصهم ، اكتفاء بمن ذكر ، وفى هذا ضرب من العلاج العالى لما يمكن أن يحدثه موقف الطغاة أمام الحق الواضح ، فيترسب فى وجدان صاحب الرسالة شىء من الأسى على عدم اهتمام القوم بهذا الحق ، إن السياق واضح فى استحضار موقف أقوام بعض الرسل ، ليكون فى ذلك عزاء وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، بالقدر الذى يحقق الغاية ، وليس بلازم أن يستعرض الموقف قصص الجميع ، طالما أن فى ذكر بعضهم ما يكفى . لتحقق العبرة والمقصد . قال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما » (النساء : ١٦٣ - ١٦٥) فالآية الأولى تذكر النبيين من بعد نوح على سبيل الإجمال ، ثم تذكر إبراهيم وإسماعيل الخ والآية الثانية تعطف على من ذكر إجمالا ومن ذكر تفصيلا مصطلح « الرسل » وتسند إليهم التبشير والإنذار . فالسياق يظهر منه أنه لا فرق بين الرسول والنبى فى المهمة الأساسية : البلاغ تبشيرا وإنذارا .

والكتاب العزيز فى سياق حديثه عن الأنبياء - عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم السلام - يحدثنا عن طبيعة المواجهة بينهم وبين أقوامهم ، وليس فيه ما يدل على أن بعضهم كان موحى إليه لذاته ، إذن من أين صح للذين فرقوا بين النبى والرسول هذا

القول ؛ إن قيل : إن من تحدث عنهم القرآن على الوجه المذكور قد جمعوا بين النبوة والرسالة ، قلنا : فى هذا الرد يظهر تصوركم لوجود فرق بينهما من حيث الحقيقة ، والواقع ليس كذلك . لأن ما به يتحقق المقصود من البعثة هو « التبليغ » كما أشرنا ، من ثم رأينا بعض علمائنا « كابن رشد » [1] يقرر أن الفرق بين كل من النبى والرسول ليس راجعا إلى الحقيقة ، لأن حقيقتهما واحدة بل إلى أصل الاشتقاق لكل منهما . وهذا ما يطمئن القلب فى هذا المقام .

الفرق الثانى ومناقشة من قال به :

ذكرنا أن هناك من العلماء من قرر الفرق بين كل من النبى والرسول لا على الوجه الذى ذكرنا وبينا عدم ملاءمته للحقيقة والعقل ، وإنما جعل الفرق بينهما فى أن « الرسول » يكون صاحب شرع وكتاب جديدين بخلاف « النبى » فهو يكون داعية إلى شرع رسول سبقه ، ولم ينزل عليه كتاب جديد . وهذا الفرق إنما يصح مع كل نبى جاء بعد رسول صاحب شرع وكتاب جديدين ، كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا يدعون إلى شريعة التوراة.وقد يوحى إلى أحدهم وحى خاص فى قضية معينة ، كما فهم الحق تبارك وتعالى سليمان وداود عليهما السلام القضية التى حكما فيها ، كما قال القرآن الكريم : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ...» (الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩) .

وهذا القول لا يطرد إلا إذا كان الذى أوحى إليه رسولا له شرع وكتاب ، حتى إذا انتهى أجله ، ولم تظهر رسالته ، فإن الله سبحانه يقيض لها أنبياء يدعون إليها ، حتى تبلغ نفوس المدعوين ، والمدة التى تستغرقها الغاية من الرسالة والعدد الذى تحتاجه إلى ذلك ، أمور ترجع إلى علم الحق تبارك وتعالى وتقديره . وهذا يعنى أن آدم عليه السلام ، كان رسولا . والذى عليه جمهور العلماء أنه أول الأنبياء ، بالمعنى الذى يحدد الفرق بين النبى والرسول . وفى هذا ما يعكر على القول الذى معنا فى الفرق بينهما . والحق أنى ظفرت بنص عزاه « ابن تيمية » إلى « ابن عباس » وأحسب

(١) فصل المقال : ص ١١٥ .

أن شيخ الإسلام أمين ودقيق فى النقل ، هذا النص يقول : « قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام (أى كان الناس كلهم على الإسلام) فأولئك الأنبياء يأتيهم وحى من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم ، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول » .[1]

والذى يفيده هذا النص أن الأنبياء مأمورون بالتبليغ ، غير أن تبليغهم إنما يكون للطائعين من المؤمنين ، أى أن مهمتهم والحالة هذه تكون مهمة « المذكر » بشىء معروف من قبل ، وما جاء فى النص من أن أهل القرون العشرة ، التى كانت بين آدم ونوح كانوا على الإسلام يدل على أن آدم عليه السلام - وهو أول الأنبياء - لم تكن نبوته بالمعنى الذى فهمه القائلون بالفرق بين النبى والرسول بل كان مبلغا عن الله تعالى . وإلا فمن أى طريق أسلم الأقوام حتى جاءت رسالة نوح عليه السلام ؟

ثم إن هناك ما يؤكد هذا الفهم من آيات القرآن الكريم ، لقد قال فى حق ابنى آدم : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين ، إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » (المائدة : ٢٧ - ٣٠).

فالآيات تدل دلالة صريحة على أنه كان هناك معيار للفعل الإنسانى فى ضوئه تنقسم الأفعال إلى حسنة وإلى قبيحة ، وأن الله سبحانه وتعالى يتقبل الأولى منها دون الأخرى ، كما كانت هناك صفات للفاعلين - متقين وغير متقين - خاسرين وظالمين - وفى المقابل - رابحين وعادلين الخ ، كما وجدت عقيدة الجزاء (فتكون من أصحاب النار) ويقابلها جزاء الطائعين (الجنة) فمن لهذين الابنين بهذه المعتقدات إن لم تكن معلومة لهم عن طريق وحى الله المبلغ إليهم ؟ وفيهم كذلك الطائع والعاصى . ولا يبين هذا من ذاك إلا أن يتحدد الموقف من شرع الله تعالى عن طريق تبليغه .

---

(١) النبوات : ص ٢٨١ .

إن هذا الفهم أقرب إلى الحقيقة ، وعلى هذا فالفارق الوحيد بين النبى والرسول إنما يقتصر على الكتاب والشرع الجديدين ، وأن النبى إنما ينبغى أن يبلغ عن الله شرع من سبقه بوحى يأتيه بذلك . ولا يتصور هذا إلا أن تكون رسالة من سبقه لا تزال صالحة للتأثير فيمن جاءت إليهم ، غير أن المبلغ بها ، قضى أجله قبل أن تبلغ ما يريد اللـه لهـا .

والنص الذى ساقه « ابن تيمية » نقلا عن « ابن عباس » قد حدد به فرقا جديدا بين النبى والرسول . حيث يذهب إلى أن كليهما موحى إليه ، وهو مبلغ عن الله ، غير أن النبى يبلغ المؤمنين الطائعين ، وذلك بتذكيرهم بشرع الله ، حين تغشاهم الغفلة ، أو تسيطر عليهم عوامل تجعل صلتهم بالرسالة ضعيفة ، ولكنهم غير منكرين لها . ويكون شأنهم والحالة هذه - والقياس مع الفارق طبعا - شأن العلماء الذين يتلقون الراية عن رسلهم فيدعون الناس إلى رسالتهم ، وقد كانت هذه المهمة واضحة جدا فى بنى إسرائيل .[1] وهذا المعنى أشرنا إليه من قبل .

وشيخ الإسلام - اطرادا - مع الفارق الذى استقر عنده - يرى أن مهمة الرسول تزيد على مهمة النبى من حيث دائرة المدعوين إلى الرسالة ، ذلك لأنه يدعو المصدق به والمكذب له ويعتمد فى هذا السياق على بعض الآيات الكريمة ، التى ساقها القرآن الكريم فى مقام تثبيت فؤاد رسولنا صلى الله عليه وسلم ، بما يعرض عليه من مواقف أقوام رسل الله السابقين ، قال تعالى : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (الذاريات : ٥٢) وقوله : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ...» (السجدة : ٤٢) وقـوله : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولـدار الآخـرة خير للذين اتقـوا أفلا تعقلون ، حتى إذا استيأس الرسل وظنـوا أنهـم قـد كذبوا جاءهـم نصرنا فنجى من نشـاء ولا يرد بأسنـا عن القــوم المجرميــن » (يوسف : ١٠٩ ، ١١٠) .

---

(١) نفس المصدر .

وينتهى شيخ الإسلام هنا إلى رأى محدد فى القضية التى معنا ، وما ذهبت إليه من قبل من ضرورة أن يكون النبى مبلغا عن الله تعالى حتى تتحقق الغاية من البعثة ، يكاد يلتقى مع ما قرره هنا ابن تيمية ، إنه يرى عدم اشتراط أن يكون الرسول صاحب شرع جديد ، بل يمكن أن يكون داعية إلى شرع رسول سبقه ، فإن يوسف عليه السلام كان رسولا ،وكان على ملة إبراهيم حنيفا ، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة . وهنا يكون الفارق بين كل من النبى والرسول هينا جدا ، حيث يصبح محصورا فى طبيعة المبلغين ، فمن كانت دعوته إلى المؤمنين تذكيرا وإقامة على طريق الحق كان نبيا ، ومن اتسعت دعوته فشملت هؤلاء ثم تخطتهم إلى إنذار المعاندين والكفار فهو نبى ورسول .[١] وهذا ما أطمئن إليه ، طالما أن كليهما كان مبلغا عن الله ، كما أن عدم اشتراط رسالة جديدة فى حق الرسول يزيل الفارق الحاد الذى وضعه أولئك الذين اشترطوا ذلك بين كل من النبى والرسول على مذهبهم .

ومما يؤكد حقيقة ما ذهب إليه ابن عباس وتابعه على ذلك شيخ الإسلام أننا لو اشترطنا كتابا وشريعة جديدين لكل رسول ، لكان عدد الكتب موافقا لعدد الرسل ، وهذا لم يقبل به أحد [٢] ، من ثم ظهر أن الرسول لا يشترط فيه شرع جديد كما سبق وإذا نظرنا إلى المسألة من وجهة النظر العقلية البحتة فإنا نقول : إذا كانت أصول الشرائع واحدة وبخاصة فى أصول الاعتقاد ، كما صرح القرآن الكريم ، فى خطاب كل رسول لقومه : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » يضاف إلى تلك الأصول ما تقتضيه الحاجة من إصلاح ما اعوج من النظم والعلاقات والأخلاق والمعاملات ، على الوجه الذى بينه القرآن ، فإذا انتهى وقت حياة الرسول ، ولم ينصلح بعد واقع المجتمع الذى جاء إليه ، واقتضت الحكمة الإلهية بعث رسول جديد ، فلا حاجة إلى شرع جديد طالما أن الواقع لا يحتاج إلى ذلك ، وتظل الحاجة قائمة على تذكير القوم بسوء ما هم

---

(١) نفس المصدر ص ٢٨٢ .

(٢) والقرآن الكريم ذكر قبله كتب : التوراة - الإنجيل - الزبور - صحف إبراهيم وعزا كل كتاب إلى من أنزل عليه . ولم يشر إلى أن هناك كتبا لم تذكر ، كما فعل مع الرسل عليهم الصلاة والسلام .

عليه - عقيدة ونظاما وأخلاقا - بنفس رسالة الرسول السابق وهنا ، يظهر أن الشريعة الجديدة لا يحتاج إليها إلا أن تكون السابقة عليها قد استنفذت مهمتها ، وفى النهاية يحكم العملية كلها قول الحق تبارك وتعالى « الله أعلم حيث يجعل رسالته »

رأى المعتزلة :

يذهب جمهور المعتزلة إلى أن النبى والرسول بمعنى واحد من حيث الحقيقة ، واستندوا فى ذلك إلى أن كلا منهما قد أيده الله بما يدل على صدق دعواه ، بالمعجزات التى تظهر على أيديهم ، ولا يوجد هذا لغيرهم . وحتى يسلم لهم مذهبهم ، ردوا على غيرهم ممن قال بالفرق بينهما اتباعا لظاهر الآية الكريمة : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى » (الحج : ٥٢) . بأن اللفظين مترادفان ، وأن العطف للبيان والتفسير ، ولا يقتضى المغايرة ، وقالوا : إن الذى يدل على أن النبى والرسول بمعنى واحد ، هو اتفاق الكلمتين فى المعنى ، فهما يثبتان معا ويزولان معا فى الاستعمال ، حتى لو أثبت أحدهما ورفعت الآخر لتناقض الكلام ، ومجرد الفصل بين النبى والرسول فى الآية الكريمة ، لا يدل على الاختلاف بينهما ، ألا ترى أنه تعالى فصل بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء ، ولم يدل هذا الفصل على أنه غيرهم ، كما فصل بين الفاكهة والنخل والرمان ولم يدل ذلك على أن النخل والرمان ليسا من الفاكهة .(١)

رأى بعض المفسرين :

وبعض المفسرين هنا ، آثروا رأى من يفرق بين النبى والرسول ، اعتمادا على ظاهر آية الحج وغيرها ، مما جاء فيه عطف أحدهما على الآخر . ويظهر أنهم كانوا مرددين لما يقوله جمهور الأشاعرة فى هذه القضية دون تحقيقها . وليس مما يطيقه البحث أن نأتى على كل آرائهم ، بل سنختار منهم من يمثلهم ، من المتأخرين .

---

(١) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥١٨ و المغنى . جـ ١٥ التنبؤات والمعجزات ص ١٢ .

١- الشيخ رشيد رضا :

جاء فى كتابه « الوحى المحمدى »[(١)] أن الرسول والنبى بينهما فرق ، هو نفس ما ذكره المتكلمون ، من حيث الخصوص والعموم ، وانتهى إلى أن كل رسول نبى ولا عكس فى ذلك . إذ الرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، والنبى هو من لم يؤمر بالتبليغ .

٢- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وكلام هذا المفسر فيه تفصيل أكثر للقضية ، حيث استشهد ببعض الآيات القرآنية التى ظن أنها تؤيد مذهبه ، فقد اعتمد نفس التعريف الذى يفرق بينهما على أساس أن التبليغ شرط فى الرسول ، وليس شرطاً فى النبى . قال فى تفسير قوله تعالى : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ... » (البقرة : ٦١) : « وإنما قال « النبيين » لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم ، لأنه مناف للحكمة من الرسالة ، التى هى « التبليغ » قال تعالى : « إنا لننصر رسلنا » ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال ، ولكن الله أنهى مدة رسالته ، بحصول المقصد مما أرسل إليه »

والحق أن هذا التفسير لا يسلم ، حيث اعتمد الفرق (التبليغ للرسول وعدمه للنبى) كأساس لتسلط الأعداء على الأنبياء لا على الرسل ، وفى القرآن ما يخالف هذا ، فقد قال سبحانه فى نفس السورة : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (البقرة : ٨٧) فالآية ظاهرة الدلالة على أن تسلط الأعداء لا يكون للنبى دون الرسول ، كما قرر ، وبضم الآيتين معا فى إطار واحد ، يظهر أن المراد بالنبى فى الأولى هو المراد بالرسول فى الثانية والعكس صحيح . كما يظهر من هذه الآية أمر آخر قد يكون ردا على من يرى أن « النبى » هو من يعمل بشريعة رسول سبقه ، ويحدد الفرق بينهما بهذا القيد . ذلكم لأن الآية

---

(١) ص ٤٧ .

تقرر أن بين موسى وعيسى عليهما السلام رسلا كثيرين ، حيث ذكرت الفعل بعد موسى « وقفينا » قبل أن تذكر عيسى ، ثم ذكرت أن الذين كانوا بينهما ، إنما هم « رسل » وليسوا أنبياء . وفى الآيات الأخرى ، ذكرت عن بنى إسرائيل أنهم كانوا يقتلون الأنبياء أو النبيين بغير حق . فدل هذا كله على أن المراد بالنبى والرسول واحد فى منطق القرآن الكريم . فكيف صح للعلامة ابن عاشور هذا التفسير ؟ . إن الفعل واحد وهو « القتل » والفاعل واحد ، وهم بنو إسرائيل ، والمفعول به واحد وهم الواسطة بينهم وبين الحق ، والتعبير عنهم تارة بالرسل ، وأخرى بالأنبياء أو النبيين يدل على أن الحقيقة واحدة ، وليست مختلفة .

وهذا الذى ذكرناه لم يغب عن فهم الشيخ ابن عاشور ، فما كان عليه إلا أن يفسر لفظ الرسول الوارد فى الآية بلفظ النبى فقال : وسمى أنبياء بنى إسرائيل من بعد موسى رسلا مع أنهم لم يأتوا بشرع جديد[1] اعتبارا بأن الله أمرهم بإقامة التوراة وتفسيرها والتفريع منها . فقد جعل لهم تصرفا شرعيا . وبذلك كانوا زائدين على مطلق النبوة ، التى لا تعلق لها بالتشريع ، لا تأصيلا ولا تفريعا .[2]

ويؤخذ على ابن عاشور ما يأتى :

أولا :- تشبثه بالفرق بين حقيقة كل من النبى والرسول دون سند من القرآن الكريم والآيات التى ساقها لم تسعفه ، بل جاءت بعكس ما ذهب إليه ، فالآيتان : (٦١ ، ٨٧) من سورة البقرة تفسر إحداهما الأخرى ، وليست الأولى بأحق بأن تكون القاعدة من الثانية ، ومن المعروف لدى علماء التفسير أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ومن ثم كان تفسيره غير مستساغ .

ثانيا :- أن الآية الكريمة التى استشهد بها على أن الأعداء تسلط على الأنبياء ولا

(١) يفيد هذا القيد أنه ممن يذهب إلى أن الفرق بينهما إنما ينحصر فى اشتراط الشرع الجديد بالنسبة للرسول وعدم اشتراطه للنبى .

(٢) انظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير تفسير الآيات من ٦١ من سورة البقرة إلى الآية ٨٧ من نفس السورة .

على الرسل ، وهى قوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا .. » لا تفيد تخصيص الرسل بنصرة الحق تبارك وتعالى لهم ، لأن بقية الآية تبين أن المؤمنين منصورون كذلك « ... والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » كما لا يفيد ظاهرها كذلك أن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم ، وإنما سيقت لبيان أن المآل إنما هو نصر من الله لأوليائه ، حتى ولو كان قد أصابهم الكثير من أعدائهم . وقد فات الشيخ الجليل أن أولى العزم من الرسل كانوا أشد ابتلاء من غيرهم ، وأن الحق تبارك وتعالى قال لرسوله الخاتم «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » .

ثالثا : - أن استدلاله بقوله تعالى فى حق نبينا : « والله يعصمك من الناس ... » لا يمكن أن يكون قاعدة تعم جميع الرسل ، لأن هذه خصوصية له ، كما أن العصمة له - عليه الصلاة والسلام - لا تعنى عدم إيصال كل الأذى إليه ، بل قد تعنى : أنك معصوم من أن تفتن فى دعوتك ، فهى عصمة خاصة ، وليست عامة .

وفى الجملة يمكن أن يقال : إن المفسرين قبل الشيخين : رشيد رضا والطاهر بن عاشور إما أن يكونوا قائلين بالفرق بين كل من النبى والرسول - على الوجه السابق - وإما أن يكونوا غير ذلك ، أو قال بعضهم به ، وقال بعضهم بعدمه . ونحن هنا بعد أن سقنا بعض الآيات التى ظهر منها أن القرآن الكريم يطلق اللفظين على حقيقة واحدة ، نقول : إن الرأى الأرجح هو ذلك الذى يقرر أنه لا فرق بينهما من حيث الحقيقة ، وفى هذا الذى نرجحه قطع الطريق على من يزعم أن الآية الكريمة التى تحدثت عن ختم النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ... » (الأحزاب : ٤٠) تدل على ختم النبوة لاعلى ختم الرسالة ، من ثم يمكن أن يدعى الرسالة مخبول ، لأن الرسالة غير النبوة . وقد فعل البهائيون ذلك .[(١)] وعلى الرغم من أن ظاهر الآية فيه النص على الرسالة

(١) انظر : الخضر حسين : البابية والبهائية ص ٢٣ .

والنبوة - الأمر الذى يؤيـد ما نذهب إليه - إلا أن التحايل طبيعة أصحاب النفوس الملتوية ، إذ يمكن مع الاعتقاد بوجود الفرق بين الرسول والنبى أن يقال : إن المراد بالرسول فى الآية « النبى » وفرق كبير بين أن يقال : إن المراد بأحدهما هو المراد بالآخر - كما نذهب نحن - وبين أن يقال : إن المراد بالرسول هو النبى ، إذ سيظل باب الرسالة مفتوحا ، يدعيها من يدعيها ، ولا نستبعد أن يخترع لنفسه من الخوارق ما يزعم معه أنها تؤيده فى دعوى الرسالة . ولتأكيد ما نذهب إليه ، نقول : يمكن الإتيان بنسقين من الآيات : الأول جاء فيه ذكر الأنبياء - مفردا أو جمعا - والآخر : جاء فيه ذكر الرسل - مفردا أو جمعا - ثم ننظر فى النسقين معا نظرة دقيقة ، لنرى ما بينهما من علاقة ، فى ضوء السياق العام لتلك الآيات . وذلك كما يأتى :

النسق الأول : آيات تتحدث عن الأنبياء : (مفرد أو جمع)

١- « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون » (الزخرف : ٦ ، ٧) .

٢- « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ...» (البقرة : ٢١٣) .

٣- « وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ....» (الأعراف : ٩٤) .

٤- « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ...» (مريم : ٥٨) وهذه الآية جاءت بعد ذكر آيات تحدثت عن الرسل : إبراهيم - إسحق - يعقوب - موسى -إسماعيل - إدريس ، تصف بعضهم بالرسالة ، وبعضهم بالنبوة وبعضهم ببعض الصفات العالية الأخرى . مما يؤكد وحدة الدلالة على الحقيقة بين النبى والرسول .

٥- « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » (الأحزاب : ٧٦) .

٦- « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » (الزمر : ٦٩) .

٧- «أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ...» (الأنعام : ٨٩) .

النسق الثانى : آيات تتحدث عن الرسل : (مفرد أو جمع)

١- « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » (البقرة : ١١٩) .

٢- « وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا » (الفرقان: ٣٠ ، ٣١) .

٣- « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » (الأنعام : ٤٨)(الكهف : ٥٦).

٤- « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (الأنبياء : ٥) .

٥- « .. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (البقرة : ٨٧) .

٦- « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله ..» (النحل : ٣٦).

٧- « ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه ..» (المؤمنون : ٤٤) .

ومن هذين النسقين يمكن ملاحظة ما يأتى :

أولاً :- أن التبشير والإنذار كان مهمة كل من النبى والرسول على السواء - لاحظ الآية رقم (٢) فى النسق الأول والآية رقم (١ ، ٣) فى النسق الثانى - وهذا ما يؤكد أن النبى يبشر وينذر كما أن الرسول كذلك ، وهذا هو التبليغ ، الذى يرى أحد التعريفات السابقة أنه مهمة الرسول دون النبى .

ثانياً :- أن الإيذاء - بالقتل أو بما هو دونه - يقع على النبى والرسول على حد سواء - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - وكما هو صريح الآية رقم (١) ، ورقم (٧)

فى النسق الأول والآية رقم (٣) ، ورقم (٧) فى النسق الثانى .

ثالثاً : - أن أخذ الأقوام بالذنب بسبب موقفهم من الحق ، جاء مقترنا ، فى الآيات التى تحدثت عن النبى والرسول ، مما يدل على أن وحدة الحقيقة بينهما والتصدى لما جاء به كل منهما من الحق كان ذا أثر واحد . كما فى الآية رقم (٣) من النسق الأول . والآية رقم (٣) من النسق الثانى ، وهى رقم (٤٨) سورة الأنعام وتمامها : « ..... فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وبعدها « والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون » (الأنعام : ٤٩).

رابعاً :- فى الآية رقم (٢) من النسق الثانى جاءت الدعوة فيها على يد رسول ، ثم تحدثت التى تليها عما يقف لكل نبى من المعادين لدعوته ، مما يدل على اتحاد الحقيقة بين كل من الرسول والنبى ، واتحاد الموقف بالنسبة لمن يعادى دعوة الحق .

وأحسب أن فى هذا القدر كفاية . بعد أن بان أن التفرقة بينهما لم تقم على أساس صحيح من القرآن الكريم ، ولا من العقل الصريح . [١]

والآن نرى ما يقوله المحدثون فى الحديث الذى جاء فى هذا الموضوع بذكر عدد الأنبياء وعدد الرسل ، مما يمكن معه القول بأنه كان أحد الأسباب التى دفعت من يقرر الفرق بين كل من النبى والرسول إلى هذا التقرير .

---

(١) أورد القائلون بالفرق بين النبى والرسول بعض الشبهات المترتبة على القول بخلاف ذلك ، وكلها تعتمد على أن العطف يقتضى المغايرة وما سوى هذا ، كان جذبا لبعض الآيات القرآنية لموقفهم ، بعد أن ترسخ فى أذهانهم أن الرسول غير النبى ، وكلها شبهات واهية من ذلك : قولهم إن محمد صلى الله عليه وسلم نبئ بقوله تعالى: « اقرأ باسم ربك « وأرسل بقوله تعالى : « يا أيها المدثر » وهذا لعمرى فهم خاطئ جداً ، إذ يعنى أن مرحلة الرسالة أتت بعد مرحلة النبوة ، ولم يقل بذلك أحد غيرهم ، وقد سبق أن ذكرنا أن من وجوه العطف : التفسير والبيان ، مثل ما جاء فى قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ..... » فالنبى بدل من الرسول أو بيان له وتفسير . وذكر الواو وعدم ذكرها سواء فى هذا المقام .

الحديث الوارد فى عدد الأنبياء والرسل :

ذكر « ابن كثير » فى تفسيره أن ابن مردويه روى عن أبى ذر قال :« قلت يا رسول الله : كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، قلت : يا رسول الله : كم أرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير ، قلت يا رسول : من كان أولهم ؟ قال : آدم ، قلت : يا رسول الله : نبى مرسل ؟ قال : نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبيلاً » وقد روى هذا الحديث بطريق آخر عن صحابى آخر - ابن أبى حاتم عن أبى أمامة بنفس المعنى وقريب من هذا اللفظ .(١)

والحديث الذى معنا ذكره ابن حبان فى كتابه « الأنواع والتقاسيم » ، وقد نقل عنه غيره ، ومنهم ابن كثير ، وهو حديث طويل ، وما ذكرناه عن عدد الأنبياء والرسل ليس إلا جزءا منه . وقد حكم عليه ابن حبان بالصحة ، غير أن ابن الجوزى قد خالفه فى ذلك ، حيث ذكره فى « الموضوعات » ذلك لأن إبراهيم بن هشام أحد رواته ، متهم فى روايته للحديث .

وأما الطريق الآخر لهذا الحديث ، وهو رواية ابن أبى حاتم عن أبى أمامة ، ففى سنده معان بن رفاعة السلامى ، وهو ضعيف ، وكذا على بن يزيد ، والقاسم أبو عبد الرحمن .

وقد جاء ذكر عدد الأنبياء والرسل فى حديث آخر ، ولكن ليس بهذا العدد المذكور عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« بعثت على أثر ثمانية آلاف نبى ، منهم أربعة آلاف من بنى إسرائيل » وقد حكم عليه ابن كثير بالغرابة ، على الرغم من أن رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق ، فإنه لا يعرف بعدالة ولا جرح والذى يمكن أن يقال فى هذا المقام أن حديث أبى ذر من الأحاديث الضعيفة ، كما ذكرنا لأن بعض رواته مجرحون ، وهذا أقل ما يمكن أن يقال فيه . لأن من رواته :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٠٨ .

يحيى بن يحيى الغسانى الدمشقى ، وقد قال عنه أبو حاتم إنه كذاب [١]. ووصفه الذهبى بأنه متروك ، وكذبه أبو زرعة [٢]

ثم إن الرواية الأخرى التى تذكر أن عدد الأنبياء ثمانية آلاف - مع الحكم على رواتها كما ذكرنا - تؤكد أن ما ورد فى هذا المقام من قبيل الأحاديث الضعيفة ، لأن اختلاف العدد يدل على تجاوز الحقيقة . وحسبنا هذا القدر من الكلام عن هذا الحديث ، لنؤكد أن الذين ذهبوا إلى وضع الفارق الحاد بين كل من النبى والرسول على الوجه الذى ذكرنا ، إن كانوا قد اعتمدوا على زيادة عدد الأنبياء على عدد الرسل بناء على صحة هذا الحديث ، يكون كلامهم نازلا عن درجة التحقيق العلمى ، بعد أن تبين أن الحديث ضعيف . ولو أنهم حققوا الفرق بينهما على الوجه الذى ذكرناه سلفا ، وهو أن النبى مأمور بالتبليغ كالرسول تماما ، والفرق بينهما أنه لا يلزم فى حق النبى شرع جديد بخلاف الرسول ، لكان كلامهم مقبولا .

٢- الوحى :

لهذا اللفظ معنيان :

ا - لغوى : اسم مصدر بمعنى الإيحاء ، وهذا المعنى - الإيحاء - يقصد به : الإعلام بالشىء سرا ، من ثم كانت الكتابة والإشارة والرمز والكلام الخفى، تسمى وحيا .[٣]

ب - اصطلاحى : التعليم السرى الصادر من الله تعالى إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، إما بواسطة الملك ، أو بلا واسطة ، يقظة أو مناما .[٤]

---

(١) الجرح والتعديل جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٢) ميزان الاعتدال جـ١ ص ٧٣ ، جـ ٤ ص ٣٧٨ .

(٣) د. محمد عبدالله دراز : المختار من كنوز السنة ص ١ .

(٤) نفس المصدر .

والإيحاء بدون توسط « الملك » إما أن يكون عن طريق الإلهام والإلقاء فى القلب ، وإما أن يكون بالكلام من وراء حجاب ، كما كان الحال مع نبى الله موسى عليه السلام، حيث كلمه ربه تكليما ، وهذا النوع من الاتصال بين الحق سبحانه وتعالى وبين بعض أنبيائه قد اختلف فى طبيعة الكلام الذى يقال لهم ، هل هو المعنى النفسى القائم بذات المتكلم ، أو هو حروف وأصوات يخلقها الحق تبارك وتعالى فى نفس المتلقى بحيث تصبح لديه القدرة على فهم خطاب الله تعالى ، وعلى كلا التقديرين ، فالأمر هنا لا يخلو من نوع من خوارق العادات إذ على المعنى الأول ، يكون فهم الكلام النفسى - بلا حرف ولا صوت - ضربا غير مألوف ، لأن مجرى العادة أن السماع لا يكون إلا عبر آلة السمع بواسطة الأصوات التى تحدثها حركات الحروف ، والكلام النفسى ليس فيه شىء من ذلك . وعلى المعنى الثانى ، يكون تحويل المعنى النفسى إلى حروف وأصوات تسمع بطريق مباشر ضربا من خرق العادة أيضا . وليس لنا أن نستغرب كثيرا فى هذا المقام ، فالنبوة تؤسس على المعجزة ، وهى أمر خارق للعادة كما أن اتصال السماء بالأرض لتبليغ رسالة من الرسالات الإلهية نوع من الاتصال غير العادى ، من ثم كانت قضية النبوة برمتها قضية الإعجاز الإلهى للبشر ، حتى لو خيل لمن يدعيها كذبا أنه يمكن أن يأتى بما يصدق دعواه ، لكان واهما لأن مصدر الاعجاز واحد وهو الحق سبحانه وتعالى .

وقد ذكرت كتب السنة والسيرة أن الإيحاء بواسطة « الملك » له صـــورتان ، إحداهما :أن يظل الملك على حقيقته الملكية ، ومن ثم فإن القدرة الإلهية تتكفل بإقدار النبى على أن يدرك الموقف ، مع اختلاف الطبيعتين ، وثانيتهما : أن يتمثل الملك فى صورة بشر ، فيكلم النبى فيعى ما يقول ، وقد لا يرى النبى الملك عند الوحى ، ولكن يحدث عند قدومه دوى وصلصلة شديدة ، فتعتريه حالة غير عادية من الشعور الروحى العميق ، يدركها من يشاهده ، بآثارها ، من تصبب عرق أو ثقل بدن الخ ، حتى تنقضى مدة الوحى ، فيعود النبى إلى حالته الطبيعية [١]

(١) نفس المصدر ص ٢ .

وهنا حقيقة لابد من الإشارة إليها ، وهى أن حالة « الوحى » بهذا المعنى تستلزم أن يعتقد الموحى إليه أن ما جاءه حق لا شك فيه ، وليس له مصدر غير أن يكون من الله سبحانه وتعالى . لا من خطرات النفس ولا من وسوسة الشيطان وليس وليد مقدمات عقلية ، ولا إلهام من نوع ما يحس به الصالحون ، وأصحاب النفوس المشرقة ، لأن الصورة التى يتم بها الوحى - كما ذكرنا - لا تكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحيث أن الأمر هكذا ، فإن العلم الحاصل فى نفس النبى يكون من قبيل العلم الضرورى اليقينى ، وما سوى ذلك مما يحدث لغير الأنبياء لا يكون بهذه الصفة .

كما أن إضافة « الوحى » إلى غير الأنبياء ، إنما يكون بالمعنى اللغوى لا بالمعنى الاصطلاحى . وقد أسند القرآن الكريم الوحى إلى البشر فى غير مقام النبوة ، كما قال تعالى فى حق زكريا عليه السلام : « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » (مريم : ١١) وقال عن أم موسى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ...» (القصص : ٧) وقال عن النحل : « وأوحى ربك إلى النحل ...» (النحل : ٦٨) ومعنى الوحى هنا هو : الإلهام أو الإشارة إلى ما ينبغى أن يفعل ، أو الهداية إلى ما به قوام الحياة ، من غذاء وشراب كما هو الحال فى شأن النحل .

الوحى بالمعنى الاصطلاحى الشرعى حقيقة خارجية :

المتتبع للقرآن الكريم ، فى آياته البينات التى جاءت لتقرير قضية الوحى ، وكذا ما استفاضت به السنة النبوية الصحيحة ، يرى أن حديث هذين المصدرين العظيمين عن هذه الظاهرة ، واضح كل الوضوح فى أن « الوحى » إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما مصدره إلهى لا شك فيه ، وأنه حقيقة خارجية ، بمعنى : أنه ليس من قبيل حديث النفس ، ولا من ولادة الخواطر ، أو المقدمات العقلية أو التعلم عن طريق علوم الغير ، ثم تعبيرها وشرحها الخ قال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ...» (النساء : ١٦٣) وقال : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » (الشورى : ٥٢) وقال : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » (الشورى : ٣) . وفى الحديث

الصحيح الذى روته عائشة رضى الله عنها : أن أول ما بدئ به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة .... حتى جاءه الحق (الوحى) وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك إلى آخر الحديث . والحديث أخرجه الشيخان فى الصحيحين .

والآيات - كما هو واضح - تسند فعل الإيحاء إلى الله تعالى ، أى تحدد مصدره ، وتقطع الطريق على أى تفسير آخر لمعنى الوحى . ومن ثم فإن الذين يستبعدون هذه الظاهرة ، أو يفسرونها بمعنى غير الذى ذكرنا ، لا يقبل كلامهم . وكون أحلامهم لا تقدر على تصور عملية الاتصال الإلهى ببعض من يختارهم الحق تبارك لتبليغ رسالة من رسالاته ، لا يعنى أن حقيقة هذه المسألة ليست واقعة ، بعد أن استفاضت بوقوعها الأخبار الصادقة ، وإذن فليتهم هؤلاء عقولهم وقلوبهم ، وليعلموا أن الحقائق الإلهية التى أخبر الحق تبارك وتعالى بها ، لا تتخذ من الأحلام القاصرة مقياسا لصدقها ، بل إن صدقها فى صدق مصدرها ، والإخبار بها . [1]

إن القرآن الكريم قد أشار إلى نماذج شاذة من البشر ، ضايقهم كثيرا ما جاء به الحق تبارك وتعالى على لسان نبيه الخاتم من حقائق ، تدمغ المعتقدات الباطلة وتسفه أحلام القوم الذين حاولوا تنكيس العلاقة الطبيعية بين « الإله » الحق و « المؤله » (الإنسان) « والمعبود الحق » و « العابد » حيث استساغت تلك الأحلام تأليه الأصنام وما فى مستواها ، وهى فى رتبة الموجودات أقل بكثير من الإنسان الذى ألهها . ويقال كذلك فى المعبودات . ولم يكن أمام هؤلاء إلا التشكيك فى مصدر الوحى . فتارة يتهمون النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما جاءهم به ليس من عند الله ، بل قالوا « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » (الفرقان : ٥) ويرد القرآن الكريم دعواهم بقوله « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما » (الفرقان : ٦) وأخرى بأنه قول شاعر أو كاهن ، فجاء الرد الحاسم فى قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » (الطور : ٢٩ -٣١) .

---

(١) يظهر أن هذا الإنكار طبع بعض البشر ، وقد ذكرنا مثل هذا الكلام فى الرد على منكرى النبوة فيما سبق .

وبالجملة فإن المحاولات التى أرادت أن تتحول بالنبوة عن طبيعتها الحقيقية التى مصدرها الوحى الإلهى قد باءت بالفشل . ولا شك فى أن الجدال الذى أظهره القرآن الكريم تجاه هؤلاء ، هو الذى يمكن أن يرد به اليوم على البقية من هؤلاء الطاعنين على النبوة ، إنهم أحفاد أولئك الأغرار الذى وقفوا من الحق موقف الرفض ، ومن المؤكد أن المرض النفسى والخلل العقلى من العلل التى تستوجب أن يقف الحق تبارك وتعالى مع أصحابها موقف الكاشف عن تهافت ما هم عليه ، يستوى فى ذلك من نزل فيهم القرآن مباشرة ، ومن يصابون بهذه العلل فى كل زمان . لذا نرى أن موقف الذين ينكرون ظاهرة الوحى من المحدثين والمعاصرين ، من المستشرقين وأضرابهم ، ليس هو الموقف العلمى ، ومهما تفننوا فى هذا الإنكار ، فإنه لا يحمل إلا معنى واحداً هو أنه إنكار وتكذيب بلا علم ، ومن المعلوم - منهجيا - أن التكذيب بلا علم كالتصديق بلا علم ، كلاهما مرفوض عقلا وشرعا ، فأما العقل فلأن ما جاوز البدهيات لابد أن يقام عليه الدليل إثباتا أو نفيا ، فإذا لم يكن كذلك ، أصبح الكلام من قبيل الدعاوى التى لا دليل عليها ، وأما شرعا فلأن القرآن الكريم قد أشار إلى هذه القضية فى رده على من كذب بالحق لما جاءه قبل أن يحيط به علما أو يعلم تفسيره على الوجه الصحيح ، كما جاء فى قوله تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ....» (يونس : ٣٩) .

إنه من السهل جدا أن يرفض الإنسان فكرة أو عقيدة ، ولكن الرفض موقف . يأخذ أحد شكلين : فإما الشكل العلمى المنهجى ، وهو الذى يقوم على أساس من معرفة مواطن الضعف والخلل فى الفكرة أو العقيدة المرفوضة ، بصورة تتفق مع الحقيقة والواقع ، وهو شكل محمود ومقبول ، وبفضله تقوم الأفكار والمعتقدات ويطرد العلم ويتقدم ، وإما الشكل الذى لا يمت إلى العلم بصلة ، وهو الذى يعتمد الرفض على غير أساس ، وذلك باختلاق أسباب ليست حقيقية لذلك الرفض . وهذا الشكل مرفوض ، وبه تتهدم أبنية العلم وصروحه ، وهو فى نفس الوقت يكشف عن نفسية وعقلية أصحابه .

بناء على ما تقدم يمكن أن نحكم على هؤلاء الذين ينظرون إلى ظاهرة « الوحى » بمنظار غير صحيح ، وبالتالى يحكمون عليها أحكاماً غير صحيحة . يستوى فى ذلك من يلبسها ثوب العبقريات فيزعم أن محمد صلى الله عليه وسلم - كمثل لإخوانه من الأنبياء - تفكر كثيرا ثم خرج على الناس بما يشعرهم بأنه موحى إليه [١] ومن يزعم أنه كان منفعلا مع البيئة والأحداث التى أحاطت به وبدعوته [٢] ومن يدعى أنه علم من غيره (بحيرا الراهب) الخ . لقد كان من حكمة العليم الخبير ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، أن يمسك الوحى بعد ما بدأ كنوع من الابتلاء والاختبار ، وليكون ذلك تأكيدا على أن الوحى مصدره إلهى ، واستفاض هذا الامر وعرف ، وظهرت أماراته على شخصية الداعى صلى الله عليه وسلم ، واختلف العلماء فى تفسير مدة الانقطاع ، أما الاجماع عليها فثابت بالقرآن والسنة . فمن القرآن قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ....» (الضحى ١ ، ٢) وهذه الآيات نزلت تبيانا لأسباب الانقطاع . وكذلك قوله تعالى : « يأيها المدثر قم فأنذر ..» (المدثر : ١ ، ٢) إنها صريحة فى استئناف الوحى بعد الانقطاع ، وهذه السورة هى التى نزلت بعد سورة القلم . وكون هذه الواقعة هكذا يعنى أن الوحى تعبير عن صلة « الموحى » بالموحى إليه وتفسيره ، بخلاف ذلك ضلال مبين .

ومن السنة ما جاء فى كتاب التعبير عند البخارى عن فتور الوحى قوله : « وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا - حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه ، تبدى له جبريل فقال : يا محمد : إنك رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه وتعز نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى ، غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك » [٣] وليس لنا أن نتكلم فى هذا المقام أكثر من هذا ، بعد أن عرفنا أن المواقف التى تنزل عن درجة المنهج العلمى ، لا ينبغى أن تناقش ، لأنه لا أساس لها . وحسبنا أنها تكشف عن نفسية وعقول أصحابها كما أشرنا .

(١) انظر حاضر العالم الإسلامى جـ ١ ص ٢٨ .

(٢) جولدزيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١١ .

(٣) صحيح البخارى : كتاب التعبير .

تفسير غريب للوحى :

الشيخ محمد عبده له بعض التفسيرات لبعض القضايا الدينية تجعل الباحث يجزم بأن الرجل كان الى جانب التفكير النظرى الفلسفى أقرب منه إلى جانب حقيقة ما جاء به الوحى فى تلك القضايا ، من ذلك مثلا : قضية المعاد وقدم العالم [1] والقضية التى معنا – قضية الوحى – وكان تعليق الشيخ محمد عبده على شرح الجلال الدوانى على العقائد العضدية ، مجالا لإظهار رأيه فى مثل هذه القضية . يقول فى تعريف النبى « قد يعرف النبى بأنه إنسان فطر على الحق علما وعملا ، أى : بحيث لا يعلم إلا حقا ولا يعمل إلاحقاً مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة ، أى لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر ، ولكن يحتاج إلى التعلم الإلهى ، فإن فطر على دعوة بنى نوعه إلى ما جبل عليه ، فهو رسول أيضا » [2] . وكلام الشيخ فى أن الاستعداد الفطرى الذى عليه بعض البشر ، هو الذى يؤهلهم لاستحقاق الرسالة وقد اختفت من كلامه الصورة الحقيقية لمعنى الوحى ، بحيث يمكن أن يقتصر على بعض أنواعه ، وهو الإلهام ، وليس ذلك هو الغالب عليه . من ثم جاء تصويره للنبى وللوحى بصورة لا تعطى القضية حقها ، كما أن كلامه يركز على قضية « الفطرة » التى يغيب معها « الاصطفاء » الذى هو لب قضية النبوة . نعم إن الله سبحانه وتعالى بحكمته وبعلمه لايختار إلا من يعلم أزلا أنه سيقوم بمهمة النبوة خير قيام ، وهو يؤهل هؤلاء بنوع خاص من التأهيل ، و كل هذا ينفى أن يكون لدى المختار لهذه المهمة مؤهلات خاصة بها يستحق الرسالة ، فإن هذا يفتح الباب أمام الأدعياء ، كما يحول الرسالة عن كونها اصطفاء ، إلى كونها استحقاقا واكتسابا .

---

(١) راجع رأى الشيخ محمد عبده فى هذه القضية فى كتاب : الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين للمرحوم الدكتور سليمان ص ١١ ففيها يظهر أنه أدخل فى تفسيره بالمعاد الروحانى أكثر الفلاسفة القائلين بذلك ، وكذلك القول فى قدم العالم .

(٢) الشيخ مصطفى صبرى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين جـ ٤ ص ٦٠ .

أنواع الوحى :

يقرر جمهور علماء العقيدة أن الوحى أربعة أنواع :

الأول : الرؤيا الصادقة ، التى تحدث للموحى إليه فى النوم ، و هى أول ما بدئ به رسولنا صلى الله عليه وسلم ، كما جاء فى البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » [1] .

الثانى : التكليم المباشر بلا واسطة : وقد وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام فى ليلة المعراج ، كما جاء فى سورة النجم ، فى قوله تعالى : « ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى » (النجم : ٨-١٠)كما حصل ذلك أيضا لنبى الله موسى عليه السلام ، كما جاء فى قوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما » (النساء : ١٦٤) وجمهور العلماء على أن الكلام هنا حقيقى وبلا واسطة ، ويؤكدون كلامهم بأن هذه الآية قد جاء المصدر فيها تأكيدا للفعل أو الحديث ، ولم يجىء الخطاب بهذه الصيغة إلا لتأكيد المعنى المراد حقيقة من الفعل ذاته حتى لا يصار إلى المجاز . وقد مر بنا سلفا أن الله سبحانه وتعالى يخلق لدى الأنبياء الموحى إليهم بهذا النوع ، القدرة على فهم خطابه سواء أكان المراد بالكلام ، المعنى النفسى ، أم الحروف والأصوات .

الثالث : الإيحاء بواسطة الملك . وهذا النوع هو الغالب فى كيفية التلقى عن الله تعالى ، وقد مر بنا - أيضا - أن اتصال أمين الوحى بالنبى يأخذ ثلاثة أشكال : فإما أن يظل أمين الوحى على ملكيته ، وفى هذه الحالة ، يخلق الله تعالى للنبى استعدادا به يفهم خطابه ، وإما أن يتشكل فى

---

(١) البخارى : باب بدء الوحى - مسلم : كتاب الإيمان . باب بدء الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صورة بشر ، وإما ألا يكون هذا ولا ذاك بل يسمع النبى صوتا كصوت الجرس ، خفيفا أو شديدا ، يفهم منه أنه وحى الله إليه . وقد جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين سأل عن كيفية تلقيه للوحى : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقوله .. » وقد قال الله تعالى فى حق رسولنا صلى الله عليه وسلم : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » (الشعراء : ١٩٣- ١٩٥).

الرابع : الإلهام ، وهو القذف فى القلب ، مع تيقن النبى أن الملقى فى قلبه إنما هو وحى الله تعالى ، وليس من باب الخواطر أو السوانح ، التى تأتى غير الأنبياء .

وقد جاءت الآية (٥١) من سورة الشورى لتقرر أنواع الوحى ، حيث قال الله تعالى فيها: « و ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم » والمدقق فى الآية يرى أنها صدرت بلفظ « الوحى » ثم التكلم من وراء حجاب ثم الوحى بواسطة الملك . وهذا يعنى أن المراد بالوحى أولا : هو : الرؤيا الصادقة والإلهام . وبهذا تكون الآية قد أشارت إلى الأنواع الأربعة التى ذكرناها .

الوحى أمر ممكن فى ذاته :

أشرنا فى بحث سابق ، حين رددنا على منكرى النبوة ، أن الوحى أمر ممكن فى ذاته لأنه لا يترتب على القول به مستحيل ، ومن قال بخلاف ذلك فليعرفنا وجه الاستحالة بالمعنى الحقيقى ، لا بالمعنى الوهمى . فأما وجه إمكانه ، فلأنه ليس بمستنكر على الله تعالى ، أن يخلق لدى بعض عباده استعدادا خاصا يتميزون به عمن سواهم ، به يستطيعون تلقى الوحى ، كما أن وجود الملائكة ليس أمرا مستحيلا فى ذاته كذلك ،

فإذا انضم إلى هذا وذاك ، أن الله سبحانه وتعالى بقدرته التامة ، يستطيع أن يتصل ببعض عباده لمهمة كبرى كالرسالة بأى أنواع الاتصال ، لكانت القضية كلها من قبيل الممكن الذى لا يجوز إنكاره . وهذا القدر هو الذى يكون من حق العقل أن يناقش فيه فإذا جاء النص الصحيح وقرر وقوع الممكن فى ذاته ، فالأمر إلى ما جاء به ، ولا مناقشة فى ذلك ، لأن الشك فيه مع الاعتراف بأنه ممكن ذاتا يكون مناقضة صريحة للعقل والنقل معا .

ولعل من أهم الأمور التى ينبغى توضيحها هنا أن الاستعداد المشار إليه أنفاً ينبغى أن يرتبط بمصدره الحقيقى ، وهو الله سبحانه وتعالى ، والذى دفعنى إلى تأكيد هذا المعنى أن بعض المفكرين قد تهاونوا فى تحرير الألفاظ فى هذه القضية ، مما يمكن أن يكون مدخلا للقول باستحقاق الرسالة أو النبوة ، على الوجه الذى بيناه آنفاً عند حديثنا عن تفسير الوحى لدى الشيخ محمد عبده ، ويؤكد هذا ، ما عليه المحققون من أن النبوة اصطفاء لا اكتساب ، وهذا ما سنبينه .

النبوة هبة واصطفاء وليست اكتسابا :

النصوص الدينية ذكرت تلك القضية على وجه لا يحتمل التأويل ، ففى القرآن جاء قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » (آل عمران : ٣٣) وهذه الآية شاملة لجميع الأنبياء تقريبا لأنها تحدثت عن آدم ونوح ، ثم آل إبراهيم كإسحق ويعقوب وأعقابهما وكذا إسماعيل الذى انحدر من أعقابه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وهناك آيات أخرى تحدثت عن القضية على سبيل الخصوص ، كقوله تعالى فى حق « يوسف » عليه السلام « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ......» (يوسف : ٦) وقال فى شأن موسى عليه السلام : « إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ... » (الأعراف : ١٤٤) « ولتصنع على عينى » (طه : ٣٩) .

وإذا كان هذا هو الحق فى القضية التى معنا ، فإن كل رأى يذهب خلاف هذا المذهب يعد رأيا باطلا . ذلكم لأن القول بأن النبوة اكتساب يفسد الأساس الذى تقوم عليه ،

لأن الحق سبحانه وتعالى هو المحيط علما بحقيقة الطرفين : طرف المرسل إليهم ، ومدى حاجتهم إلى الرسالة ، وطرف المرسل ، وكيفية تأهيله لتحمل عبء الرسالة ، كما أن هذا القول يفتح الباب أمام الأدعياء ، إذ كل من تطلعت نفسه إلى أن يكون له دور اجتماعى ، يمكن أن يدعيها ، وقد حدث ذلك فى صدر الإسلام ، كما حدث أيضا فى العصر الحديث .

الفلاسفة والنبوة :

كان « الفارابى » أظهر فلاسفة الإسلام الذين تحدثوا فى النبوة ، وأقاموها على دعامة قوية ميتافيزيقية ونفسية . وكان تفسيره لها على هذا الشكل ، موقفا علميا أمام ما أثاره كل من ابن الراوندى و « الرازى » من شبهات تشكك فيها .

إن الفارابى يرى أن الإنسان ، متى كان ذا مخيلة رائقة ، لا تستولى عليها الشواغل البدنية ، فإنه يستطيع أن يرقى بنفسه حتى يصل إلى العقل الفعال ، المنتقش فيه كل المعلومات فيكون له بذلك نوع من العلم الذى يمكن أن ينبئ به ، فيأتى الواقع بتصديقه .

ومن نظرية الأحلام عند أرسطو ما يصح أن يكون أساسا لتفسير النبوة كذلك ، وقد تبعه فى ذلك من تحدث فى هذه القضية ، ومن هؤلاء ، حجة الإسلام الغزالى ، فقد عقد لها فصلا فى كتابه « المنقذ من الضلال » لم يزد فيه على ما قاله الفارابى شيئا .

والذى يمكن أن يؤخذ على التفسير الفلسفى للنبوة ، أنه جعل الأساس فيها هو « المخيلة » القادرة ، حتى تتيح لصاحبها أن يتخيل ما يشاء ، إن لم يكن فى يقظته ففى منامه . وحسب هذا التفسير ضعفا أن يكون التخيل وسيلة للاتصال بالعقل الفعال ، ومن المعلوم أن طريق الاتصال له أربعة أنواع على الوجه الذى ذكرناه من قبل ، وهذه الطرق قد بينتها الآية الكريمة من سورة الشورى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ...» وليس فيها ما يدل على أن لقوة التخيل مدخلاً فى تفسير النبوة ،

نعم إن الإلهام أو القذف فى الروع من أنواع الاتصال ، وكذلك الرؤيا الصادقة ، ولكن الوسيلة إلى ذلك كله ، هو شفافية المؤهل للرسالة ، تلك التى جاءته من عند الله سبحانه وتعالى ، لا عن اجتهاد منه . ولا شك فى أن القول بالمخيلة كأساس للاتصال هو الذى أظهر الضعف فى تفسير الفارابى لها ، يضاف إلى ذلك أنه لم يقل أبدا شيئا عن كون النبوة اصطفاء واجتباء ، بل تتوقف على قوة « التخيل » وهذا يعنى أنها مكتسبة ، وهو ما لا يرضى به الإسلام .

النبى والفيلسوف :

المدقق فى نظرية الفارابى فى النبوة ينتهى إلى أن الرجل يرى أن كلا من النبى والفيلسوف يأخذ من معين واحد ، ولا يأبه كثيرا بالفرق بين الطريقين : المخيلة والقوة الناطقة ، طالما أن المصدر واحد ، ومن ثم فإن النبى والفيلسوف يكونان على درجة واحدة من حيث الاتصال . ويظهر أن الفارابى شعر بأن هذا القول قد يصطدم بمشاعر الجماهير ، لأن التسوية بين طريقى المخيلة والقوة الناطقة ، وبالضرورة بين النبى والفيلسوف ، لا يتقبل فى البيئة الإسلامية ، لذا نراه قد قرر فى بعض النصوص أن النبى يجوز أن يصل إلى العقل الفعال عن طريق العقل . وفى تقديرى أنه لم يحل الإشكال ، بل ظل قائما ، وإن كان هذا القول أخف من سابقه ، لأنه اعتراف بأن القوة المتخيلة فى إدراكها للمعلومات أقل من القوة العاقلة ، وهذا يعنى على التفسير السابق أن النبى أوفى من الفيلسوف . وأما تفسيره الأخير فيجعلهما متساويين .

والحق أن كلام الفارابى هنا ليس صحيحا ، لأن التسوية بين النبى والفيلسوف مما لا يقبله العقل . وليست وحدة المصدر - إن سلمنا بقوله بأن العقل الفعال هو مصدر المعلومات لكل من النبى والفيلسوف - وحدها يمكن أن تكون مبررا للتسوية بين العلوم التى يدركها كل منهما . فأقل ما يمكن أن يقال هنا : إن النبى يدرك المعلومات بأحد الوسائط المعروفة ، وهى أنواع الوحى ، وهى كلها معصومة من الخطأ والزلل ، ذلكم لأن المعارف التى يحصل عليها النبى ليست خاصة به ، كما هو حال الفيلسوف بل هى منهج إلهى مقدس ، جاء كى يبلغه إلى من أرسل إليهم .

إن طريق التلقى وكذا طريق البلاغ عند النبى ، كلاهما معصوم بعكس الحال عند الفيلسوف ، والنتيجة الضرورية لذلك : أن النبى غير الفيلسوف . والقول بخلاف ذلك ليس صحيحا .

ولو ألقينا نظرة على تاريخ الفلسفة ، لما وجدنا لها خطا واحداً يسعى بالإنسان إلى غاية محددة ، بل هى أنساق فكرية متباينة ، غايتها ذاتية بحتة ، بينما نرى طريق النبوات واحدة والغاية واحدة ، هى إقامة البشر على طريق الحق .

ويمكن أن يقال مثل هذا الكلام عند المقارنة بين النبى والمصلح الاجتماعى أو السياسى الخ فالنبى بجانب دعوته إلى قمة العقيدة - وهو التوحيد - الذى يعد مدخلا لكل ما بقى من حياة الإنسان مما يحتاج إلى إصلاح ، نراه يدعو إلى علاج كل الرذائل الموجودة فى المجتمع الذى جاء إليه ، بطريق الوحى المعصوم ، وبإخلاص أشد من إخلاص المصلحين الآخرين ، وبتأييد من الله أكثر ، بينما نرى الحركات الاصلاحية غالبا ما تتجه إلى أمور جزئية ، وإذا كانت الأمراض المعنوية والمادية التى تكون فى مجتمع ما ينبغى أن ينظر إليها نظرة كلية شاملة ، وترتيب علاجها من الأصول إلى الفروع ، فإن حركات الإصلاح - غالبا- لا تتخذ هذا المنهج سبيلا لها ، من ثم كانت إصلاحاتها غير شاملة ، كما أن استجابة المجتمعات للمصلحين ، لا يمكن أن تكون فى مستوى استجابتهم للأنبياء - بصرف النظر عن الإعراض والتحدى ، الذى يقف أمام أصحاب الرسالات ، ذلكم لأن هذه المسألة مشتركة بين النبى والمصلح على السواء فالقاعدون من أصحاب النفوس الخبيثة أمام كل دعوة إلى الإصلاح ، موجودون فى مجتمعات الأنبياء كوجودهم فى مجتمعات المصلحين ، سواء بسواء .



الفصل الثالث
وحدة الرسالات السماوية فى
أصول العقائد والعبادات والأخلاق

الرسالات الإلهية واحدة من حيث أصولها ، سواء ما كان منها متصلا بأساس الدين ، الذى يقوم عليه بناؤه ، أم ما كان متصلا بالعبادات التى تشكل وسيلة الاتصال الروحى بين العبد وربه ، أم كان متصلا بأصول الأخلاق والآداب والمعاملات . وباختصار : كل مايتصل ببقاء الإنسان فى وضعه الطبيعى ، الذى لاعوج فيه ، كان واحدا فى جميع الرسالات . وقد أطلق القرآن الكريم على هذه «الثوابت » اسم « الدين » فقال تعالى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك .. » (الشورى : ١٣) وقال : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ... » (النساء : ١٦٣) . وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن الرسالات السماوية واحدة . ومن ثم رأينا القرآن الكريم يطلق عليها اسم « الإسلام» بمعنى : الانقياد والطاعة بعد الاعتقاد الصحيح ، لله رب العالمين قال تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام ... » ثم بين أن اختلاف الذين أوتوا الكتاب إنما جاء منهم على غير أساس من الدين : « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ... » وبين أن هذا كفر بمنهج الله : « ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » (آل عمران : ١٩) .

وأما الأمور التى قد تختلف باختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة ، فإن الأمر الطبيعى أن تجىء الرسالات بمعالجتها حسب مقتضيات الأحوال . وإذا نظر إليها بهذا الاعتبار فإنها تكون متعددة. وليس بين القولين تعارض ، لاختلاف الاعتبارين.

ويؤكد القضية بالاعتبار الأول مايأتى :

أولا : وحدة مصدر الرسالات الالهية ، وهو « الحق » سبحانه وتعالى .

ثانيا : وحدة الأصل الإنسانى ، وهذا يقتضى أن يكون ما به يظل الإنسان فى

رتبة الإنسانية واحدا كذلك . ومن المسلم به أن الاعتقاد الصحيح فى مقدمة الأمور التى يتوقف عليها صلاح الإنسان .

وإذا تقرر هذا ، فاعلم أن ماظهر بين الأديان السماوية من خلاف ، فى تلك الأصول التى أشرنا إليها ، فإنما يرجع إلى أسباب تتصل ببعض المنتسبين إلى تلك الأديان ، ممن طاوعتهم عقولهم القاصرة ، ونفوسهم المريضة ، لأن يتدخلوا فيها بالتحريف والتبديل . ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن نفرا من أتباع هذه الأديان ، لم يرقهم أن تظل على صفائها ، كما نزلت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنها تخالف أهواءهم الباطلة ، حيث جاءت لتعالجها وتقيمها على الطريق الصحيح، ولكنهم أبوا إلا أن يظلوا مرضى ، من ثم ردوا ماجاءهم به أنبياؤهم، بل لم يقفوا عند الإعراض وحده ، بل تخطوه إلى تكذيب هؤلاء وتقتيلهم، قال تعالى : « ... أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (البقرة : ٨٧) .

كما بين القرآن الكريم حقيقة ماكانت تنطوى عليه التوراة من مضمون وأهداف ، وكذا الحال بالنسبة للإنجيل ، فقال : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ... » (المائدة : ٤٤) وقال : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لمابين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لمابين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين » (المائدة : ٤٦) ، ثم عقب على بيان مضمون وأهداف هذين الكتابين الكريمين اللذين نزلا من عند الله بقوله مخاطبا رسوله الخاتم محمدا صلى الله عليه وسلم : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ... » (المائدة : ٤٨) .

تلك صورة واضحة المعالم ، ظاهرة الدلالة فى العلاقة بين الكتب الثلاثة الرئيسية : التوراة - الإنجيل - القرآن ، وبالتالى بين الرسالات الثلاث : اليهودية

- المسيحية - الإسلام . إنها الوحدة التامة من حيث الموضوع في أصوله وعمومه والهدف والغاية . وهى الهداية والأخذ بيد الأتباع إلى السداد والرشاد متى انفعلوا بمحتوى هذه الرسالات الانفعال الصحيح .

وفي الوقت الذى تبرز فيه وحدة الأصول والأهداف ، يظهر أن ما اعترى الدينين السابقين على الإسلام من انحراف ، إنما مرده إلى العبث الذى قام به بعض أتباعهما ، كما ذكرنا ذلك قبلا ، لأنه يجل جناب الحق عن أن تتعارض توجيهاته وما يطب به لبنى البشر ، إذ لا يكون التعارض أو القصور إلا لذى القدرة والعلم المحدودين ، والله سبحانه وتعالى مطلق الصفات .

بعد هذا نقول : لا ينبغى أن يفهم من قولنا السابق عن وحدة الرسالات فى أصولها وأهدافها ، أنه ليس بينها فوارق مطلقا . إذ الواقع يرينا أن أشكال الأمراض الاجتماعية وأسبابها تختلف من بيئة إلى أخرى ، وإذا كانت الغايات للرسالات الإلهية إنما تتخذ من تلك الأمراض محورا لها للعلاج ، فإن النتيجة لذلك، أن تختلف الرسالات من هذه الجهة . إن المجتمع الإنسانى يأخذ طريقه إلى غاياته وأهدافه بطريقة متدرجة ، وما أشبه أمم الأرض فى نشأتها وتطورها بالوليد الذى تتعدد مراحل نموه وتطوره . وهذا يعني أن الوسائل التى يحتاجها فى كل مرحلة من مراحل حياته تختلف عن الأخرى ، وإن كانت مطالبه الضرورية واحدة . وهذا الذى نقوله بالنسبة للرسالات الإلهية ، إنما يظهر في التشريعات التي تنظم مجتمعات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

إن القرآن الكريم قد تحدث عن الجوانب الاجتماعية السيئة التى كان عليها أقوام الأنبياء بما يدل على أنها كانت مختلفة في هذا المقام ، كما اختلفت كذلك فى درجات الرقى والتقدم ، من بيئات رعوية زراعية إلى أخرى صناعية ، إلى ثالثة تجارية ، ومما لاشك فيه أن القوانين التى تنظم هذه البيئات ينبغى أن تكون استجابة للواقع الذي جاءت لتنظمه ، حتى تنقله إلى واقع صحيح . وهذا هو الجانب العملى من جانبى الإصلاح العام ، الذى تجىء الرسالات الإلهية لتأكيده ، فالجانب

الاعتقادى هو أحد الجانبين ، وهذا لا خلاف فيه بين قوم وقوم ، وبين بيئة وأخرى ، وهو الجانب الأهم بالإصلاح ، لأنه أساس الدين كما أشرنا ، ثم يأتى الجانب العملى التطبيقى ، الذى يراعى فيه طبيعة مايقتضى المعالجة .

هذه المعانى قد بينها القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، حيث قرر فى بعض آياته قضية وحدة أصول الأديان ، بل إن الآية التى ساقت هذه القضية ، قد استخدمت اللفظ المفرد ، الذى يؤكد تلك الوحدة : « إن الدين عند الله الإسلام » وقوله : «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وفى هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد [1] » .

أما من حيث ماتقتضيه الفوارق البيئية وتغير الزمان والمكان فقد أشار إليه القرآن الكريم بقوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ... » (المائدة : ٤٤) ولعل الخلاف فى الشرعة والمنهاج مع وحدة الأصول بين الأديان ، هو المسوغ لمن يقول بأن الشريعة اللاحقة تنسخ الشريعة السابقة ، وهذا كلام صحيح ، لأن العمل بتشريع ومنهاج خاص ببيئة ما ، فى زمان ومكان محددين ، لايفيد فى بيئة أخرى ، وفى زمان ومكان آخرين ، وقد قال المعتزلة وجمهور الأشعرية بذلك ، ويعنون به هذا المعنى . وهو أن النسخ لايرفع حكما ثابتا ، إنما يبين ارتفاع مدة شريعة من الشرائع [2] .

الإيمان بجميع الرسل :

إذا كانت الرسالات واحدة من حيث مصدرها وهدفها وأصولها - كما ذكرنا - فإن هذا يقتضى عقلا الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام وبما جاءوا به من رسالات . ولهذا المعنى قرر القرآن الكريم وجوب الإيمان بجميع الرسل ، قال تعالى

---

(١) متفق عليه .

(٢) الجوينى : الإشاد ص ٣٢٨ .

مبينا حقيقة إيمان الرسول الخاتم وأتباعه : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » (البقرة : ٢٨٥) وقال سبحانه : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (آل عمران : ٨٤) .

والمدقق فى المقام الذى نتحدث عنه يرى أن الجانب الموضوعى فيه هو الأساس في تقرير الوحدة بين الرسالات السماوية من حيث أصولها . وهذا يعنى أن التفاضل بينها من هذا الجانب غير وارد للاعتبارات التى سقناها من قبل ، وهى : وحدة المصدر - وحدة الهدف - وحدة الأصول . وإذا كان الأمر هكذا فإن التفاضل بين الأنبياء والرسل ، إنما يكون لسبب آخر ، وفى تقديرى أن من أظهر الأسباب فى ذلك الذى يعود إلى مدى مايتحمله الرسول فى سبيل دعوته من أذى وجبروت من المعرضين عن الحق ، ولعل هذا مايشير إليه قوله تعالى تعزية لرسولنا صلى الله عليه وسلم : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل... » . ثم لامناص من القول بأن من أسباب التفضيل مايعلمه الحق سبحانه عن كل رسول ، مما لايمكن أن يدخل تحت أى معيار بشرى . وإذا كان الأمر بين المتفاضلين فيما دون الرسالات لايقبل عقلا وشرعا ، مالم يقم على معيار دقيق ، ينأى عن أى اعتبار سوى المعيار الذى به يتحقق التفاضل ، فإن من الأولى أن يكون ذلك فى هذا المقام . والذى يفاضل ، هو الحكم العدل ، العليم الخبير ، الذى تقوم أحكامه كلها على العدل المطلق ، قال تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات ... » (البقرة : ٢٥٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه وأول شافع وأول مشفع » [١] .

وليس هناك تناقض بين ماجاء به هذا الحديث وأحاديث أخرى فى حكمه ، وبين

(١) رواه مسلم وأبو داود وأحمد عن أبى هريرة .

قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تفضلونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بساق العرش ، فلا أدرى هل أفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » ؟[1] .

والسبب فى عدم التناقض ، أن الحديث الأخير كان لوروده سبب غير تقرير قضية المفاضلة بين الرسل عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام .

لقد ذكرت كتب السنة سبب ورود هذا الحديث ، وهو أن يهوديا أقسم قائلا : لا والذى اصطفى موسى على سائر البشر ، وكان ذلك أمام مسلم ، فلطمه، وقال له : أتقول هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ؟ فذهب اليهودى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكو له ماحدث من المسلم ، فقال الحديث المذكور . وهذا يعنى أنه قيل فى مناسبة خاصة،كان القصد منها بيان أن الأنبياء جميعا إخوة. ولم يكن المقام - حينئذ - مقام تقرير قضية التفضيل بينهم .

وقد زعم قوم من الروافض أن الأنبياء والأئمة متساوون فى الدرجات ولكل منهم من الفضل فى دوره ما للآخر فى دوره [2]. وهذا كلام لا أصل له ، لا من العقل ولا من النقل . من ثم لايعتد به .

وبهذه المناسبة جرت قضية التفضيل بين الأنبياء والملائكة - كذلك - بين علماء الكلام ، وكان الرأى الأرجح فيها تفضيل الأنبياء ، وهذا حق .

وأما الحسن البجلى فقد فضل الملائكة على الأنبياء . وقد وافقه على هذا القول بعض القدرية الذين ذهبوا إلى أن الأنبياء أفضل من الملائكة الذين عصوا ربهم كهاروت وماروت . وأما من لم يعص ربه من بقيتهم فإنهم أفضل من الأنبياء [3].

وقد استدل هؤلاء على ماذهبوا إليه بقوله تعالى : « لن يستنكف المسيح أن

---

(١) الحديث مخرج فى الصحيحين .
(٢) البغدادى : أصول الدين : ص ١٦٥ .
(٣) نفس المصدر ص ١٦٦.

يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون » (النساء : ١٧٢) فقد فهموا أن الآية تفيد الترتيب المتصاعد فى الجنس والطبيعة ، والحق أن الجزم بذلك غير صحيح ، لأن هذا الكلام قد يقال على المتساويين ، كما قد يكون العكس صحيحا[1]. وعلى كل حال فالمسألة ليست مهمة إلى حد الإيغال فيها .

ترتيب الرسل والرسالات :

بداية الرسالات الإلهية ، كما هو ثابت فى القرآن الكريم كان برسالة نوح عليه السلام . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ... » (النساء : ١٦٣) ولكن الإجماع على أن أول الأنبياء ، هو آدم عليه السلام وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم . وهو إجماع من يعتد بهم من أهل العلم ، نقول هذا لأن هناك من خالف فى ذلك ، ولا يعتد بخلافهم ، حيث ذهب بعض الصابئة إلى أن آخر الأنبياء هو شيث (إدريس عليه السلام) ، كما زعمت بعض طوائف المجوس أن أول البشر وأول الأنبياء هو « كيومرث » وهذا زعم - أيضا - لا أساس له .

وليس هناك تعارض بين كون نبينا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وبين نزول عيسى فى آخر الزمان ، لأن نزوله سيكون مقترنا بدعوته قومه إلى الإسلام ، وكسر الصليب ، الخ وهذا الموضوع سنوفيه حقه فى الفصل الذى سنتحدث فيه عن ختم الإسلام للرسالات الإلهية .

وأما مابين آدم ومحمد عليهما السلام من الرسل والأنبياء فهم كثيرون ،ليس بين أيدينا من النصوص الصحيحة مايدل على إحصائهم ، فالقرآن الكريم بين أن من الرسل من قص الله علينا قصصه ، ومنهم من لم يكن كذلك، والأحاديث التى وردت في هذا السياق ليست صحيحة . إذن لامناص من القول بوجوب الإيمان بمن ورد ذكرهم فى القرآن الكريم على سبيل التفصيل ، وكذا ما جاءت به السنة

(١) نفس المصدر .

الصحيحة فى هذا المقام ، وأما على سبيل الإجمال فيجب الإيمان كذلك بأن الله سبحانه وتعالى بعث إلى كل تجمع بشرى رسولا كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

وأما من ورد ذكرهم على سبيل التفضيل ، فقد جمعت آية واحدة من آيات القرآن ثمانية عشر رسولا كريما منهم ، وذلك فى قوله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » (الأنعام : ٨٦) فالمذكورون فى الآيات ثمانية عشر رسولا . وأما من ذكر فى غيرها فهم : محمد - آدم - صالح - شعيب - هود - إدريس - ذو الكفل .

إن هؤلاء جميعا يجب الإيمان بهم على سبيل التفصيل ، وأما الذين لم يرد ذكرهم تفصيلا فيجب الإيمان بهم إجمالا كما ذكرنا ، وكما يشير إليه قوله تعالى : « ... والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ... » (البقرة : ٢٨٥) .لأن إنكار أحدهم أو بعضهم تكذيب للمرسل ، وهذا قدح فى الإيمان نفسه ، إذ لا يكون الإيمان صحيحا ، مالم يقم على التصديق الجازم المطابق للواقع ، الناشىء عن دليل ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة ، وجوب الإيمان بجميع الرسالات السماوية ، دون تفريق .

تنبيه :

يتصل بهذا الفصل بطريقة مباشرة ، مسألة ينبغى التنبيه عليها . تتعلق بوحدة الرسالات السماوية من الناحية الموضوعية فى مقام الأصول العامة على الوجه الذى ذكرناه .

وأبدأ فأقول : تجرى فى يوم الناس هذا ، دعوات قوية ، سافرة أحيانا ومقنعة أحيانا أخرى إلى وحدة الأديان ، ويمهد لذلك بالحوار بينها ، ويختار أصحاب هذه الدعوات اسم : الدين الإبراهيمى ، ليكون موحدا لكل الأديان ، تنصهر فيه جميع عناصرها ، وتذوب فيه مابينها من فوارق ، وإنما اختير هذا العنوان ليكون علما على الدين « الموحد » لأن إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء الذين كانوا أعقابا له من ذرية : إسحق ويعقوب أو من ذرية إسماعيل .

والحق أن الدعوة إلى دين واحد صحيح ، نزل من عند الله تبارك وتعالى ، ليكون هو الأساس والمعيار الذى فى ضوئه تتحد ماهيات الأديان الأخرى ، وفي إطاره يتحدد الاعتقاد والعمل الصحيحين ، مسألة دعى إليها القرآن الكريم من قبل ، حين قال لأهل الكتاب : « ... تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ..» (آل عمران : ٦٤)

بل إن القرآن الكريم قد ألزمهم الحجة حين كانوا يحاجون فى إبراهيم مستندين على مافى كتبهم من تحريف وتبديل ، فقال : « ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعد أفلا تعقلون ... » (آل عمران ٦٥) ثم يختم المشهد المبارك بقوله : « ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين » (آل عمران : ٦٧) حقا إن ادعاءهم بأن إبراهيم يهودى أو نصرانى أمر يدعو إلى التعجب ، وإلا فكيف نفسر أنه كان كذلك قبل أن توجد اليهودية والنصرانية ؟ إن عجز الآية الأخيرة ، يكشف عن عقيدة القوم - اليهود والنصارى - التى كان السبب فيها تصرفاتهم فى الكتابين على غير ماشرع وما أحل الله ، حتى غدا الشرك بالله تعالى هو الطابع العام لتلك العقيدة . ألم يقل القرآن عنهم فى مقام آخر يتصل بهذا الموضوع : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحدا سبحانه ..»؟ ثم ألم يكشف عن عقيدتهم الباطلة المشركة ، حين قالت اليهود عزير ابن الله

وقالت النصارى المسيح ابن الله ؟

كل هذا الذى تقدم يدعونا إلى هذا السؤال الذى يحسم القضية : هل الدين الإبراهيمى المختار ليكون رمزا للأديان كلها تتوحد فى ظله ، هو الدين الصحيح الذى هو الإسلام كما بينته الآية السالفة الذكر ، التى ردت على ادعاء كل من اليهود والنصارى نسبة إبراهيم إليهم ؟ « ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » ؟ أو إبراهيم التوراة والإنجيل ؟ وبتركيز أكثر : هل إبراهيم القرآن الكريم أو إبراهيم الكتابين السابقين عليه هو المراد ، مع استصحاب ماحدث لكل من هذين الكتابين ؟ .

إن إبراهيم القرآن الكريم هو الرجل « الأمة » القانت الحنيف المسلم ، الطاهر ودينه وملته هو الإسلام . وأما إبراهيم الكتابين : التوراة والإنجيل ، وبالتالى دينه وعقيدته فليس كذلك . والحق أننا نرحب بكل دعوة صادقة إلى الحوار والتفاهم والاجتماع على كلمة سواء هى كلمة الحق ، ولن يكون ذلك إلا فى الإسلام دين الأنبياء جميعا كما ذكرنا قبلا . أما إذا كان الهدف من وراء هذه الدعوة شيئا آخر غير ما ذكرنا - ولا نعتقد إلا أنه كذلك - فإن الإسلام يرفضها بكل إباء ، إذ كيف يسمح الحق لما ليس حقا أن يكون هو الإطار الذى فيه يذوب ، والمعيار الذى من خلاله يكون الحكم على المعتقدات والأفعال ؟ .

إننا لا ننفى أن يكون وراء الدعوة إلى الدين الإبراهيمى ، بعض المنظمات المشبوهة التى تعمل لصالح اتجاهات سياسية عنصرية ، والتى تريد أن تتخذ من الدين وسيلة ، للوصول إلى أهدافها ومطامحها . ومن المؤكد لدى أصحاب هذه المنظمات والمؤسسات أن وسائل الاختراق كثيرة ، وعلى رأسها الجانب الدينى .

إن أمتنا ينبغى أن تأخذ حذرها من مثل هذه الدعوات ، مهما لبست من مسوح الإخلاص والدعوة إلى الوحدة ، فقد علمتنا التجارب المريرة أن الصراع بين الحق والباطل مسألة مستمرة . وقد بين القرآن الكريم أن اليوم الذى يرضى عنا فيه أعداؤنا من اليهود والنصارى ، هو ذلك اليوم الذى نتنازل فيه عن ملتنا ، ونتبع

ملتهم ، وصدق الله العظيم حيث قال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ... » (البقرة : ١٢٠) فهل نستطيع بعد ذلك أن نعى توجيه القرآن الكريم ، ولا نجرى وراء سراب السياسات الخرقاء ، التى أوردت أمتنا موارد التهلكة ؟ .

إن المشتركين فى الدعوة إلى الدين الإبراهيمى أحسبهم مابين متحمس صادق فى تحمسه - وقد يكون من هؤلاء المفكر الفرنسى المسلم الذى هداه الله مؤخرا إلى الإسلام « رجاء جارودى» ، وما بين داعية إليها بخبث ودهاء يهدف من وراء دعوته إلى إذابة الفوارق بين الأديان ، ولا شك فى أن بينهما فوارق ، بعد التحريف والتبديل الذى أصاب اليهودية والمسيحية ، وإذا كان سلطان القوة - فى جميع الاتجاهات - يفرض نفسه ، فإن التركيز سيكون على ذوبان الإسلام فى غيره ، ولا ندرى شيئا عن ماهية الدين الذى فى ذهن هؤلاء ، غير أن الشواهد التى لاحظناها من قراءتنا لبعض الأعمال لرجال الفكر اليهودى ، وعلى رأسها ، « بروتوكولات حكماء صهيون » ترينا إلى أى حد كيف تتخذ الدعوات إلى وحدة الأديان ستارا يخفى وراءه أهدافاً سياسية ، ليست لصالح الإنسانية ، بل لصالح قوى بعينها ، وما الماسونية العالمية إلا أحد وجوه تلك المخططات المدمرة .

إن من له دراية بالماسونية وما فى مستواها من المنظمات والمؤسسات يدرك التلاقى فى الفكرة مع هذه الدعوة الأخيرة . مما يوحى بشىء غير قليل من الشك . غير أننا كأصحاب دين قوى فى ذاته لانملك رفضها مالم يتأكد لدينا ماوراءها من أهداف وغايات لايرضى عنها ديننا .

والذى يدعونا إلى عدم إغلاق الباب فى وجه هذه الفكرة ، أنه من الممكن أن يكون لدى الداعين إليها من الصدق والإخلاص مايجعلها مقبولة ، وقد يكون وراء هذا الصدق وهذا الإخلاص مايشعر به كل مصلح مما تعانى منه البشرية اليوم من ويلات ، من جراء ابتعادها عن الدين الصحيح ، الذى يطب لأدوائها، وما أكثرها. والذى تنتظر منه الإنسانية اليوم ، بل وفي كل يوم أن يكون المخلص لها من

أزماتها ، تلك الأزمات التى كادت تحول الحياة الانسانية إلى صحراء موحشة ، فى ظل عدم التوازن بين مطالب الروح ومطالب البدن .

نعم !!! نأمل أن يكون الهدف من وراء تلك الدعوة هذا الذى نستشعره وأما إذا بان لنا أن الهدف ليس كذلك ، فليكن لأصحابها دينهم ولنا ديننا ، وليتحمل كل من الطرفين نتيجة موقفه الدينى ، فالقسمة التى ذكرها القرآن الكريم بالنسبة لتقييم واقع المتدينين ، أنه ليس بعد الحق إلا الضلال وأحد الفريقين على الهدى ، والثانى فى الضلال المبين ، ونحن نحمد الله الذى هدانا لما نحن فيه ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

الفصل الرابع

تاريخ موجز لبعض الرسل الذين ورد ذكرهم تفصيلا

هذا الفصل يلقى كثيرا من الضوء على الهدف الأساسى الذى من أجله عقدنا الفصل السابق وهو : وحدة الرسالات السماوية فى أصولها الاعتقادية والعبادات والأخلاق والمعاملات ، ذلكم لأننا إذا أرخنا لكل رسول بإيجاز فسيكون حديثنا عن مضمون « البلاغ » الذى قام به هؤلاء ،مع الإشارة إلى مدى الاستجابة من أقوامهم لهذه الدعوات ، وسيتبين لنا أن موكبهم الطيب المبارك كان سائرا على مدى التاريخ نحو هدف واحد ، هو إقامة الإنسان على الطريق الصحيح ، وقد ظلت الرايات مرفوعة لهذا الهدف تحدوها عناية الله وتوفيقه حتى فى الأزمات الشديدة التى كادت تمسك بتلابيب الرسالات والرسل ، وصدق العظيم حيث قال : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ... »(غافر : ٥١) بل إن العون الإلهى يكون أكثر عطاء حين يعترى اليأس نفوس رسل الله . من جراء مايبذلون من جهد فى سبيل دعواتهم ، دون أن يكون له الأثر المرجو ، قال تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولايرد بأسنا عن القوم المجرمين » (يوسف : ١١٠) .

والآن نبدأ حديثنا مع بعض رسل الله مستهلين بآدم عليه السلام

١ - آدم عليه السلام

والكلام عنه من عدة وجوه :

الوجه الأول : حديث القرآن الكريم عن آدم عليه السلام يدل على حقيقة وجوده .

الوجه الثانى : البراهين على نبوة آدم عليه السلام .

الوجه الثالث : كيف يكون نبيا وقد عصى ربه بالأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ؟ .

الوجه الأول :

فأما عن الوجه الأول ، فقد تحدث القرآن الكريم عنه طويلا ، كما جاء بذلك بعض الأحاديث الصحيحة ، لقد تحدث القرآن عن خلقه من طين وتطوراته ، وأن ذلك كان مباشرة بيدى الحق سبحانه ، وأنه بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة الكرام بالسجود له ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (البقرة : ٣٤) وتكررت الآيات التى جاءت فى هذا المعنى ، في السور الآتية (الأعراف : ١١) - (الحجر : ٢٧ - ٣١) - (الكهف : ٥٠) -(ص : ٧٢-٧٤) ، كما جاءت آيات أخرى تتحدث عن إنظار إبليس إلى يوم الدين، بسبب عصيانه السجود لآدم ، كما ذكر الحوار الذى تم بين الحق تبارك وتعالى والملائكة حين قال لهم إنى جاعل فى الأرض خليفة ، وكيف استبعدوا هذا الأمر لأنه - فى نظرهم - تجاوزهم ، وهم الذين طبعوا على الطاعة ، لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وآدم - فى نظرهم كذلك - من الذين يتوقع منهم الإفساد فى الأرض وسفك الدماء : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » (البقرة : ٣١).

وتعقيب الآية الكريمة على موقف الملائكة ، دليل واضح على الفرق بين علم الله المطلق وعلم غيره - ومنهم الملائكة - المحدود . واختيار من يقوم بمهمة الخلافة - فى نظر العقل - ينبغى أن يكون ممن لديه إرادة واختيار ، لا ممن يكون مطبوعا على الطاعة المطلقة حتى يكون أهلا للمسؤولية .

ثم ذكر القرآن الكريم تعليم الله تعالى آدم الأسماء كلها ، وأن الملائكة قالوا حين عرضها عليهم قائلا : « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » « سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا » وأن آدم عليه السلام أنبأهم بأسمائهم ، حينئذ قال الله تعالى لهم : « ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون

وماكنتم تكتمون » (البقرة : ٣٣) كما تحدث عن سكنى آدم الجنة هو وزوجته ، ونهيه لهما عن الأكل من الشجرة وإغواء إبليس لهما بمخالفة النهى قائلا لهما : «مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » (الأعراف : ٢٠) وأن استجابتهما لهذا الإغواء كانت سببا فى إخراجهما من الجنة ، كما بين أن آدم عليه السلام لم يفعل ذلك تحديا لأمر الله ونهيه ، وإنما كان عن نسيان وضعف ، وأن الحقيقة عندما تبينت له تاب فتاب الله عليه : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (طه : ١١٢).

والقصد من ذكر هذه المشاهد ، بيان أن وجود آدم عليه السلام ، من الحقائق التى لا يستطاع إنكارها ، بعد هذا الحديث المستفيض عن قصته ، وليست هذه القصة وغيرها من قصص الكتاب العزيز ، حديثا يفترى ، ولكنها تصوير للواقع .

إن طول الحديث عن آدم فى القرآن ، وتكرار قصته ، كأنه رد علمي مباشر لما قالته بعض الشخصيات التى قعدت بها هممها عن التحقيق العلمى ، فقرروا أن أصل الإنسان لم يكن على الصورة التى تحدثت عنها الأديان السماوية ، والإسلام منها بصفة خاصة ، يعنون بذلك : أن البشرية لم تنحدر من أصل بشرى ، بل نشأت من كائنات أدنى ، ثم تطورت بفعل عوامل بيولوجية ، الخ .

إن القول بالتطور ، الذى قاله « دارون » ليس إلا فكرة ظن صاحبها أنها صحيحة فأنزلها منزل العقيدة [1]. والعلم بالمعنى الصحيح يأبى هذا التفسير ، لأن إقراره للتطور إنما يكون داخل النوع الواحد ، كما هو ظاهر فى التجارب الحديثة والمعاصرة ، أما ماعدا ذلك فهو قلب لحقائق الأشياء ، وهذا لايجيزه العلم ولا الدين ولا العقل أيضا . لقد تعلمنا فى حياتنا الجامعية أن حقائق الأشياء ثابتة ، وكان هذا المبدأ وقوفا فى وجه السوفسطائية ، التى تقرر أنه ليست هناك حقائق ثابتة فى الواقع ، بل الفرد هو المقياس الحقيقى للأشياء . وهذا المبدأ إنما يعبر عنه منطقيا بقانون « الذاتية » ويعنى به : أن الشيء هو هو فى ذاته فى الواقع ونفس

(١) انظر : وحيد الدين خان ، الدين فى مواجهة العلم : ص ١٢ .

الأمر ، بصرف النظر عن نظرة المدرك إليه ، أى أن الحقيقة الواقعية هى المقياس ، لا تصور الإنسان عنها .

فإذا أضيف إلى ماتقدم ماذكرناه من استخلاف الله تعالى آدم وذريته من بعده فى الأرض ،فإن هذا يعنى : التكريم للمستخلف (بفتح اللام) ، لأن هذا يليق بمقام المستخلف (بكسر اللام) ، ولا يطرد ذلك إلا إذا كان نقى الأصل طاهر الأرومة ، ثم يقطع الطريق على هؤلاء بما لايدع مجالا للجدال أن الله سبحانه وتعالى ذكر قصة خلقه ونفخه الروح فيه والأمر بسجود الملائكة ، له . الخ .

إننا فى ثقافتنا الإسلامية الأصيلة لانسمح لأى دعوى تزاحم النص الثابت ، في الوجود ، كما لانسمح بالتأويل للنصوص الصريحة ، حتى تتلاءم مع بعض التفسيرات الخاطئة لبعض قضايا الوجود ؛ لأننا نؤمن أشد الإيمان بأن حقائق الوحى لاتختلف إطلاقا مع معطيات العقل ، وإذا حدث تعارض بينهما ، فلا يتصور إلا بين نص غير صحيح أو عقل غير صريح .

وقد يقال : إن آدم الذى تحدث عنه القرآن الكريم ، لايمنع من وجود آدم أو أوادم قبله من الناحية العقلية ، وهذا كلام قد صرح به بعض القدماء من المفكرين وبعض الباحثين فى مجال علوم الجيولوجيا (١) ، والحق أن هذا احتمال لم يقترب من دائرة إمكان تحققه ، شأن الاحتمالات والافتراضات النظرية ، ذلكم لأنه ليست هناك أدنى إشارة فى النصوص إلى مايفيد هذا الافتراض (٢) ، وحتى مع التسليم بصحة هذا الافتراض فإنه لايفيد شيئا فى حقيقة الموضوع الذى نحن بصدده .

---

(١) من القدماء من قال بذلك : أبو العلاء المعرى . انظر قوله فى : قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ١١ ، وهو ينسب هذا القول إلى آخرين مجهولين .

(٢) يستند من يقول بهذا الافتراض إلى قوله تعالى على لسان الملائكة :« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » إذ لو لم يكن علمهم بأن نوع الإنسان الذى يعرفون أن طبيعته كذلك كان له وجود سابق على آدم لما قالوا قولهم هذا ولكن ظاهر الآية لايفيد هذا الاحتمال وحده ، والاحتمال لايمكن أن يقف أمام النصوص القطعية التى تفيد أن آدم عليه السلام الذى جرت قصته هو أبو البشر ، ثم لماذا لايقال ؛ إن هذا افتراض من الملائكة يبرر موقفهم المستنكر =

الوجه الثانى : البراهين على نبوة آدم عليه السلام :

يرى جمهور المفسرين أن فى قوله تعالى : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (طه : ١٢٢) وقوله : « فإما يأتينكم منى هدى ... » (طه : ١٢٣) دلالة على نبوة آدم عليه السلام . إذ الاجتباء والاصطفاء لايكون إلا للأمر الهام ، وليس الهدى الذى ينزل على من يختار لهذه المهمة إلا تأكيدا لمعنى الرسالة . ثم من الأمور المعقولة أن تكون الإنسانية فى بداية أمرها على طريق الحق . والرسالة هى التى تقيم الإنسان على هذا الطريق . ويؤيد هذا عموم قوله تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (فاطر : ٢٤) وقوله : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا » (النحل : ٣٦) وأبناء آدم المباشرين كانوا أمة بمقياس العصر، ظهرت فيهم بعض الأحداث التى تدل على صدق مانحن بصدده ، حين قدم ابنان من أبنائه قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر .

ومما يؤكد أن آدم نبى مرسل ، ما جاءت به السنة كذلك .

الوجه الثالث : كيف يكون نبيا وقد عصى ربه بالأكل من الشجرة ؟

هذه المسألة أخذت من الباحثين قديما وحديثا أكبر من حجمها الحقيقي ، وإنى ألمح - باختصار شديد - الغاية القصوى من قصة آدم وأكله من الشجرة التي نهي عن الأكل منها ، إنها إظهار مبكر لطبيعة الإنسان ، وتأكيد لبشريته ، وإبراز لما فيه من أسباب الموازنة والترجيح ، اللذين هما من مظاهر العقل والإرادة لديه . وبهما يثبت وجوده بطريقة تدل على المفارقة بينه وبين المطبوعين على الطاعة الدائمة ، إما من الملائكة ، وإما من غير العقلاء من مخلوقات الله ، التى تملأ بها عوالمه . ثم إن القرآن الكريم قد بين ذلك فى قوله تعالى : « فنسى ولم نجد له عزما » (طه : ١١٥) وإذا كان النسيان طبعا فى البشر ، فإن اقترافهم لبعض المعاصى يكون أمرا طبيعيا كذلك ، والقضية - حينئذ- تكون محسومة ، إذ لا

= لخلافة آدم دونهم ، يدل على ذلك قوله تعالى : « إنى أعلم مالاتعلمون » .

غرابة فى أن يجتهد الإنسان ، حتى فى الأوامر الصادرة إليه من جهة أعلا . والمهم فى ذلك ألا يصر على موقفه ، إذا لاح منه أنه ليس على صواب ، من ثم رأينا القرآن الكريم يؤكد أن آدم عليه السلام قد ندم حين عرف حقيقة موقفه ، فكانت التوبة هي السبب فى غفران ذنبه ، ولو أنها لم تكن كما يريدها الحق تبارك وتعالى، لما اجتباه ، بل إن هذا الاجتباء من أقوى الأدلة على صحة توبته وعمقها .

وأرجح الأقوال أن اجتباء آدم عليه السلام واصطفاءه بالرسالة ، كان في مرحلة لاحقة لوجوده فى الجنة وعصيانه بالأكل من الشجرة ، والتى بعدها أهبطه الحق تعالى إلى الأرض ، وهذا كلام مقبول .

وقد تعمدنا أن نطيل الحديث نسبيا عن آدم عليه السلام ، بالنسبة لمن سنذكرهم من إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة باستثناء بعضهم - كيوسف وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام - لأنه أبو البشر ، ولأن رسالته أولى الرسالات . وبهذا وذاك يتبين لنا أن الإنسانية ، بدأت مؤمنة متدينة ، وأن ممارساتها الدينية كانت تأكيدا لفطرية الدين ، كما بينتها آية الميثاق . وفي هذا مايؤكد أن الأقوال التى تربط بين الدين والحضارة الإنسانية فى سلم التطور ، لا صحة لها ، والأدخل فى باب عدم الصحة أن يجعل الدين من إفرازات الحضارة ، ذلكم لأن الوضع الحقيقي للدين - بالمعنى الصحيح - أنه صانع الحضارات وموجهها، وليس إفرازا لها .

ونشير في نهاية حديثنا عن آدم عليه السلام إلى أن القرآن الكريم لم يتكلم عن قومه كما تحدث عن قوم غيره من الرسل ، لأن حديثه عن أقوام الخالفين من الأنبياء كان مظهرا لإبراز المشكلة الأولى التى وقفت فى سبيل البلاغ ، حتى نهايته لدى هؤلاء الأقوام ، وهى مشكلة التقليد لما كان عليه الأسلاف ، ولما كان قوم آدم هم أبناءه الذين يمثلون أول البشرية فلم يكن الحديث عنهم من هذا الجانب له مايقتضيه .

٢ - نوح عليه السلام

يذكر المعنيون بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن النبى الذى أتى بعد آدم كان ابنه « شيث » وقد اعتمدوا فى ذلك على بعض الأحاديث ، كما ذكروا كذلك أن الذى أتى بعد «شيث» هو إدريس عليه السلام . والقرآن الكريم قد تحدث عن إدريس فقال : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا » (مريم: ٥٦ ، ٥٧) ولكن يظهر من عدم ذكر القرآن قصته مفصلة - كشأن نوح مثلا - أن قومه لم يكونوا كأقوام الرسل أولى العزم ، ويمكن استخلاص قاعدة من قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، وهى : أن الحديث عن الرسالات وأصحابها، إنما يطول أو يقصر لأسباب لهذا وذاك ، وأن المعاناة التى يتحملها الرسول فى سبيل دعوته ، هى التى تقتضى ذلك وتطبيق هذه القاعدة يجعلنا فى حل من القول بأن نبوة « شيث» و« إدريس» عليهما السلام كانت من النبوات الهادئة إذا قيست بغيرها ، لأن قومهما لم يكونوا كالأقوام العتاة المعاندين للحق كقوم موسى مثلا، . لذا سنتكلم عن نوح عليه السلام بشىء من التفصيل ، لأن طبيعة رسالته تقتضى ذلك .

إنه من أحفاد « إدريس» فهو ابن « لامك » بن « منوشلخ » بن « خنوخ » (إدريس) . يذكر ابن جرير فى تاريخه أن مولده كان بعد وفاة آدم عليه السلام بست وعشرين ومائة سنة . بينما يذكر ابن حبان فى صحيحه أن المدة كانت عشرة قرون ، كما ذكر ذلك أيضا البخارى عن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام » [١] .

وإذا كان قد ثبت أن الإسلام هو الذى كان عليه البشر بين آدم ونوح لوجود رسولين كريمين يدعوان إليه ، وردت بذكرهما الآثار والنصوص الصحيحة « شيث » و«إدريس» فإنه من الممكن أن يقال : إن بداية المهام الشاقة للرسل الذين جاءوا بعد

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء : ص ٦٤ .

ذلك ، إنما كانت على يد « نوح » عليه السلام . حيث إن ذكر قصته مع قومه تكرر كثيرا فى القرآن الكريم ، وقد قررنا من قبل أن طول القصة أو قصرها إنما يرجع إلى أسباب تقتضيها طبيعة المواجهة بين الرسول وبين من أرسل إليهم ، وهذا الذى نقول ، قاله من قبل كثير من المؤرخين الثقات ، يقول ابن كثير عن نوح عليه السلام « انما بعثه الله إلى الناس لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس فى الضلالة والكفر ، فجاء رحمة للعباد »[1] .

وقد جاء ذكر قصته في القرآن الكريم فى سورة بأكملها اتخذت من اسمه الكريم عنوانا لها . كما جاءت مفرقة فى سور أخرى ، وكل منها تعنى بجانب معين من جوانبها المختلفة ، ففى سورة الأعراف (الآيات من ٥٩ - ٦٤) تبرز دعوته قومه إلى الإيمان بالله تعالى الواحد ، وأنه عليه السلام يخشى عليهم إن أعرضوا عذاب يوم عظيم ، وأن الملأ من قومه اتهموه بالضلال المبين ، فما كان منه إلا أن بين لهم أنه رسول من رب العالمين وأنه ناصح لهم ، وأعلم بمصلحتهم أكثر مما يعلمون ، وأنهم مع هذا كله كذبوه فأنجاه الله ومن آمن معه حين حاولوا إيذاءه المادى والمعنوى . وأغرق من كذب به قال تعالى : « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ، قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ، فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين» .

وذكر القصة فى سورة يونس (الآيات من ٧١ - ٧٣) إنما جاء ليبرز موقفا واضحا ، هو مسؤولية القوم تجاه إعراضهم عندما كبر عليهم أن يقف منهم موقف المذكر بآيات الله ، وأنه لم يسألهم أجرا على ذلك وكان الإغراق نتيجة حتمية

(١) نفس المرجع .

للمعرضين ، وأما النجاة فكان من نصيب من آمن به ، وأن الله سبحانه جعلهم خلائف فى الأرض .

وفي سورة « هود » تبرز القصة عنصرا جديدا ، هو استغراب القوم أن يكون الرسول بشرا مثلهم ، وعنصرا آخر هو الدرجات الاجتماعية الدنيا لمن آمن به ، وكأن الرسالة السماوية فى نظر هؤلاء المعارضين ، إنما هى مظهر اجتماعى قبل أن تكون دعوة إلى تصحيح القلوب والنفوس والعقول ، ثم تبين للقوم أن الداعية إلى الله تعالى لو طرد من آمن به من حوله ، لأنهم ليسوا من الوجهاء ، فمن ينصره من الله ، الذى يحدد المعيار الحقيقي للحكم على الإنسان بمدى مايتمكن فى قلبه من الإيمان والتقوى ثم تنفى القصة عن الرسول مايمكن أن يتوقعه منه القوم ، فهو لا يملك لهم خزائن الأرض ، ولا يعلم الغيب ، وليس ملكا ، فكان الموقف المضاد من قومه ، أنه جادلهم بأكثر مما يطيقون ، وأن عليه أن يكون عمليا ، فليأتهم بالآيات التى يمكن أن تكون عقابا لمن أعرض حتى يثبت صدقه ... الخ ، ثم تذكر القصة حادث الطوفان ، الذى تهيأ له نوح من قبل ، حين صنع السفينة بأمر من الله تعالى، حتى تكون مركبه ومن آمن معه إلى مرفأ النجاة ، وأن ابنه عصى دعوته ، وقال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . وأن الحق سبحانه وتعالى حين أراد تحقيق الواقعة أمر السماء أن تمطر والأرض أن تتفجر عيونا ، حتى امتلأ الوادى بالماء واستوت السفينة على الجودى وقد حمل فيها من كل زوجين اثنين ، حفاظا على تواصل الأحياء . وأنه عليه السلام لم يستطع أن يتحول عن أبوته ، حين دعا ربه أن ينجى ابنه المعرض عن أبيه [1] وأن الله سبحانه قرر أن « الرابط » الحقيقى هو نسب العقيدة وأن « النسب » المادى ، لا يغنى عن الحق شيئا ، وأنه عليه السلام استعاذ بالله أن يسأله ماليس له به علم وطلب من الله المغفرة والرحمة حتى لايكون من الخاسرين . والله سبحانه وتعالى طمأنه فقال له « اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى من معك » .

---

(١) انظر الخلاف بين العلماء فى حقيقة هذه البنوة فى قصص الأنبياء للنجار ص ٣٨ . .

وهذه هى أطول الآيات - بعد سورة نوح - التى تحدثت عن قصته . وإذا ضممنا الآيات التى تعلقت بهذه القصة مما ذكرناه ، ومالم نذكره منها ، فنلاحظ أنها تنتهى إلى نتائج هى :

١ - أن العقبات التي ينصبها أهل الباطل أمام أهل الحق لا تستطيع أن تثنيهم عن عزمهم .

٢ - أن رايات الحق فى النهاية ستكون هى المنتصرة ، وكلمته ستكون هى العليا .

٣ - أن هذا النصر له تكاليفه الباهظة ، وأنه لايمنح ، بل له أسبابه ، وأن ذلك سنة إلهية ، حتى يظل أصحاب الحق فى كل زمان وفى كل مكان آخذين بهذه الأسباب ، إذا أرادوا نصرة حقهم .

٤ - أن المعيار الحقيقى للحكم على الإنسان ، فوق معيار النسب ، إنه معيار الحق والحق وحده ، حين يتمسك به قوم ، ويعرض عنه آخرون .

٥ - إن قصة نوح تعنى : استحضار تاريخ سبق لرسالة ورسول ، وقوم آمنوا وآخرين أعرضوا ، وأن الرسول الخاتم ماكان يعلمها من قبل وفى سردها بهذا الأسلوب وهذا الإيحاء ، مايجعله صابرا محتسبا على مايناله من أذى فى سبيل دعوته ، إذ عليه أن يكون من ذوى العزائم الكبرى الذين يتحملون فى سبيل رسالتهم كل صعب وشاق ، وأن صدق الإيمان بالرسالة لايظهر إلا مع هذا الابتلاء .

٦ - أن قوم نوح كانوا من أعتى الأقوام معاداة لما جاء به الرسل ، وقد بين ذلك الآيات : (٥١) من سورة الذاريات ، (٥٢) من سورة النجم ، (١٦) من سورة الحديد ، وهذه الآيات تصفهم بالظلم والفسق والطغيان إلى غير ذلك من الأوصاف الشاذة .

مكانة نوح بين الرسل :

القارئ لقصته عليه السلام فى القرآن الكريم يخرج بشعور جلى واضح ، هو أنه استنفد كل وسائل التوجيه والإرشاد إلى طريق الحق ، وخاطب كل ملكات الإنسان ومداركه ، إلا أن القلوب التى صدت عن الحق ، والآذان التى صمت عن سماعه ، لم يغنها شيئا من ذلك كله . لقد انتهى به الأمر إلى أن دعا على قومه ، ولا يلجأ الرسول إلى هذا إلا حين يكون الموقف مقتضيا لذلك : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » وقد علل ذلك بقوله : « إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا » غير أنه فى الوقت ذاته يدعو الله لنفسه ولوالديه ولمن آمن معه وهم قلة أن يرحمهم ويغفر لهم : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ... » (نوح : آخر آية).

لقد كان دعاؤه على قومه فى منطق العقل أمرا مقبولا . ذلكم لأن الداعية حريص كل الحرص أن تبلغ دعوته مداها، وأن تحقق غايتها وهدفها ، فلما وقفوا منه موقف المعارضة الشديدة دعا عليهم ، لأنهم وأعقابهم من بعدهم سيكونون دائما مناهضين للذى تجيء به الرسالات السماوية وكأنه عليه السلام يشعر بأن الطغاة والجبابرة والصادين عن دين الله في كل زمان ومكان ، ينبغى أن يأخذهم الله بعذاب من عنده ، حتى تأخذ الدعوات سبيلها نحو ماجاءت من أجله .

إنه فى دعوته قومه إلى الإيمان بالله تعالى ، وترك عبادة غيره : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، قد استعرض معهم كل مامن شأنه أن يرقق القلوب ويلفت العقول إلى حقيقة ماجاء به ، وأنه ساق لهم هذه البراهين وتلك الحجج بصفة مستمرة ، ليلا ونهارا فكانت النتائج عكس مايرغب ويتمنى : « ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، مالكم لاترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله

أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » (نوح : ٨ - ١٨) .

من هذا السياق الخاص فى هذه السورة ، ومن السياق العام لتصته عليه السلام بكل جوانبها نشعر أنه كان عليه الصلاة والسلام يعنى نفسه كثيرا فى دعوته قومه إلى الحق ، وأن الذى كان يضرم نار الغيرة فى نفسه صدق ماجاءهم به ، وتكذيبهم، وإصرارهم على أن يظلوا على الباطل ، وتبلغ المواجهة أقصى درجاتها حين يستمسك كل طرف فيها بما هو عليه . وإذا كان الأمر لايحتمل سوى حق وباطل ، وأنه على الحق ، فماذا يكون عليه القوم إلا الضلال ؟ إن الحق من الوضوح بحيث لايحتاج إلى دليل على صدقه ووضوحه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد استعرض معهم آيات ينبغي أن تحملهم على تغيير موقفهم ، إلا أن الجمود على ماهم عليه قد أعماهم عن الرؤية الصحيحة . لحقيقة مادعاهم .

لكل ماتقدم يرى جمهور العلماء أن نوحا عليه السلام من بين الرسل الذين أبلوا بلاء حسنا فى سبيل دعوتهم ، من ثم عدوه من أولى العزم من الرسل ، الذين صبروا كثيرا على أذى أقوامهم ،

ذرية نوح :

يذكر المؤرخون لقصص الأنبياء أن ذرية نوح هى التى بقيت بعده ، أخذا من قوله تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » وأبناؤه المباشرون هم : " سام " وهو أبو العرب والفرس والروم ، و" حام " وهو أبو السودانيين والفرنج والقبط والهند والسند ، و"يافث " وهو أبو الأتراك والصينيين والصقالبة ويأجوج ومأجوج ، وهؤلاء إما أن يكونوا قد جاءوا بعد واقعة الطوفان ، أو يكونوا قبلها ولكن من المؤمنين به (١) .

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء : ص ١٥ ، وقد روى الإمام أحمد فى مسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم ، كما ذكر ذلك الطبرى فى تاريخه والسيوطى فى الجامع الكبير وابن سعد فى الطبقات .

٣ - هود عليه السلام

الحقيقة أن تاريخ الرسالات والرسل يحتاج إلى جهود مستمرة لتجلية بعض المواقف التى أشارت إليها النصوص الصحيحة ، وتركت تفسيرها للجهد البشري ، من ذلك : الترتيب التاريخي لهذه الرسالات . لقد ذكر القرآن الكريم فى حديثه عن عاد قوم هود قوله : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح... » فالبعدية هنا تحتمل : الزمن المباشر ، أو البعدية الزمانية المقابلة للقبلية الزمانية . وهنا يحتاج الأمر إلى تحقيق وتدقيق . وإذا أخذنا بظاهر التفسير الأول فإن هودا وقومه كانو بعد نوح وقبل ثمود ، كما قال عن هؤلاء : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » وعلى كل حال ، فالأمر المهم هنا هو : التأكيد على الوحدة الموضوعية للرسالات الإلهية ، ومدى تواصلها ، والكشف عن مواقف الأقوام من الحق الذي يجيء به الرسل ، ثم ماذا يفيد ذلك كله أصحاب الدعوة والرسالة فى الواقع ، بل وفى العصور المتجددة .

إن هودا عليه السلام ، هو أحد أحفاد سام بن نوح ، فهو ابن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح عليه السلام . وقبيلته تنتمى إلى عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانت من العرب الذين يقطنون الأحقاف ، التى تقع بين اليمن وعمان وحضرموت وهو من الأنبياء العرب ، كما جاء فى حديث أبى ذر الذى رواه ابن حبان فى صحيحه قال : ومنهم أربعة من العرب : هود - صالح - شعيب - ونبيك ياأباذر »

وعاد الذين أرسل إليهم " هود " عليه السلام ، هى عاد الأولى ، التى تحدث القرآن الكريم عنها فقال : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » (الفجر : ٦ - ٨) .

لقد ذكر القرآن الكريم قصة عاد ورسولهم « هود » فى أكثر من موضع ، وكما هو الشأن فى القصص القرآنى ، يعالج كل موضع تذكر فيه القصة جانبا منها ، بحيث لوجمعت فى إطار واحد لأعطت صورة متكاملة الجوانب ، وهذا منهج تفرد به الكتاب العزيز ، ففى سورة الأعراف جاء قوله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هودا قال

ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ، قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ، فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » (الآيات من ٦٥ - ٧٦) كما تحدث عن نفس الموضوع فى سورة " هود " (فى الآيات من ٥٠ - ٦٠) وفى سورة " المؤمنون " (الآيات من ٣١ - ٤١) وفى الشعراء (الآيات من ١٢٣ -١٤٠) وفى فصلت (الآيتان ١٥ ، ١٦) وفى الأحقاف (الآيات من (٢١ - ٢٥) وفى الذاريات (٤١ ، ٤٢) وفى القمر (الآيات ١٨ - ٢٢) وفى الحاقة (الآيات من ٦ - ٨) وفى الفجر (الآيات من ٦ - ١٤) وغير ذلك من بعض سورالكتاب العزيز : التوبة - إبراهيم - الفرقان - العنكبوت ، وفى سورتى ص ، ق .

ولو تأملنا كل مجموعة من هذه الآيات ، لوجدنا لها هدفا معينا يخدم الهدف العام للقصة كاملة ، ففى آيات سورة الأعراف ، نلاحظ موضوع الدعوة ومضمونها وهو توحيد الله تعالى بالعبادة والقصد والطلب . وطرح ما عليه القوم من عقائد فاسدة ، وسلوك غير رشيد . ومن المعلوم أن التركيز على تصحيح العقيدة ، هو أول ماينبغى أن يقوم به الدعاة إلى الله تعالى ، على كافة مستوياتهم ، إذ هى الأساس الذى يتم عليه بناء الدين كله ، فهى القوة التى تحرك صاحبها حسب مقتضاها ، وهى فى نفس الوقت أعز مايحوزه الإنسان . إنها متى صحت فى قلب ونفس المعتقد ، صح بعدها كل شىء إنسانيته - علاقاته - أهدافه وغاياته الخ . لكل هذا رأينا أن هذا الجانب من الدين هو الذى يستغرق مهمة الدعاة إلى الله تعالى ، لأن طبيعته تقتضى ذلك .

وتظهر الآيات موقف الملأ من قومه . لم يكن موقف استدبار لما دعاهم إليه فحسب ، بل تخطاه إلى التسفيه والتكذيب ، وكفى بهما من وصفين ذميمين ، يكون أثرهما في النفوس الضعيفة كبيرا ، أما أصحاب العزائم القوية ، والنفوس العالية ، فهم أكبر من أن تحركهم مثل هذه الاتهامات ، لأنها صادرة عن قوم لايفقهون وضعهم ، وحقيقة أنفسهم ، فضلا عن عدم فقههم للحق الذى دعاهم إليه . إن الرسول الكريم يذكرهم بما امتن الله به عليهم من نعم ، ولكنهم يقابلونها بالجحود والكفران ، إن أمانة البلاغ تقتضيه أن يخلص لهم النصح وهو رجل منهم ، دون أن يسألهم على ذلك أجرا ولا شكرا ، وهذا أمر طبيعى ، لوكانت العقول سليمة والطبائع مستقيمة ، ثم تظهر الآيات أن العقبة الكؤود التى تقف فى وجه الرسالات عموما ، إنما تظهر فى التحجر العقلى، حين يعضون على تقليد الأسلاف بالنواجذ ، ولا يتركون الفرصة لتأمل بصير ، ولا لموازنة وتقدير . ثم يبين أن مايؤلهونه ويعبدونه ليست إلا أسماء ، ولم يكن من واقع التأليه والعبودية شىء يذكر ، إنها صور باطلة للاعتقادات والعبادات ، ليس هناك من سلطان وبرهان على حقيقتها ، بل إن بطلانها هو الصحيح .

وفى نسق الآيات التى جاءت في سورة " هود " نلاحظ ظهور عناصر جديدة لم تذكر إلى حدما فى نسق سورة الأعراف ، منها :

١ - عنصر مناشدة القوم أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه ، حتى يزيدهم عطاء الى عطائهم وقوة إلى قوتهم .

٢ - دعواهم أن رسولهم لم يأتهم ببينة تظهر صدق ماجاءهم به وكذب ماهم عليه وأن هذه الدعوى لا دليل عليها . فالآيات الدالة على صدق دعوة الرسول ماثلة فى عالم الواقع والمشاهدة ، وفى حنايا القلوب وخفايا الصدور، والأحق بهذه الدعوى هو موقفهم الذى لاسلطان له من عقل ، ولا أثارة عليه من علم اللهم إلا التقليد، الذى يساوى فى مفهومه مسخ شخصية المقلد فى شخصية من قلده .



وأما آيات « فصلت » فقد أبرزت صفة الاستكبار فى الأرض التى كان عليها الملأ من قوم هود ، إنهم كانوا يستعرضون عضلاتهم ويقولون من أشد منا قوة . ولم يدركوا أن الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وتبرز الآيات أن طبيعة العقاب الذى عاقبهم الحق تبارك وتعالى به ، هو الريح الصرصر ، الذى أتاهم فى أيام نحسات ، وكان هذا عذابهم فى الدنيا - وهو عذاب الخزى - وأما فى الآخرة فعذابهم أخزى ، وفى سورة الأحقاف . تظهر الآيات أن استعجالهم ماتوعدهم بها رسولهم حين أعرضوا عنه قد تحقق ، وقد أخذهم بغتة ، فقد ظنوا أن الريح الذى أهلكهم الله بها عارض ممطر أوديتهم ، ولكنه كان العذاب ، الذى استأصلهم فلم يبق من آثارهم إلا مساكنهم .

والحق أننا لو استعرضنا كل الآيات التى وردت فى القصة لطال بنا الحديث ولكننا على سنتنا فى الاختصار يمكن أن نستخلص منها ما يأتى :

١ - أن مضمون الدعوة التي وجهها « هود » إلى قومه كان يؤكد علي ما أكدته رسالة نوح عليه السلام ، وهو « التوحيد » الخالص ، ونبذ كل مظاهر الشرك والوثنية .

٢ - أن البراهين الدالة على صدق ماجاءهم به رسولهم ، كانت من المدارك الإنسانية بمكان ، غير أن الاستكبار والتعنت وإلف ماكان عليه الآباء والأجداد ، كل ذلك حال دون القوم والانصياع لداعى الحق .

٣ - أن القوم كانوا يعرفون أن الله سبحانه وتعالى موجود ، إما بالفطرة وحدها أو بها مع مايمكن أن يكون قد نقل إليهم من دعوة نوح عليه السلام وقومه إلى الإيمان بالله تعالى ووحدانيته . إلا أن معرفتهم هذه تصبح عديمة القيمة بعد أن أشركوا ، واستبعدوا أن يدعوهم رسولهم إلى الإيمان بالله وحده ، ويذروا ماكان عليه الآباء ، فعبدوا وقدسوا بعض الظواهر الكونية (القمر) وأصنام كانت لهم .

٤ - كما كانوا يعرفون أن لله تعالى خلقا نورانيا هم الملائكة ، لأنهم حين استبعدوا أن يأتيهم رسول من أنفسهم ، قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة .

٥ - أن أنظار القوم كانت قاصرة ، لم تتطلع أبدا إلى حياة أخرى ، يتحقق فيها العدل الإلهى فأنكروا البعث وما يترتب عليه .

٦ - أن رسالة هود عليه السلام كانت حلقة فى سلسلة الرسالات الإلهية ، وأن قومه كانوا يعرفون ذلك : « إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم .. » وهذا يعنى : أن التذكير بالحق لم ينقطع عبر تاريخ البشرية وأن الصد عنه كان مستوجبا للجزاء الملائم . إذ لو لم يكن كذلك لتساوى المحسن الذى استجاب له ، بالمسيء الذى قعد له كل مرصد .

٧ - أن جلال الحق وتأثيره قد انجذب إليه فريق من المدعوين ، تحررت عقولهم من كل إلف غير شريف ، واستنارت قلوبهم بضياء الهدى الذى تحمله الرسالات الإلهية ، السابقة منها تمهد للاحقة والأخيرة تؤكد الأولى . وأما ظلام الباطل فقد ظل آخرون لايبرحونه. ضيقا فى العقل ، وظلاما فى القلب حملاهم على إيثاره دون الحق . وأن الكتيبتين أو الحزبين : حزب الله وحزب الشيطان سيمثلان فى كل زمان ومكان ، وأما المصير المحتوم ففريق فى الجنة وآخر فى السعير .

٤ - ابراهيم عليه السلام

نظرت في قصة « صالح » عليه السلام الذى أرسله الله تعالى إلى « ثمود » فى القرآن الكريم نظرة الفاحص المتدبر ، فانتهيت إلى أن وحدة المساق قائمة بينها وبين قصة « هود » من حيث :

١ - عرض مضمون الرسالة فى مجال العقيدة أولا وهو التوحيد الخالص .

٢ - موقف الملأ من قومه ، المعرض عن الحق ، الذى لامبرر له ، مع تقديم الرسول صلى الله عليه وسلم للبراهين الدالة على وجوب الإيمان بما جاءهم به .

٣ - الاستعلاء والاستكبار وتقليد الآباء والأجداد، صفات حالت بينهم وبين الإذعان .

لكل ماتقدم وغيره أجدنى فى حل من ذكر هذه القصة ، لأن الدراسة التى نحن بصددها ليست تأريخا للرسالات ، وإنما هدفها : التركيز على إبراز وحدة المحتوى والمضمون فى إطاره العام الذى تمثله تلك الرسالات . ولما كانت بيئة صالح ترتبط إلى حد كبير ببيئة « هود » فإنى أكتفى بما ذكرت عما لم أذكر ، لأتحدث عن نبى كريم على الله تعالى وعلى النفس المؤمنة ، وهو إبراهيم عليه السلام .

ينتهى إبراهيم عليه السلام من حيث النسب إلى سام بن نوح عليه السلام ، فأبوه « تارخ» بن «ناحور » بن « ساروغ» بن « راغو » بن « فالغ» بن « عابر» ابن « شالح» بن «أرفخشذ» بن « سام » بن «نوح» عليه السلام [١].

نشأت أسرته فى أرض الكلدانيين (بابل) وكان أخا لاثنين : " ثاجور" و "هاران" وكان موقعه منهما موقع المتوسط . ثم ارتحل مع أبيه وامرأته " سارة " وابن أخيه لوط إلى أرض الكنعانيين ، فنزلوا " حران " فأقاموا فيها ، وكان أهلها يقدسون ويعظمون ويعبدون الكواكب السبعة ، وبعضهم كان يعبد الأصنام ، وهكذا كان القوم مابين عابد لكوكب أو عابد لصنم ، بل إن بعض النصوص تجزم بأن كل من كان على ظهر البسيطة . فى هذا الزمان كانوا كفار ، سوى إبراهيم وامرأته وابن أخيه لوط[٢] .

لقد آتى الحق تبارك وتعالى إبراهيم رشده ، وكان به عليما ، حيث كان مؤهلا لتحمل رسالة كبرى ، تواجه لونين بارزين من ألوان الوثنية ، عبادة الكواكب وعبادة الأصنام ، المهمة شاقة والتبعة خطيرة ، والمسؤولية جسيمة ، ولكن الحق تبارك وتعالى دائما مع أوليائه بالتأييد والنصر ، والعون على تحمل الأذى فى سبيل رسالتهم .

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء : ص ١٢٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٢.

لقد كان خطابه إلى قومه حين أرسل إليهم ، يدور حول المضمون الذى دارت حوله رسالات من سبقه من إخوانه عليهم الصلاة والسلام « التوحيد » أولا وقبل كل شيء، وفى الدعوة إليه دعوة إلى إطراح كل الوثنيات التى عليها القوم ، وهو كصاحب رسالة لابد أن يكون معه من الحجج والبراهين ، القدر الذى به يجعل من رسالته ماهو أولى بالقبول فى نظر العقل والفطرة ، وأن ماعليه القوم من وثنيات فى العقيدة وانحراف فى السلوك ، لايثبت أمام العقل والفطرة كذلك ، إنها نفس المعركة بين الحق والباطل، وإن اختلفت شخوصها ومواقعها .

لقد جاء حديث القرآن الكريم عن إبراهيم فى أكثر من سورة . منها : الأنعام - مريم - العنكبوت - الشعراء - فصلت - الصافات. الخ وعلى نفس النسق الذى سارت عليه قصص السابقين ، نلاحظ أن كل مقام تذكر فيه ، يعنى بجانب من جوانبها الكلية ، حتى يكون العقل مشدودا إلى قراءتها كلها فى مظانها من الكتاب العزيز ، ففى سورة الأنعام يقول الله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم » (الآيات من ٧٥ - ٨٣) .

والآيات تشير بوضوح إلى خصائص الإله الحق ، وفى ضوء هذه الخصائص يمكن الحكم على معتقداتهم ومعبوداتهم فى الكواكب والأصنام هل هى آلهة كما يزعمون

النقطة الأولى :

السياق العام لهذه الآيات وارتباطها بما قبلها ، يدل على أن المقام الذى وردت فيه ، مقام تعليم وتوجيه وإرشاد ، من الحق تبارك وتعالى لنبيه عليه السلام ولكل مسترشد من بعده . فلم يقل إبراهيم عليه السلام « لآزر » «أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » (الأنعام : ٧٤) إلا لأنه يعلم على وجه اليقين أن الأصنام يستحيل أن تكون آلهة ، وأن العقلاء ينبغي أن يتعلموا ذلك ، لأن الإله الحق له من الخصائص مالايمكن أن يكون لهذه الأصنام ، لذا حكم عليه إبراهيم بأنه فى ضلال ظاهر هو وقومه ، وهذه هى بداية القول فى موضوع الآلهة من دون الله .

وإذا كان تاريخ قوم إبراهيم من حيث العقيدة والعبادة موزعا بين عباد الأصنام وعباد الكواكب - كما ألمحنا - فإن اجتثاث تلك العقائد الضالة والممارسات الخاطئة يحتاج إلى موقف تعليمى يظهر من خلاله ضلال هؤلاء ، ليكون ذلك أدعى إلى لفت الأنظار إلى العقيدة الصحيحة ،المتمثلة فى التوحيد الخالص لله رب العالمين ، بمبرراتها وبراهينها استكمالا للصورة ، التى يبين منها المقارنة بين جانبين منها ، أحدهما فاسد باطل ، والآخر صحيح وحق .

إن الآيات التى سقناها تجىء فى هذا السياق ، والمدقق فى استهلالها يلاحظ أن هناك كلاما مضمرا يربطها بما قبلها فى سياق واحد. فقوله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ... » يعنى : كما هديناه إلى استنكار أن تكون الأصنام آلهة ، حتى حكم على قومه حين اتخذوها آلهة وعبدوها ، بأنهم فى ضلال مبين ، نريه أيضا أن عباد الكواكب ومؤلهيها ليسوا على حق ، لأنهم تجاوزوا بعقيدتهم هذه خصائص الإله الحق .

النقطة الثانية :

اختلف فى معنى رؤية ابراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض بإراءة الله له على قولين : قول يرى أنها بالعين الحقيقية ، وأن الله تعالى شق له السموات

حتى رأى العرش والكرسى . وإلى حيث تنتهى فوقية العالم الجسمانى ، كما شق له الأرض إلى حيث ينتهى السطح الآخر من العالم الجسمانى ، ورأى مافيهما معا من العجائب الدالة على قدرة الله تعالى وحكمته وتدبيره .

وأما القول الثانى فيرى أصحابه أن الرؤية هنا كانت قلبية علمية بعين البصيرة والعقل واحتجوا لرأيهم بثمان حجج ، أظهرها :

١ - أن القرآن الكريم ذكر فى الآيات قوله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » والرؤية بالعين لا تصير حجة على قومه لأنهم كانوا غائبين عنها ، وكانوا يكذبون إبراهيم فيها ، وما كان يجوز لهم تصديقه فى تلك الدعوى إلا بدليل منفصل .

٢ - أن الله سبحانه وتعالى قال فى حق أهل البصيرة « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ولايكون ذلك إلا للبصيرة والعقل ، وعلى نفس التفسير تكون حال إبراهيم عليه السلام .

٣ - أن اليقين الذى يحصل للمستيقن ، إنما هو العلم المستفاد بالتأمل والنظر إذا كان مسبوقا بالشك وقوله « وليكون من الموقنين » كالغرض من تلك الإراءة فلما كان اليقين هو العلم المستفاد من الدليل ، وجب أن تكون تلك الإراءة عبارة عن الاستدلال .

٤ - أن جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الخالق وقدرته لاعتبار واحد، هو أنها محدثة ممكنة ، وكل محدث ممكن يحتاج ضرورة إلى الصانع ، وإذا عرف الإنسان هذا الوجه الواحد فقد كفاه فى الاستدلال على الخالق جل علا ، وكأنه بمعرفة هاتين المقدمتين قد طالع جميع الملكوت بعين عقله [1] .

---

(١) الفخر الرازى : تفسير حـ ٧ ص ٤٥ ومابعدها .

النقطة الثالثة :

لايتصور العقل أن ينطق رسول أو من يعد للرسالة بكلام يعلم أنه بظاهره يتعارض مع عقيدته إلا أن يكون ذلك لمعنى غير المتبادر، فاعتراف إبراهيم أولا عند رؤية الكوكب وكذا القمر والشمس ، لا يفسر إلا إذا كان المراد به التسليم على سبيل الافتراض ، أو أنه رب في زعم الخصم ، مع اليقين التام بأن النتيجة الحاسمة ستكون بخلاف هذا الاعتراف ، كما يؤكده قوله تعالى « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا . »

والمحققون من العلماء يجمعون على أن هذا كان قبل الرسالة ، بل كان قبل البلوغ على أرجح القولين . ومع أن اعترافه في ضوء التفسير السابق : على سبيل الافتراض أو فى زعم الخصم ، لايخدش اليقين الذى انعقد عليه قلبه ، حتى ولو كان قد كلف بالرسالة ، إلا أنه كان قبل ذلك ، ومن المعلوم بالضرورة أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون قبل البعثة وبعدها عن اقتراف الكبائر - والشرك على رأسها - والسياق يؤكد ذلك التفسير . وقد ساق الفخر الرازى اثنتى عشرة حجة ، تبعد الشبهة عن إبراهيم عليه السلام أن يكون قد قال بربوبية الكواكب ثم عدل عنه ، لعل أظهرها أنه عليه السلام قد عرف إلهه الحقيقى على سبيل اليقين قبل هذه الواقعة ، بدليل أن القرآن الكريم قد حكى قوله لأبيه آزر مستنكرا عليه عبادته للأصنام واتخاذها آلهة من دون الله . كما أن الواقعة هذه قد حدثت بعد أن أراه الحق تبارك وتعالى ملكوت السموات والأرض ، تلك التى ظهر له منها اليقين الكافى للاعتقاد الصحيح ، ويؤكد هذا ، أن السياق القرآنى ذكر الآيات مبتدئة بحرف العطف « الفاء » الذى يدل على الترتيب والتعقيب « فلما جن عليه الليل ... » لتكون النظرة إليها مصحوبة بما أراه الحق تبارك قبلا من آياته الدالة على وحدانيته فى ملكوت السموات والأرض ، فلا يتصور العقل بعدها أن يكون من رأى الدلائل الواضحات على الإله الحق ووحدانيته ، متجلية فى ملكوته ، يمكن أن يبحث عن إله آخر على سبيل اليقين ، اللهم إلا أن يكون استهزاء بالقوم واستخفافا

بهم ، أو تنزلا على منهجهم وتدرجا بهم فى محاجتهم ، مع اليقين بأن الحق معه فى النهاية [1] - كما أشرنا إلى ذلك - حين كان يناظرهم فى عقيدتهم الباطلة ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ... »

ومما يؤكد أن القول جاء فى مقام المناظرة ، التى قد يتنازل فيها من على الحق عن موقفه مؤقتا ليعترف بموقف الخصم ، أن الآيات تدرجت بطريقة متصاعدة بحسب رتبة تعظيم القوم للظواهر الطبيعية : الكوكب - القمر - الشمس ، وهذا يعنى : التدرج من صاحب الحق مع الخصم فى سلم هذا التصاعد . حتى يأتى إلى أقصى مايعتقد فى ألوهيته ، وهى الشمس هنا بدليل أن القرآن قد وصفها بالإله الأكبر فى زعم مؤلهيها .

بعد هذا كله لم يبق شك لمستريب حتى يقول فى إبراهيم عليه السلام شيء ، حتى قبل البعثة ، بل وحتى قبل البلوغ ، لأن رسل الله عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام محفوظون بحفظ الله لهم ، تكلؤهم عنايته ورعايته منذ ولادتهم وحتى يأتيهم اليقين .

إن جمهور المؤرخين يرى أن مناظرة إبراهيم لقومه فى شأن الكواكب على الصورة التى أظهرتها الآيات السابقة ، إنما كانت مع أهل حران ، حيث كانوا صابئة يعبدون ويقدسون تلك الكواكب . وأن بعضهم كان من عباد الأصنام إلا أن القاعدة الأكثر سعة من هؤلاء كانت في أرض بابل التى خرج منها إبراهيم إلى حران . والقرآن الكريم قد بين أن إبراهيم قد جادل هؤلاء ، وعلى رأسهم أبوه . مبينا لهم أن ما هم عليه ليس شيئا فى معيار العقل والدين قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي

---

(١) نفس المصدر .

فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولايضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » (الآيات : ٥١ - ٧٠ من سورة الأنبياء) .

تكرر هذا المضمون فى الآيات من : ٦٩ - ٨٣ من سورة الشعراء ، ٨٣ - ٩٨ من سورة الصافات . وكلها تركز على محور واحد واضح « الإله الحق » الذى يستأهل الألوهية ويستحق العبودية . هل يمكن أن يكون فى تلك الأصنام التى ينحتونها ؟ إنها لاتضر ولاتنفع ، وهم يصنعونها بأيديهم ، وهل هناك أدخل فى الضلال والبطلان من هذا العمل ؟ إنه تنكيس للعلاقة الطبيعية بين الإله والمؤله ، والمعبود والعابد ، وكيف لايكون الأمر هكذا والإنسان فى رتبة الموجودات أعلا من تلك بدرجات ؟ أليست الأصنام التى يؤلهونها ويعبدونها بعض عالم الجماد ؟ إنه عالم الموجودات غير الحية ، الذى إذا قورن بغيره من العوالم الأخرى لكان أدناها . نعم إن عالم النبات أعلا درجة من عالم الجماد إنها درجة الحياة ، كما أن عالم الحيوان يعلو عالم النبات بدرجة إنها درجة الميول الغرزية والدوافع الغامضة إلى الأفعال . أما عالم الإنسان فيسمو على عالم الحيوان بدرجة ، إنها درجة الوعى والإدراك لعواقب الأفعال والأقوال .

أرأيتم كيف يقدس بعض البشر ماهو أدنى منهم بتلك الدرجات ؟ ثم ماذا يمكن أن يقال عن هؤلاء ؟ هل هم عقلاء حين رضوا لأنفسهم أن يكونوا عابدين لمن دونهم

بدرجات ؟ إنها صرخة العقل الواعى والفطرة السليمة ، من فتى آتاه الله رشده قبل أوانه ، حين يرى تلك العلاقة العكسية بين الإنسان ومن اتخذه إلها معبودا على غير حق . حقا لقد صرح القرآن الكريم على لسان إبراهيم أن القوم وآباءهم الذين قلدوهم كانوا فى ضلال مبين ، ثم يلفت أنظارهم إلى المظاهر التى تدل على الإله الحق ، متجلية فى ملكوت السموات والأرض الذى شهده ، فلما لم يستجيبوا للحق، عمد إلى جسم الجريمة - كما يقال - ليقضى عليها ، ساخرا منهم حين سألوه إن كان قد كسر أصنامهم ، فأسند الفعل إلى كبيرهم ، وعليهم أن يسألوه . فما كان من القوم إلا اللجوء إلى الخلاص منه ، وذلك بإلقائه فى النار ، ولكن الله حماه حيث جعلها بردا وسلاما .

ولن نقف إلا عند نقطة واحدة فى الآيات التى ذكرناها ، هى : هل كان جواب ابراهيم حين سألوه : أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم، مطابقا للحقيقة والواقع ؟ واذا لم يكن كذلك فكيف يكذب من يؤهل لتحمل عبء الرسالة ؟

والجواب : أن إبراهيم عليه السلام لم يكذب حين أحالهم على آلهتهم ليسألوهم، وانما أراد أن يبين لهم بطريقة عملية أن معبوداتهم لاتسمع ولا تبصر ولا تعقل فكيف يقدسونها حينئذ ؟ فلما تأكدوا من تلك الإحالة والمغزى من ورائها ، رجعوا إلى أنفسهم فاعترفوا بأنهم ظلموا أنفسهم حين اعتقدوا فى أصنامهم على أنها آلهة ، قال قتادة [1] : أدركت القوم حيرة سوء فأطرقوا ، ثم قالوا : « لقد علمت ماهؤلاء ينطقون . وهنا يمسك إبراهيم عليه السلام بهذا الاعتراف ليكون حجة عليهم ، فتأتى الآيات مبكتة لهم ، ساخرة من موقفهم ، مظهرة إياهم أنهم ساقطون عن رتبة العقلاء .

مناظرة من نوع آخر

ذكر القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام ناظر الذى حاجه فى ربه ، مدعيا أنه

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء : ص ١٢٩ .

" الإله " فـقـدم له الحـجـة والبـرهان على الإله الأحق بالألوهيـة ، وذلك فى قـوله تعـالى : « ألم تـر إلى الذى حـاج إبراهيم فى ربـه أن آتـاه اللـه الملك إذ قـال إبراهيم ربى الذى يحـيى ويميت قـال أنا أحـيى وأمـيت قـال إبراهيم فـإن الله يأتى بالشـمس من المشرق فـأت بهـا من المغـرب فـبهت الذى كـفر والله لايهـدى القـوم الظالمين » (البقرة : ٢٥٨) .

والحق أن حـيـاة « إبراهيم » عليـه السـلام كـانت كـفـاحـا ضـد مظاهر الشـرك المختلفة ، لقد ناظر عليه السلام عباد الأصنام ، كما جادل عباد الكواكب ، وأخيرا من ادعى الألوهية من دون الله ، وكان فى كل هذه المناظرات والمجادلات مؤيدا من عند الله بالحجة والبرهان وهذا شأن أصحاب الرسالات الكبرى ، ولعل هذا البلاء المبين من الأسباب التى بهـا جعل الحق تبارك فى ذريتـه النبوة والكتـاب . والواقع التاريخى يشهد بذلك .

إن الخيط الذى يربط بين رسالات السمـاء لم يزل ولايزال موصولا . قبل إبراهيم وبعـده كمـا أن الأهداف الكبـرى لتلك الرسالات لم تتـغيـر ، وكل رسـول كريم يؤكـد دعـوة السـابق فى المضمـون والهدف ، ويمهد لرسول كريم لاحق بنفس المعيـار ، كـمـا أشرنا إلى ذلك من قبل .

أما الجوانب المختلفة لقصة إبراهيم عليه السلام فكثيرة ، والتطرق إليها جميعها يخرج عن الخطة التى رسمناها لهذا الكتـاب . ونشير فى إيجاز شديد إلى هجرته بعد إقامتـه فى حران قادما من بابل بحثا عن موقع جديد بعيد عن مظاهر الشرك التى رآها فى مسقط رأسه إلى أرض فلسطين وأقام فى مدينة " شكيم " (نابلس) وبعـدها رحل إلى مـصر فى عـهد ملوك الرعـاة «العـمـاليق » والتـقى بفرعـون مصـر آنذاك ، فوهب زوجتـه " سارة " جارية اسمهـا « هاجر» فوهبتهـا زوجهـا ، فرزق منها بابنه « إسـمـاعـيل» عليـه السـلام ، ثم وهبـه الحق تبـارك وتعـالى من زوجـه العـقـيم «سارة» ولدا هو « إسحق» .

ومن مظاهر إكرام الحق تبارك وتعالى له أن جعل منه الرافع لقواعد البيت الحرام

، ومن قبل ذلك بأن أراه فى المنام أن يذبح ولده فاستسلم كما استسلم الذبيح أيضا ولكن الله فداه بذبح عظيم .

من قراءتنا لقصة إبراهيم ، كما ذكرها القرآن الكريم أولا ، وكما دونتها بعض الكتب ، لاحظنا أنه حتى تاريخه ، كان أشد الأنبياء الذين سبقوه ، ابتلاء واضطهادا وأن الجبهات التى نازلها قد تعددت ، وأنه ارتحل من مكان إلى آخر طلبا لبيئات جديدة تثمر فيها دعوته . لكل هذا وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه «كان أمة » ومن أجل تلك المكانة العلية التى حازها بين إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ادعت اليهود والنصارى أنه كان على دينهم ، فرد القرآن الكريم دعواهم هذه بأنه « ماكان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى الذين آمنوا ... » كما زعموا أن كتبهم ذكرت مدعاهم فنزل قوله تعالى ردا على هذه الدعوى : «ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ... »

إن هذا الادعاء يحمل معنيين واضحين :

الأول : المكانة الرفيعة التى عليها المدعى (بفتح العين) - وهو إبراهيم عليه السلام - فى تاريخ الرسالات الإلهية ، بين إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، والتى ترقاها لجهاده الطويل ضد عوامل الشرك المختلفة .

الثانى : ضعف المكانة التى عليها المدعى (بكسر العين) من الناحية الدينية والروحية مما حملهم على ادعائه لعله يجبر نقيصتهم . ولكن الله سبحانه وتعالى ، يبين فى القرآن الكريم الحقيقة الواضحة على الوجه الذى ذكرنا .

بقيت مسألة تتصل بحياة إبراهيم عليه السلام ، وهى : الكذبات الثلاث ، لقد ذكر القرآن الكريم منها ثنتين ، أولاهما : حين نظر فى النجوم فقال : « إنى سقيم » ولم يكن كذلك ، وثانيتهما : حين سأله قومه بعد أن حطم الأصنام : أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ، قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . وأما

الثالثة فقد ذكرها الحديث الصحيح الذي رواه أبوهريرة وعنه رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، حين قال لملك مصر لما سأله عن درجة قرابة زوجه سارة : إنها أختى ، ولم يصرح له بأنها امرأته . والقول الفصل فى هذه الكذبات الثلاث أنها لم تكن عن عمد ، بل ارتبطت كل واحدة منها بأسبابها وملابساتها ، ذلكم لأن الكذب فى حقيقته - ولايكون إلا فى الكلام غالبا - ماكان إخبارا على خلاف الواقع مع إصرار المخبر أنه على حق فى إخباره ، ونحن نبرئ إبراهيم عليه السلام أن يكون قد أخبر بما صرح به ، وهو يعتقد صدقه .

ولو أننا تكلمنا فى الكذبات الثلاث تفصيلا ، لأمكننا القول بأن الأولى منها كانت تعبيرا عما أصابه من قومه من صد عن سبيل الحق ، أليس هذا كافيا لأن يحدث عند الداعية نوعا من السقم المعنوى ، لا المادى .

وأما الثانية فكانت سخرية واستهزاء بالقوم ، بدليل أنه لم يقل أنا لم أكسر الأصنام ، وأما الثالثة ، فالرأى الراجح أن المراد بأخوتها له هى الأخوة فى الدين ، لا كما يذهب إليه بعض الكاتبين ، من أن ذلك كان قبل تشريع تحريم الأخوات ، لأن سارة لم تكن أخته حقيقة [1].

وحسبنا هذا القدر من الحديث عن إبراهيم عليه السلام لننقل الحديث عن ابنين كريمين من أبنائه : إسماعيل وإسحق ، بعد أن نقول كلمة مركزة جامعة لمهمة هذا الرسول الكريم : لقد كان إبراهيم عليه السلام رسول الثورة على التقاليد الجاهلية بكل صورها .

٥ - اسماعيل عليه السلام

ذكرت كتب قصص الأنبياء أن إبراهيم عليه السلام حين رجع من مصر إلى بيت المقدس ومعه زوجه « سارة » وجاريتها « هاجر » قالت له زوجه : لقد حرمنى الله الولد ، فأدخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولدا ، فحين دخل بها حملت ،

---

(١) انظر : النجار . قصص الأنبياء ص ٨٤.

ثم ولدت إسماعيل ، كان عمر إبراهيم عليه السلام آنذاك ستا وثمانين سنة ، وأن الله بشره بعد ذلك بإسحق يرزق به من زوجه " سارة " .

ويتحدث القرآن الكريم عن إسكان إبراهيم عليه السلام « هاجر » ووليدها بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ، ودعائه عليه السلام أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وأن يرزقهم من الثمرات ، كما تحدث عن موقف المعونة والمساعدة التي قام بها إسماعيل مع أبيه فى رفع قواعد البيت ، ودعائهما أن يتقبل الله منهما ، وأن يكونا مسلمين له ، ومن ذريتهما كذلك . كما تحدث عن قصة الذبيح ، الذى بلغ معه السعى ، ثم رأى فى منامه أن يذبحه فرضى قائلا : « افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » وأن الله سبحانه فداه بذبح عظيم . والقصة هذه قد ذكرتها الآيات من ٩٩ - ١١٣ من سورة الصافات .

وجمهور المفسرين على أن الذبيح هو «إسماعيل» عليه السلام ، إلا الطبرى[١] فإنه يرى أن الذبيح هو « إسحق » ويظهر أن هذا الرأى قد ارتاح له أحبار اليهود كثيرا ، فى أيامنا هذه لأن فيه اختصاصا لجدهم الكبير « إسحق » الذى انحدر منه « يعقوب » (إسرائيل) أبو أنبيائهم . وعلى كل حال فالأرجح ماعليه الجمهور كما أن السياق القرآنى يقتضيه ، لأنه بعد أن انتهى من قصة الذبيح قال بعدها : «وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين » [٢] ومن المعلوم أن بنى إسرائيل يحاولون نسبة كل واقعة هامة فى تاريخ الأديان إليهم ، وقد مر بنا أنهم ادعوا أن أبا الأنبياء جميعا - إبراهيم عليه السلام - كان منهم .

---

(١) وقد قال بهذا الرأى غير واحد من السلف ، ويظهر أنهم وقعوا تحت تأثير كعب الأحبار وتفسير التوراة .

(٢) ابن كثير : قصص الأنبياء : ص ١٥٠ . كما أن القرآن تحدث عن قصة الذبيح بأنه لما بلغ معه السعى قص عليه الرؤيا ، وهذا يعنى أنه كان فتى صغيرا ، وقد أنجب إسحق يعقوب ، فكيف يصح ذلك .

وأما حديث القرآن الكريم عن « إسماعيل » فيظهر منه أنه حديث قصير بغير ما كان عليه حديثه عن أبيه عليه السلام ، ومن الواضح أن الفرق في طبيعة المواجهة بين الرسولين الكريمين وبين قومهما [١] اقتضت ذلك ، فإبراهيم - كما تقدم - واجه كل جحافل الشرك والوثنية فى بيئات متعددة . لقد تحدث القرآن الكريم عن إسماعيل النبي الرسول ، الذى كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وأنه كان عند ربه مرضيا ، قال تعالى : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » (مريم : ٥٥) كما تحدث عنه من قبل ذلك فى قصة الذبح ورفع القواعد من البيت الحرام الخ . وكان حديثه - غالبا - مقترنا بحديثه عن أبيه .

ويعنينا أن نشير هنا إلى مسألة جرت على لسان بعض المستشرقين وتبعه فيها بعض أدعياء العلم والثقافة من أبناء العربية والإسلام ، هى : نفى وجود إبراهيم وإسماعيل تاريخيا . بدعوى أنه لم يكن فى العصر الذى يقال إنهما ظهرا فيه ، من يكتب التاريخ ويدونه ، ولاشك فى أن هذا القول يعنى صراحة عدم الاعتراف بحديث القرآن عنهما ، الذى يلزم منه عدم الاعتراف بالقرآن نفسه ، ولما كان هذا القول بغير دليل ، فإنه لايستحق المناقشة ، وإنما ذكرناه لنؤكد أن بعض المستشرقين إذا طوعت لهم أنفسهم الطعن الظاهر أو الخفى فى أعز مقدساتنا وهو القرآن الكريم . فكيف يجوز ذلك على من ينتمى إلى العروبة والإسلام ؟ ثم من جانب آخر، يتصل بالمنهج العلمى أولا وأخيرا : كيف تلقى الدعوى عارية عن أدلتها مع أن ذلك مخالف لأبسط قواعد المنهج العلمى ؟ [٢] .

ثم إن التعليل الذى سيق كتبرير لهذا الرأى من السذاجة بمكان ، إذ يقرر أن

---

(١) يذكر المؤرخون أن الله أرسل إسماعيل إلى قبائل اليمن وإلى العماليق ، وأن هذه القبائل لم تكن كقوم أبيه تحديا للحق وإصرارا على مواريث الأجداد الدينية .

(٢) النجار : قصص الأنبياء ص ١٠٨ . غير أنه لم يذكر اسم من ذهب إلى هذا الرأى ولعله يقصد : طه حسين فى كتابه عن الأدب الجاهلى ، الذى قلد فيه مرجليوث ، القائل بهذا القول .

اليهود هم الذين اخترعوا وجود إبراهيم وإسماعيل بعد الهجرة ليتقربوا إلى العرب . وإذا كان ذكر هذين النبيين الكريين في سفر التكوين أمرا لاينكره كل من قرأهما ، فكيف يقال إنه من اختراع اليهود بعد الهجرة ، إن هذا السفر قد ترجم سنة ٢٨٠ قبل الميلاد من العبرية إلى اليونانية ، قبل الهجرة بتسعة قرون تقريبا ، وفيه قصة إبراهيم وإسماعيل ، وعرف ذلك فى العالم المتحضر آنذاك . من ثم لايقبل العقل ولا التاريخ ولا القرآن الكريم هذا الرأى ، اللهم إنه التعالم الذى يورد أهله موارد التهلكة .

٦ - إسحق عليه السلام

ذكر القرآن الكريم « إسحق » بطريقة تتناسب مع حجم بيئته ومابذله فى سبيل دعوة ربه ، تقترب إلى حد كبير من الطريقة التى عرض بها قصة إسماعيل عليه السلام . لقد تحدث عن نبوته الشريفة ، قارنا اسمه باسم أبيه إبراهيم عليه السلام وابنه يعقوب فقال : « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) (ص : ٤٥-٤٧) ويقول أيضا : « وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين » (الصافات : ١١٢) والضمير فى الآية عائد على إبراهيم عليه السلام .

وجمهور المؤرخين علي أنه أرسل إلى نفر فى أرض الكنعانيين فى نفس البيئة التى عاش فيها أبوه إبراهيم عليه السلام . ويبدو من عدم التطويل فى قصته أن القدر الذى حكيت به كان مناسبا للواقع ، وهذا يعنى أن بيئته لم تكن من البيئات التى تزخر فيها كل ألوان الوثنيات كما كان الحال فى البيئة التى ظهر فيها والده . ويمكن القول بأن المعاناة الشديدة التى عاناها الوالد الكريم قد خففت من وطأة تلك الوثنيات ، أو على أقل تقدير ، قد هيأت النفوس لتقبل مايدعوهم إليه رسولهم . أو الإعراض عنه ولكن فى صمت دون مشاغبة .

والآية التى امتن الله بها على إبراهيم عليه السلام ، وهى قوله تعالى : « .. وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم

لسان صدق عليا » (مريم :٤٩، ٥٠) تشير إلى أن القوم الذين أرسل إليهم كانوا ودعاء إلى حد كبير ، لأن من معانى « اللسان الصدق » أنه الذى يصدق به من يسمعه ، هذا بالإضافة إلى المعنى الأصلى ، وهو الذى يلهج دائما بالصدق ، الذى يكون الإخبار فيه مطابقا للواقع .

ثم إن سلسلة الرسالات الإلهية إنما تتسع وتضيق حلقاتها بحسب ماتلامسه كل واحدة منها من الواقع الذى تجىء لعلاجه ،ولاشك فى أن الرسالة التى تتسع دائرة تأثيرها فى الواقع ، تكون ذات أثر يظهر فى واقع البيئة التى تكون للرسالة التى تليها . وهذا يعنى أن رسالة إبراهيم عليه السلام ذات السعة النسبية والعمق فى التأثير ، الذى واجه ألوانا من التحدى متعددة ، كانت قد هيأت السبيل أمام ماتلاها من رسالات ، وكانت رسالة إسحق هى التى أردفتها فى سلسلة الرسالات الظاهرة .

٧ - يعقوب عليه السلام

بنفس الدرجة تقريبا التي قص بها القرآن الكريم قصة والده « إسحق » يقص علينا قصة « يعقوب » وبنفس التعليل الذى ذكرناه نحن آنفا ، فالقرآن يتحدث عن بشرى إبراهيم بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، ثم يتحدث عن نبوته واصطفائه كما تحدث عن وصيته عليه السلام لبنيه بقوله : « يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ثم أخيرا : بعض جوانب قصة يوسف عليه السلام مما يتصل بوالده حين تصرف إخوته معه تصرفهم المعروف بإلقائه فى الجب والقول بأن الذئب قد أكله ، الخ . وفى حديثنا عن قصة يوسف مايلقى الضوء على قصة أبيه أيضا .

٨ - يوسف عليه السلام

فى قصة « يوسف » عليه السلام مواقف تحتاج إلى تحليل واستنباط ، ذلكم لأنها لامست عدة جوانب تتصل بحياته الكريمة قبل الرسالة وبعدها. من تلك الجوانب : الرؤيا التى رأى فيها أحد عشر كوكبا ، ورأى الشمس والقمر يسجدان

له، كما جاء فى صدر السورة ، موقف إخوته منه وحسدهم له ، ثم موقفه من امرأة العزيز حين راودته عن نفسه ، وهمه بها لولا أن رأى برهان ربه واستعصامه به ، ثم اتهامه الذى ساقه إلى ساحة السجن وهو منه برىء ، ثم ماذا عمل حين كان بين الأسوار؟ وهو دعوته إلى توحيد الله سبحانه ، ثم ظهور براءته ، ثم تمكينه من بعض جوانب القيادة فى مجال « التخزين » و « الادخار » وظهور خبرته الفطرية فى ذلك، ثم ماذا صنع مع إخوته حين وفدوا عليه يطلبون الميرة الخ ، مما سنلقي عليه الضوء باختصار لنستخلص منه العبرة والدرس .

١ - البشارة المبكرة :

رأى يوسف عليه السلام فى منامه وهو صغير رؤيا قصها على أبيه ، هى : أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رآها ساجدة له ، فأشار عليه الوالد الكريم ألا يقص هذه الرؤيا على إخوته من أبيه ، وفى هذه الإشارة دلالة على مافيها من خير ليوسف عليه السلام . وسياق الآيات يظهر لنا أن يوسف كان موضع تقدير وحب زائدين من أبيه ، ويعلل المؤرخون ذلك بوفاة أمه وهو صغير . ثم أفصحت الآيات التى جاءت بعد ذلك عن المصير الذى سيكون عليه يوسف، وذلك فى قوله : «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك حكيم عليم » (يوسف : ٦) إنه سيكون على إثر آبائه - يعقوب - إسحق - إبراهيم - فى موكب الأنبياء والمرسلين . وأما " تعبير " الأحد عشر كوكبا ، فإن بعض المفسرين يذهب إلى أن المراد بهم : أبناء يعقوب الأحد عشرة ، إخوة يوسف من الأب ، وأنهم كانوا أنبياء كذلك ، ولايعترض على كونهم أنبياء بما فعلوه بأخيهم ، حين ألقوا به فى غيابة الجب حسدا وحقدا عليه ، وكذبوا على أبيهم حين قالوا له : لقد أكله الذئب وجاءوا على قميصه بدم كذب . ذلك لأن هذه الأحداث كانت منهم قبل البعثة ، ومن فسر المسألة بذلك يرى أن العصمة للأنبياء لاتكون إلا بعد البعثة [١] .

---

(١) الفخر الرازى : تفسير حـ ٩ ص ٩٢ من المجلد الثامن عشر .

٢ - يوسف فى غيابة الجب :

ألقى إخوة يوسف به فى غيابة الجب ، بعد أن دلهم على ذلك أحدهم كبديل عن القتل حتى يخلو لهم وجه أبيهم ، ويكونوا صالحين من بعده . وتشير الآية بعد ذلك إلى أنه فى أثناء تنفيذ هذه المؤامرة أوحى الله إليه أن ينبئهم بأمرهم الذى أقدموا عليه دون أن يشعروا ، فما حقيقة هذا الإيحاء ؟ .

يذكر الفخر الرازى فى تفسيره أن المحققين يفسرون هذا الإيحاء بالتكليف بالنبوة، أى أن يوسف عليه السلام قد اجتباه الله سبحانه وتعالى لتلك المهمة من هذه الواقعة . وأنه كان آنذاك بالغا ، له من العمر سبعة عشر عاما على أحد القولين ، أما الآخر فيرى أصحابه أنه كان صبيا ، ولكن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحى والنبوة ، كما كان الحال فى عيسى عليه السلام [١] .

والحق أن هذا هو البلاء المبين فى أعلا صوره ، فتى لايزال فى عمر الزهور ، يحقد عليه إخوته ، وهم أقرب الناس إليه ، ويتصرفون معه هذا التصرف ، الذى ازدوج فيه الإثم والمعصية ، نفس الفعل بأخيهم - الإلقاء فى الجب - مع الكذب على الوالد الحانى على ولده ، ولكنها إرادة الله وحكمته ، حين يريد تمحيص نفسية من يختارهم لجلائل الأمور وأعظمها ، وهل هناك أجل وأعظم من تحمل عبء الرسالة الإلهية ؟

إن تاريخ رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، سلسلة من المشاق والمتاعب والابتلاءات على كل مستوياتها ، ولم يكن يوسف عليه السلام بدعا منهم ، ولم يكن الإلقاء فى الجب إلا واحدا من اختبارات أخرى ، تحملها بقوة المؤمن ، المعتصم بحبل الله ، الواثق من أنه سبحانه وتعالى لن يتخلى عن عباده المرسلين ، بل والصالحين من غيرهم ، حين يكونون أهلا لنصرته ومعونته .

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٢.

٣ - يوسف خارج الجب :

تذكر الآيات الكريمة أن قافلة مرت على الجب وكانت بحاجة إلى الماء فأرسلوا واردهم كي يحضر لهم بعضا منه ، فلما أدلى دلوه وأخرجه وجد غلاما متعلقا به ، فقال : يابشرى هذا غلام ، كانت القافلة من العرب الإسماعيلين القادمين من أرض الكنعانيين متوجهين إلى مصر ، حملوا معهم الغلام ، وباعوه فى سوقها لرئيس شرطتها ، الذى أطلق عليه القرآن الكريم لقب العزيز واسمه كما تذكر كتب التاريخ « فوطيفار » وكان ذلك على وجه التقريب سنة ١٧٢٩ قبل ميلاد المسيح .

٤ - امتحان من نوع آخر :

فى بيت العزيز هامت بيوسف امرأته ، وشغفها حبا ، لما كان يتمتع به من جمال فائق ، حتى قيل إن الحسن كله نصف بين يوسف وبقية البشر ، وكان حسنه هذا ، سبب اختباره هذه المرة ، وهو كما قال الشاعر العربى :

وكم رمت قسمات الحسن صاحبها ... وأتعبت قصبات السبق حاويها

وزهرة الروض لولا حسن رونقها ... لما استطالت عليها كف جانيها

ونطوى التفصيل لنصل إلى ذروة الموقف الذى يمس الشرف والكرامة للرجل والمرأة على السواء ، وإذا كان هذا في حق البشر العاديين ، فكيف يكون فى حق الأنبياء والمرسلين، إذا قلنا إنه قد أوحى إليه قبل ذلك كما ذكرنا قبلا ؟ لقد راودته امرأة العزيز عن نفسه ، وهيأت له أسباب اللقاء ، ولكنه قال : معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى ، يقصد بذلك مخدومه الذى كان يعامله معاملة الأب الرحيم لابنه البار وانتهى الموقف إلى أن قد قميصه من دبر - ليكون ذلك شاهدا ودليلا على براءته عندما استبقا الباب - ونقف الآن أمام الآية التى كثر حولها الخلاف فى هذا المشهد من القصة ، وهى قوله تعالى : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » (يوسف: ٢٤).

والخلاف فى تفسير الآية دائر بين قطبين :

أحدهما : يفسر « الهم » الوارد فى الآية بالإقدام على الفعل -فعل الفاحشة - إقداما وقف بصاحبيه إلى بداية الوقاع نفسه ، إلا أنه لم يقع عندما رأى يوسف عليه السلام برهان ربه . وهذا التفسير نقله الواحدى عن بعض الصحابة ، منهم : على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ، ويرى أنه قول جمهور المفسرين .

الثانى : ينفى عنه كل مايسبق وقوع الفاحشة، إلا ماكان حديثا للنفس ، ويعنى هذا القول أن التفسير السابق « للهم » قد جاء على خلاف الحقيقة ، لأن الهم بمعناه الحقيقى فى نظر أصحاب التفسيرالثانى ، هو الخاطر الذى تتحرك له النفس فقط عند وجود الدواعى ، ولم يخرج إلى الفعل أو مقدماته . وهذا التفسير هوالذى ترتاح إليه النفس ، والذى ارتفع من نفس يوسف عليه السلام لوجود برهان الحق تبارك وتعالى ، إنما هو ذلك المعنى النفسى الذى لم يتجاوز الخاطر السريع الذى يزول عند وجود المانع . وأما على التفسير الأول فيكون المرتفع هو مقدمات الفعل الذى تسبقه مباشرة .

ويذكر « الرازى »[1] أن أصحاب التفسير الأول لم يعتمدوا في تفسيرهم على فهم دقيق للمقام ، وما جاء فيه من الآيات ، كما لم يذكروا حديثا صحيحا يفسر قولهم . وذكر عدة وجوه كأدلة على التفسير الثاني الذي نقره ، وهذا مايليق بحق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وإذا كان أصحاب التفسير الأول يريدون أن يثبتوا أن الهم يشمل ماقبل الفاحشة ، ليؤكدوا بشرية الرسل ، وأنهم ليسوا منزوعى الشهوة فقد فات هؤلاء أن إثبات بشرية الرسل لايمكن أن يكون على غير مقتضى الحكمة الإلهية ، التى تعصم هؤلاء من الوقوع فى الكبائر ، لأن مقدمات الفاحشة بالمعنى الشرعي تدخل في دائرة المحرم ، لأنها سبيل إليه وهى محرمة كذلك ، لأن السبيل إلى الحرام حرام . ثم من جانب آخر : أليس كافيا أن يفسر " الهم " بتحرك

(١) التفسير جـ ٩ ص ١٨ من المجلد الثامن عشر .

الخاطر أو حديث النفس كما ذكرنا ؟ ويكون قطع هذا الخاطر لوجود البرهان الإلهى أمرا طبيعيا ؟ يؤكد هذا المعنى ، أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى تفسير البرهان الإلهى قوله : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » ، فظاهر الآية يدل على أن المصروف عن يوسف عليه السلام كل سوء وكذا الفحشاء ، أو مايكون مقدمة بخلاف الخواطر النفسية فهذه من الأمور المرفوعة عن البشرية ، لأنها تكون ترجمة عن طبيعتها .

وأما التفسير الساذج للهم فى هذه الآية الكريمة من جانب يوسف عليه السلام بأنه هم ترك وهم فعل من جانب امرأة العزيز فلا يقبل لأن السياق يرفضه ، فبرهان الحق تبارك وتعالى هو الذى أزال الهم ، ومعلوم أن « لولا » أداة امتناع لوجود ، أى لولا البرهان لتحقق الهم بالمعنى الذى ذكرناه ، ومعلوم كذلك أن هم الترك يعني العدم ، وليس هذا مما يدخل فى عمل « لولا » كما يقول النحويون .

٥ - يوسف عليه السلام فى السجن :

الشواهد على براءة يوسف عليه السلام كثيرة ، لعل على رأسها : اعتراف صاحبة الدعوى ، حينما قالت : أنا راودته عن نفسه فاستعصم ، ثم شهادة من كان من أهلها حين جعل من قد القميص من الدبر دليلا أو قرينة على براءته ، ثم أخيرا البرهان الربانى ، إلا أن الحق تبارك وتعالى أراد أن يمحص نفس يوسف أكثر وأكثر، ليرينا أن أصحاب العزائم القوية والنفوس النقية لاتثنيهم عن أهدافهم، تلك العقبات التى توضع في طريقهم ، بل إنها تزيدهم صلابة وقوة ، ثم من المعقول جدا أن يكون لديهم نوع من الشعور الواضح ، بأن هذه التمحيصات إنما هى مظهر للإرادة والحكمة الإلهية ، حتى تكون سببا معقولا لتأكيد صحة الطريق الذى يسيرون فيه .

إن السياق القرآنى يظهر الآيات الدالة على براءة يوسف عليه السلام إلا أن السجن كان مصيره على الرغم من ذلك كله ، قال تعالى : « ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين » (يوسف : ٣٥)

وفى السجن الذى آثره علي مايدعونه إليه دخل معه فتيان ، شهدا له بأنه من المحسنين ، أى العارفين بحقائق الأمور ، أو المدركين لما تحمله الرؤى والمنامات من رموز تدل على مرموز إليه ، وقد رأى أحدهما في منامه نفسه يعصر خمرا ، والآخر يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه . وهنا يظهر يوسف عليه السلام موقفه الحقيقي من الحق وأهله والباطل وزمرته ، بعد أن أجابهما إلى مطلبهما : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى .. » « إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى ابراهيم وإسحق ويعقوب وماكان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون » (يوسف : ٣٨) .

وفى الآيات السابقة دلالة واضحة على أن تعبير « يوسف» عليه السلام للرؤى ، ليس عن اجتهاد منه ، ولا يحصل عن طريق القوة المتخيلة فى الإنسان كما يقول الفلاسفة ، تلك التى تكون سبيله إلى العقل الفعال ، المنتقش فيه كل العلوم ، بل إن الأمر هنا يرجع إلي تعليم الحق تبارك وتعالى إياه ، أما كيفية ذلك التعليم فلا قبل للعقل به فقد يكون بنوع من الايحاء أو بتهيئة النفس للاطلاع على المراد في اللوح المحفوظ الخ . والمهم أن هذا النوع من التعبير ليس من قبيل الاجتهاد المقطوع عن مدد الحق تبارك وتعالى ، والذى من شأنه أن يخطئ ويصيب . ومما يؤكد هذا مافسر به عليه السلام رؤيا صاحبى السجن ، ورؤيا الملك حين رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . ولعل أهم مسألة تقتضى الوقوف أمامها طويلا ما حدث منه عليه السلام داخل السجن . لقد رأى أنّ المحنة لاينبغى أن تثنيه عن عزمه ، وأن ظلامها لايحول بينه وبين النور الذى يحمل بين جوانبه والذى يعصمه من أن يخرج إلي غيره ، وهكذادائما أصحاب الرسالات الكبرى يجعلون من محنتهم منحة، ومن اختبارهم نجاحا ومن العقبات التى تعترض طريقهم ، قوة تجعلهم يتخطونها وماسواها . لقد ناقش صاحبيه فى السجن في قضية « الألوهية » و « الربوبية » : لمن تكون ؟من هو الأحق بها ؟ وما المعيار الذى ينبغى أن يكون في إدراك الحقيقة المتصلة بهذا المقام ؟ ، إنه يقول بعد أن بين

لصاحبيه أن ملة آبائه هى طريقه : « ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان إن الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » (يوسف : ٣٩ ، ٤٠) .

إنها دعوة صريحة إلى « التوحيد » بكل معانيه والمقصود بتقرير هذه القضية أعم من أن يكون موجها إلى صاحبى السجن ، فلو كان خطابه في ملأ من البشر لكان بنفس الصيغة ، وهنا يظهر أن الدعاة إلى الحق لايعنيهم مدى الدوائر التى تقال فيها كلمتهم ، وإنما يعنيهم فى المقام الأول أن تتأكد هذه الدعوة فى الواقع . النفسى والوجودى ، ثم إن من يؤمن بها ، سينطلق داعية إليها لأنها سرت فى وجدانه وكيانه كله ، والإيمان بها يحمله على أن يبلغها للآخرين .

٦ - يوسف عليه السلام خارج السجن :

تضاعفت المحنة على يوسف عليه السلام حين قال لأحد صاحبيه عند خروجه من السجن « اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » إلى أن رأى الملك مارأى فتذكر ذلك الناجى يوسف فذكره له فأخرجه من السجن ليعبر الرؤيا ، بعد أن شرط عليهم ألا يخرج إلا بعد أن تظهر براءته مما سجن من أجله وقد ظهرت بالفعل تلك البراءة ، واعترفت امرأة العزيز بما فعلت ، يتجلي ذلك في وصفها له بأنه من الصادقين وقوله « ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين » .

وقد استخلصه الملك لنفسه ، وجعله على خزائن الأرض كما طلب ، وقد برر ذلك بأنه « حفيظ عليم » . ونطوى أحداث القصة التي تلت ذلك لنصل إلى واقعة بعينها تتصل بعصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ذلكم لأن يوسف قد جعل السقاية فى رحل أخيه وشقيقه « بنيامين » دون أن يعلم ، كحيلة يريد بها استبقاءه معه ، « ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون » ويبرز هنا سؤال : هل كان هذا القول بأمر من يوسف عليه السلام أم لا ؟ وعلى كلا التقديرين فإن يوسف هنا يكون متهما ،

ذلكم لأنه إن كان بأمره فكيف يتهم البرىء بأنه سارق ، وهو الذى وضع السقاية في رحله ؟ إن هذا كذب لايليق بالأنبياء ، وإن كان الثانى فلماذا لم يظهر براءة المتهم مما ينسب إليه ؟

والحق أن الواقع يبرئ يوسف من هذه التهمة على كلا التقديرين ، ذلكم لأن السياق وما تحمله القصة من قرائن يؤكد ذلك ، فهو عليه السلام عندما طلب من إخوته فى المرة الأولى أن يحضروا معهم من قابل أخا لهم من أبيهم ، كان يضمر أن يبقيه معه ، فلجأ إلى هذه الحيلة ، وهو يعلم براءته ، وتقول بعض كتب التفسير بأن أخا يوسف كان على علم بذلك ، حين أظهر له أنه أخوه، ومن ثم لايكون هذا ذنبا ، ولكن حيلة ، وعلى أية حال فهناك أكثر من تفسير لهذه الواقعة ، كلها تبرئ يوسف من الكذب أو السكوت عليه حين اتهم إخوته بالسرقة .

٧ - دخول بنى إسرائيل مصر :

استقدم يوسف عليه السلام أباه إلى مصر ، فقد أعطى إخوته قميصه ليلقوه على وجهه بعد أن ابيضت عيناه من الحزن على يوسف وأخيه فارتد بصيرا ، فلما دخلوا علي يوسف آوى إليه أبويه ، وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفعهما على العرش وخروا له سجدا لتتحقق الرؤيا التى رآها وهو صغير . وقد ظل بنو إسرائيل فى مصر إلى أن خرج بهم موسى عليه السلام بعد ذلك .

ويمكن استخلاص الحقائق الآتية من حياة يوسف عليه السلام :

١ - كانت حياة « يوسف» عليه السلام لونا من ألوان الابتلاءات الربانية وانتهت بتمكينه فى الأرض فأدى رسالته الدينية والعملية على أتم مايكون الأداء حفظا وخبرة .

٢ - يعد من نماذج الأنبياء العمليين الذين أثرت بهم الحياة العملية ، وبخاصة فى جانبيها : الاقتصادى والإدارى .

٣ - أن دين الله ليس شعائر تؤدى فحسب، ولكنه قيادة طاهرة للحياة وأن المشاكل

الاجتماعية من أهم مايحرص الدين على معالجته بالطريقة الصحيحة .

٤ - أن أصحاب الرسالات السامية يستعذبون فى تبليغ رسالتهم كل مايقابلهم من محن وابتلاءات ، لأنهم ألهموا أن طريق الحق ليس معبدا .

٥ - أن الرسالات الإلهية سلسلة متتابعة الحلقات ، وهذا من فضل الله ورحمته بعباده ، وبيان لقصور العقل البشري وعجزه عن قيادة الحياة بطريقة صحيحة .

٦ - أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء - كما أشرنا - ومن مظاهر ذلك أن "يوسف" عليه السلام قد حمد الله وشكر له على ما امتن به عليه ورجاه أن يلقاه مسلما ويلحقه بالصالحين كما يصور ذلك قوله تعالى : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » (يوسف : ١٠١) .

٧ - كانت تلك الآية نهاية القصة العظيمة التى جسدت مواقف ذلك النبى الكريم ، لتكون نوعا من ذكر الماضى واستحضاره أمام صاحب الرسالة الخاتمة « محمد » صلى الله عليه وسلم تحمله على الصبر وتحمل أذى قومه وما يصيبه فى سبيل تبليغ رسالته ، لتقرر أن العاقبة للصابرين المتقين ، وعلى رأسهم أصحاب هذه الرسالات العظيمة .

٨ - يظهر القانون الإلهى العظيم فى نصرة رسله عليهم الصلاة عندما يستيئسون ويظنون أنهم كذبوا ، على حين لايرد بأسه عن القوم المجرمين ، المعرضين عن دعوة الحق على أيدى رسل الله ومن يخلفهم من الدعاة والهداة فى كل زمان ومكان .

٩ - موسى عليه السلام

بين يوسف وموسى من الأنبياء نبى الله شعيب عليه السلام وكذلك نبى الله أيوب عليه السلام ثم ذو الكفل ، على مايذكر جمهور المفسرين والمؤرخين وكتاب

قصص الأنبياء ، ولم نشأ أن نتحدث عنهم ، لأننا فى الحديث عن الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما نتحدث عن أصحاب المواقف الصعبة ، الذين وقف منهم أقوامهم ومن جاءوا إليهم موقف المستنكر ، بل والمكذب .

وقد آثرت الحديث عن موسى ، لأن قصته تبرز قمة ما انطوت عليه نفوس فرعون وقومه ثم بنى إسرائيل من حقد وحسد وغرور ، والتواء وتحايل على منهج الله . واتباع لهوى النفس فى مقابلة الخطاب الربانى ، وقياس الحياة بأرخص المقاييس وأدناها وهو المقياس المادى .

ومما لاشك فيه أن الحديث عن موسى هو حديث عن هارون أيضا ، إذ كان وزيره وردءه ، ولعل فى طلب موسى عليه السلام ذلك ، من الحق تبارك وتعالى حين بعثه إلى فرعون وقومه ماينبئنا عن شعور ذلك النبى « موسى » عليه السلام بثقل المهمة، لافى ذاتها ، وإنما بحسب من أرسل إليهم ، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى » (القصص : ٣٤) فكان الخطاب الإلهى : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » (القصص : ٣٥)

لعل خير ماأبدأ به حديثى عن موسى عليه السلام ، هذه الآية التى كشفت عن النفسية التى تكره الحق دائما ، كما تكره الداعين إليه ، قال تعالى : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » (غافر : ٣٤) والحديث - كما يبرزه السياق - على لسان مؤمن آل فرعون ، والخطاب موجه إلى فرعون وقومه ، وكل من كان معه على طريق الغواية والضلال .

والآية تبين أن الصادين عن منهج الله ، يكرهون كل من يذكرهم به ، ولايتمنون وجوده ، ولكن أنى لهم ذلك ، ورحمة الله بعباده ، فوق مايرغبون ، ولطفه بهم لايتوقف على إرادتهم ، لأنه بهم رءوف رحيم .

والمتتبع لحديث القرآن الكريم عن موسى عليه السلام ، يرى أنه أرسل أولا : إلى فروعون وقومه . كما قا تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وماكيد الكافرين إلا فى ضلال » (غافر : ٢٣ - ٢٥) .

ثم استمرت دعوته إلى بنى إسرائيل بعد أن خرج بهم من مصر ، إلى طور سينا ، ولما ذهب لميقات ربه وخلف فيهم أخاه هارون ، وجدهم قد اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات ، وقد كشفت دعوته لهم أن يدخلوا معه الأرض المقدسة ، فأبوا وادعوا أن فيها قوما جبارين ، عن سوء عقيدتهم فى ربهم ونبيهم ، فكان جزاؤهم أن تاهوا فى الأرض أربعين سنة . والآن نقف مع الآيات التى تحدثت عن الحوار الذى تم بين موسى وأخيه هارون من طرف ، وفرعون وقومه من طرف آخر ، ثم نعقبها بما توجه به إلى بنى إسرائيل مما يتصل بأصول العقيدة .

أولا : الآيات التى تحدثت عن خطاب موسى لفرعون :

مهد القرآن الكريم لهذه الآيات بواقعة اختياره واجتبائه للرسالة فى الآيات من ٩- ٢٣ من (سورة طه) ففيها :

١ - ذهابه إلى النار عندما كان بالوادى المقدس ، يلتمس منها جذوة أو يجد عليها هدى يدله على الطريق إلى مصر .

٢ - مناداة الحق تبارك وتعالى له وإخباره بأنه اختاره واجتباه .

٣ - تقرير الوحدانية المطلقة لله رب العالمين عقيدة ، وعبادة ، وبيان صدق قيام الساعة مع إخفاء موعدها ، ومايترتب عليها بعد ذلك من بعث ثم حساب لتجزى كل نفس بما تسعى .

٤ - الإشارة إلى أن الدعوة إلى الحق - ومنها الإيمان بالساعة - ينبغى أن تكون

هدف الدعاة وأن الصادين عنها ينبغي ألا يؤبه بهم ، وفي غير ذلك هلاك للدعاة أنفسهم .

٥ - إبراز الآيات التى ستكون عدة موسى أمام فرعون ومنها «اليد» و «العصا» .

ثم أردف القرآن الكريم حديثه قائلا : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » ومظهر طغيانه تلك العداوة التى كانت بينه وبين بنى إسرائيل ، فقد كانت فيهم بقية من دين تأبى الظلم والطغيان الذى يمثله الجبابرة والطواغيت أمثال فرعون . لقد كان يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم .

٦ - دعا نبى الله موسى ربه أن يشرح صدره وييسر أمره ، وأن يحل عقدة من لسانه حتى يفقه الناس قوله ، ثم طلب من ربه أن يجعل معه أخاه هارون فاستجاب الله له ، وتبرز الآيات أن هذا المطلب لم يكن من أجل الاستزادة فى جانب القوة بالقول والحجة فحسب ، بل فى الاستعانة على ذكر الله تعالى وتسبيحه .

٧ - تبرز الآيات بعد ذلك تخوف نبى الله موسى عليه السلام من فرعون وقومه ، ولكن الحق تبارك يطمئنه قائلا : «لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى » وليس لأحد أن يحتج هنا بأن هذا التردد والتوجس والخوف ماكان ينبغي أن يصدر من رسول من رسل الله . لأن الجانب البشرى كان هو المعبر عن هذه الطبيعة . وهذا يدلنا على أن عون الله ومدده والإيمان به ، والثقة التامة فى نصره للمؤمنين ، هى التى تكون مدخلا طبيعيا للأمن والاستقرار .

ماذ قال موسى وهارون لفرعون ؟ :

قالا له : « إنا رسل ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولاتعذبهم » ومعنا الآيات الدالة على صدق ماتدعو إليه . وهو :

أ - الألوهية والربوبية لاتكون إلا للإله الحق والرب الحق ، الذى خلق كل شىء .

وفى هذا تعريض بالربوبية المزعومة التى كان يقول بها فرعون .

ب - أن السلام والأمن لايكونان إلا لمن اتبع الهدى ، طريق الحق سبحانه وتعالى .

حـ - أن علم الغيب : الماضى والحاضر والمستقبل لايكون إلا لله وحده ، لا لساحر ولا لكاهن .

د - لم يذعن فرعون لما قدمه موسى من آيات دالة على صدق دعواه ، ومحاولة المعارضة لبعض تلك الآيات ، حين جمع السحرة لميقات يوم معلوم ، كى يردوا على موسى آيته وانتهاء الموقف لصالح موسى عليه السلام ، لأن ماجاءهم به آية من عند الله ، لايمكن أن تعارض بأعمال السحر والشعوذة ، وانتقال السحرة أو أكثرهم من موقف المعارض المكذب إلى موقف المؤمن الواثق . على الرغم من تهديد فرعون لهم ، ومجابهته بقولهم : « فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » (طه : ٧٢ ، ٧٣). وهكذا ينتصر الحق فى النهاية بنصرة الله له ولأصحابه ، وينكشف الزيف حين تصبح القوة الغشوم التى تحميه لامعنى لها أمام صلابة الحق وقوته .

الإيحاء إلى موسى أن يخرج ببنى إسرائيل من مصر :

أوحى الله إلى نبيه موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر ويتوجه بهم إلى طور سينا ، فلما علم فرعون بالأمر اتبعهم هو وجنوده ، ولكن الحق تبارك وتعالى يطبق عليه البحر ، حتى إذا مالاح له الموت قال : « آمنت أنه لا اله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » ولكن الله سبحانه وتعالى لايقبل هذا النوع من الإيمان المزيف فينجيه ببدنه ليكون لمن خلفه آية .

الآيات التي جاء بها موسى لفرعون وقومه :

ذكر القرآن الكريم أن موسى جاء إلى فرعون بتسع آيات بينات هي : اليد التي

أدخلها فى جيبه ثم أخرجها بيضاء من غير سوء . والعصا التى انقلبت حية تلقف مايصنعه السحرة وهما آيتان من آيات الله التى لايمكن أن تعارض ، وإلا لكان فى مقدور السحرة أن يفعلوا ذلك ، وقد أغراهم فرعون بكل أنواع الإغراءات .

والحق أن هاتين الآيتين كانتا تحديا لفرعون وقومه ، أراد الحق تبارك وتعالى أن يظهر بهما أن ماجاء به موسى إنما هو وحى من الله تعالى ، وأن دليل صدقه فى دعواه ، هو تلكما الآيتان وماسواهما ، وإنما كانتا كذلك حتى تكون أدخل فى الدلالة على صدق الدعوى ، حيث إن قوم فرعون كانوا مشهورين بالسحر ، فكان ذلك من قبيل ما نبغ فيه القوم من حيث الشكل ، لامن حيث الحقيقة ، والنتيجة قد أظهرها القرآن الكريم حين خر السحرة سجدا قالوا : آمنا برب هارون وموسى ، وهذا منهم كان متمشيا مع منطق العقل والواقع ، إذ لوكان ماجاء به موسى من قبيل السحر لعارضوه ، فلما تبين لهم أنه ليس كذلك ، علموا أنه آية من عند الله تبارك وتعالى تدل على صدق دعوى الرسالة التى جاء بها موسى .

ويمكن أن تنحصر معجزة موسى فى هاتين الآيتين ، أما الآيات الأخرى فكانت من قبيل الأخذ بالذنب ، وهى وإن لم تدخل فى باب التعجيز والتحدى ، إلا أنها دليل واضح على صدق دعوى الرسالة ، لأنها ماكانت كذلك إلا بسبب إعراضهم عن الحق الذى جاءهم به رسولهم ، وهذا هو الفرق الواضح بين المعجزة والآية . وقد أجرى الحق سنته أن تكون آيات صدق الرسالات متنوعة من حيث شكلها ومضمونها، فتارة تأتى مقرونة بدعوى الرسالة ، طالبة من القوم معارضتها، فإن جاءت كذلك سميت آية وسميت معجزة كذلك ، وتارة تأتى نتيجة إعراض القوم فتكون من قبيل الآيات الرادعة ، الآخذة على أيدى القوم بذنبهم ، وقد تسمى معجزة على سبيل المجاز ، لأن المعجزة بالمعنى الحقيقى لاتكون إلا عند طلب المعارضة والتحدى .

آية الرجز :

تعددت صور العذاب التى أخذ الله بها فرعون وقومه ، لمعارضتهم منهج الله الذي جاء به موسى عليه السلام ، فكان من هذه الصور ، سنوات القحط والجدب ،

ونقص الثمرات ، والطوفان الذي أتلف الله به الحرث ، والجراد الذى كان يأكل الثمار ، والقمل الذى يقض مضجع من يبتلى به ، والضفادع ، التى كانت توجد فى أمتعتهم وأطعمتهم كنوع من تكدير عيشهم . وكان آخر هذه الصور أن استحال ماء النيل إلى دم ، فلم يستطيعوا أن يستفيدوا منه فى شربهم وسقى زروعهم ومواشيهم.

وقد جمع القرآن الكريم هذه الصور في قوله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة . قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بماعهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ، فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (الأعراف : ١٣٠ - ١٣٦).

والآيات صريحة فى أن هذه الانتقامات المتعددة المراتب والأشكال إنما كانت بسبب موقف فرعون وقومه من الحق الواضح الذى جاءهم به موسى ، والانتقام الإلهى لا يتصور إلا بعد أن تستنفد صور العلاج كلها ، لأن الحق سبحانه لايعجل للناس عذابهم ، بل يجعل من مواقفهم حجة عليهم ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى موصوفا بالرحمة ، وهى من صفات الجمال ، فإنه كذلك موصوف بالغضب والانتقام ، وهما من صفات الجلال ، أى القهر والسيطرة والغلبة . وكون الرحمة تسبق الغضب ، لايعنى أن تختل الموازين ، وإنما يقصد بذلك : ترك الفرصة إلى آخر مدى أمام العصاة لعلهم يرشدون ، حتى إذا أخذوا بالعذاب كان ذلك عدلا من الله تعالى ، والقاعدة التى تبين علاقة الحق سبحانه وتعالى بعباده فى مقام العدل ، لافى مقام الفضل أن الله لايظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

ويظهر من الآيات السابقة كذلك ، أن المعرضين عن الحق لا خلاق لهم ، فهم

ينكثون العهود والمواثيق التى يقطعونها على أنفسهم ، ذلكم لأن السياق يبرز أن موسي عليه السلام قد طلب من فرعون وقومه مطلبين واضحين : الإيمان بما جاء به من عند الله تعالى ، والانخلاع من الثقة فى غيره ، وأن يفرج عن بنى إسرائيل ليأخذهم معه ، فلما أعرض عن هذا أخذه الله وقومه بالعذاب على الصورة السابقة ، فلما عاينوه طلبوا منه أن يدعو الله سبحانه أن يكشف عنهم مانزل بهم ، على أن يلبوا له مطلبه ، وقد عاهدوه على ذلك ، فلما كشف عنهم العذاب لم يوفوا بماعاهدوا .

والموضوع درس واضح لكل من أعرض عن الحق ، وما سيق القصص القرآنى إلا لبيان موضع العظة والاعتبار ، لكل ذى بصر . ولايزال الحق سبحانه وتعالى يذكر المعرضين بتدبر العواقب ، واستبصار النتائج ، وكأنه بذلك يشحذ العقل إلى أن يظل فاعلا فى مايعرض أمامه من قضايا . فلا يركن إلى الخمول ، الذى يترتب عليه عدم الإدراك الصحيح للعلاقة بين الأسباب والمسببات أو المقدمات والنتائج .

إن الوجود كله إنما يقوم على قانون « الحق » و «العدل » وليس من الحق والعدل فى شىء أن يسوى بين من يأخذ الحق ويعمل به ومن يعرض عنه ، ومن العجيب أن الرافض للحق إنما يجنى على نفسه مرتين : مرة بإعراضه عنه - وهو انما جاء لصالحه - وأخرى بما يناله من العذاب بسبب انحرافه عنه . وهذه سنة مطردة مع كل من يتعامل مع « الحق » إيجابا أو سلبا .

آية انفلاق البحر :

وهى آية لها جانبان : جانب يخص بني إسرائيل ، وآخر يخص فرعون ، الأول منهما رحمة من الله تعالى على بنى إسرائيل ، والآخر انتقام من فرعون وقومه . لقد أوحى الله تعالى إلى موسى أن يخرج ليلا ببنى إسرائيل من مصر ، إنقاذا لهم من بطش فرعون ، حيث كان يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم ، ليحل بهم فى أرض فلسطين (الأرض المقدسة) قال تعالى :« ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولاتخشى فأتبعهم فرعون بجنوده

فغشيهم من اليم ماغشيهم ، وأضل فرعون قومه وماهدى» (طه ٧٧-٧٩) .

لقد كان هم فرعون ، الذى أزعج حياته أن تتكون ضده جبهة تعارضه ، بالقول أو بالفعل ، العمل على تقليص وجود بنى إسرائيل فى مصر ، وذلك بتقليل عدد الرجال ، حتى لاتقوى شوكتهم ، فكان تقتيل الأبناء هو السبيل إلى ذلك ، وقد حمله على هذا الفعل ، شعوره بأنهم ينتمون إلى دين يدعو إلى إله غير الذى يدعيه فرعون ، وأنهم إن كثروا - سواء في داخل مصر أم فى خارجها - فإن ذلك سيكون خطرا على مركزه ، لقد انتهى رأيه إلى رفض فكرة خروج بنى إسرائيل من مصر ، فلما أوحى إلى موسى بذلك ، جمع جنوده وأنصاره إلى إدراك بنى إسرائيل مع موسى ، ولما وصل موسى ومن معه إلى البحر الأحمر أدركهم فرعون وجنوده ، حينئذ قال بنو إسرائيل لموسى : « إنا لمدركون » ، وحق لهم أن يقولوا ذلك فى حدود فهمهم ، قبل أن يصل إلى موسى مدد السماء فيؤمر بضرب البحر لينفلق ، فالعدو من ورائهم والبحر أمامهم فماذا عساهم أن يفعلوا ؟ هنالك أوحى الله إلى نبيه موسى عليه السلام أن يضرب البحر ،فانفلق حتى صار كل فرق كالطود العظيم ، وعبره مع بنى إسرائيل إلى الشاطئ الشرقى ونجوا جميعا ، أما فرعون وجنوده فقد أدركهم الغرق ، لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته التامة أراد أن يظهر لبنى إسرائيل وللناس من بعدهم بعض آياته ، حيث أحال انحسار الماء بعد انفلاق البحر حتي صار يبسا ، عبره بنو إسرائيل إلى وضعه الطبيعى ، حين كان فرعون وجنوده فى وسطه ، فكان الغرق نصيبهم ، كما كانت النجاة نصيب موسى ومن معه .

والقرآن الكريم قد صور لنا ذلك المشهد فى قوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ، فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى

سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » (الشعراء : ٥٢- ٦٧) .

هكذا تظهر لنا الآيات القرآنية الآية الإلهية فى جانبيها : الإيجابى والسلبى ، غير أن أصحاب القلوب الغليظة والعقول المغلقة لايعتبرون بها ، فأما بنو إسرائيل فلم تزدهم الأيات الإيجابية فيما امتن الله بها عليهم إلا صلفا واستكبارا - كما سيظهر - وأما فرعون ، فقد أدرك الحقيقة حين عاين الموت غرقا ، ولكن: لات ساعة مندم . إذ القاعدة الشرعية التى أرساها القرآن الكريم ، أن التوبة إنما تقبل من الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، أى لايتمادون فى عصيانهم ، وأما أولئك الذين يقترفون الآثام - والشرك على رأسها - ثم ينتظرون الموت حتى يتوبوا فلن تقبل توبتهم ، وكذلك حال الذين يموتون وهم كفار . قال تعالى : «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار .. »

آيـــات تخص بنى إسرائيل :

لقد بين لنا القرآن الكريم ، أن الحق تبارك وتعالى قد أظهر على يد موسى عليه السلام كثيرا من الآيات الدالة على صدقه ، والتى كانت فى شكل منح إلهية سيقت إلى بنى إسرائيل ، كامتحان لهم لعلهم يرشدون فيصيبون الحق ، وكما يمتحن الله بعض عباده بالنعمة ، يختبر آخرين بالنقمة ، وهو فى هذا وذاك ، إنما يعالج الأمور بما تقتضيه ، حتى ولو لم ندرك نحن الحكمة من وراء تنوع المعالجة .

١ - آيـة الإحياء بعد الصعق :

لقد ألف بنو إسرائيل حين كانوا فى مصر عقيدة « تجسد » الإله ، فقد ظل ماثلا أمام أنظارهم « فرعون » ومايدعيه من « الألوهية » . لقد فعلت هذه « الدعوى » فى قلوبهم ونفوسهم الشيء الكثير ، حتى غدا تصورهم للإله لايبرح ذلك المعنى

المادى فلما تفرغ لهم رسولهم « موسى » عليه السلام ودعاهم إلى الإيمان بالله الواحد ، الذى يمثل الألوهية الحقيقية قالوا له : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » فكان الرد الحاسم على هذا الموقف متجاوزا النقاش والحوار والجدال ، لأن الإدراك إذا وصل بأصحابه إلى مثل هذه الدرجة ، فلا ينفع معه دليل عقلي ، وإذن فلا مناص - حينئذ - من اتخاذ منهج آخر يكون أردع وأقوى من منهج الحوار والمناظرة . إنه الأخذ بالصعق كما صرح بذلك القرآن الكريم « فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون» ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرون ، ولا يقبل فى منطق العدل الإلهى والعقل أن يكون هذا النوع من الآيات إلا بعد مراحل سبقته ، فقد سجل القرآن الكريم أن موسى عليه السلام حين ذهب لميقات ربه ، اتخذ بنو إسرائيل العجل من بعد ذلك إلها لهم ، فلما عاتبهم فى ذلك قالوا له مقولتهم المعروفة ، وهذا القول دليل واضح على سوء معتقدهم فى طبيعة الإله ، إذ لم يبرح تصورهم له ، الحقائق المادية . ولما كان هذا القول شنيعا فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون أخذهم بالصاعقة مناسبا له .

غير أن الحق تبارك وتعالى أراد لهم أن يروا قدرته التامة علي التصرف معهم ، حتى يكون ذلك أدعى للإيمان به ، فلا يسألون رسولهم إلها غيره ، فأحياهم بعد موتهم الجماعى . لعلهم يشكرون الله تعالى - وهو الإله الحق - على نعمائه عليهم ومنها : إحياؤهم بعد الصعق . ولكن أنى للطبائع الملتوية والفطر المنحرفة أن تردع أو تتعظ ، مع تنوع الابتلاءات والاختبارات ؟ لقد كان موقفهم من « الله » ومن «الكتب» ومن «الرسل » دليلا واضحا على خبثهم ومكرهم وسوء طويتهم .

٢ - آيــة رفع الجبل :

ومن الآيات التى أظهرها الحق تبارك وتعالى على يد موسى عليه السلام لبنى اسرائيل إخافة لهم ، حتى يعطوا الميثاق لنبيهم على أن يكونوا له مصدقين ، ولما جاءهم به منفذين ، حين تلقى الألواح من ربه ، وهذا مايرشد إليه قوله تعالى : «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ماآتيناكم بقوة واذكروا مافيه

لعلكم تتقون » (البقرة : ٦٣) وقوله : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون » (الأعراف : ١٧١) .

٣ - آيـة إظلالهم بالغمام وهم فى التيه :

إذا كان رفع الجبل فوق بنى إسرائيل يمثل آية « إخافة » فإن إظلالهم بالغمام فى وقت الحر يمثل آية « نعمة » وهذه وتلك يمثلان لونا من تأييد « موسى » فى دعوى الرسالة ، وأن ماجاء به هو « الحق » الذى لاينبغى العدول عنه . وهذه المرادفة بين آيات الإنعام وآيات الإخافة ، تشكل استنفاد طرق المعالجة كما سبق أن أشرنا ،كما تصور من جانب آخر طبيعة النفسية عند بنى إسرائيل ، ولعل فى إطالة القرآن الكريم النفس معهم ، مايدل على نفسيتهم . ولسنا نشك فى أن الحق سبحانه وتعالى كان عالما بالنتائج النهائية لمواقفهم الاعتقادية ، ولكنه سبحانه وتعالى قد أجرى سنته فى طرق المعالجة للانحرافات النفسية للبشر ، ألا يترك سبيلا إلا ويظهره ويبينه ، حتى يكون ذلك أدعى عند الحكم الأخير على من يعالج . إننا نمدح الطبيب الذى يتخذ مع مريضه الأساليب المتنوعة لمعرفة أسباب المرض ، حتى يمكن علاجه على أساس صحيح ، وإذا كان الأمر كذلك مع كل إنسان ينتهج طرق العلاج المتعددة ، فإن هذا يكون مع الحق سبحانه وتعالى من باب أولى ، إنه لايستأصل العصاة والمنحرفين لمجرد عصيانهم ، بل يتخذ من عقائدهم وتصرفاتهم ما يبرر تصرفه معهم التصرف النهائى ، فى اطار من الرحمة والعدل كما ذكرنا ، وإنما أذكر هذا حتى لايقال: إن الحق تبارك وتعالى قد يحابى قوما فيطيل طريقة علاجهم، فى الوقت الذى يأخذ آخرين بنتيجة إعراضهم عن الحق ، وقد استغل بنو إسرائيل أنفسهم هذه الطريقة فادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، كما زعموا أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ، ولكن هذه الدعاوى لا أساس لها فى معيار الحق سبحانه وتعالى لأنهم بشر ممن خلق ، أى لاميزة لهم على غيرهم ، إذ لوكانوا كما يقولون لما عذبهم بذنوبهم ، ووقد أوقفهم أمام هذا السؤال : أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله

عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون، و إذا كان الشق الأول من الترديد ليس واردا فلم يبق إلا الشق الثانى ، وهو القول بلا علم .

إن آية إظلالهم بالغمام قد ذكرت فى قوله تعالى : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (البقرة : ٥٧) وفى آيات أخرى غير الآيات التى معنا .

٤ - آية تفجير الحجر وانبثاق العيون الاثنتى عشرة :

هذه آية أخرى من آيات الله التى أظهرها على يد موسى عليه السلام فوق الآيات السابقة . لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن تكون لهم عيون تنبثق من الحجر بعدد أسباطهم . تكون دليلا على صدقه ، ومن الطبيعى أن تكون الاستجابة إلى مطلبهم مدخلا إلى إيمانهم بمايدعوهم إليه رسولهم ، لاسيما إذا كان مطلوبهم فوق مقدور البشر ، ولكن الآثار التى ترتبت على هذه المطالب لم تكن إيجابية فقد ظلوا بعيدين عن الحق . ولو أن الآيات التي ظهرت لهم على يد رسولهم قد بلغت أضعاف ماجاءهم به ، ماغير ذلك شيئا . ولكنها الواقعية التى أراد القرآن الكريم انتهاجها في تعامله مع هذه الشريحة من البشر . إن كثرة الآيات مع الإعراض تظهر نفسية القوم وتكشف عوارهم للعيان ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، إن حيلهم كثيرة ومطالبهم متعددة ، وكانت الاستجابات الربانية عن طريق رسولهم إلى آخر مدى ، إظهارا لدخائلهم . إنهم فى قرارة أنفسهم يعرفون أن مطالبهم هذه ، لايمكن أن تكون إلا على يد رسول مكرم من عند الله ، ولكنه العناد والطغيان ، ومادروا أنهم بذلك إنما يظلمون أنفسهم ، قال تعالى : « وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (البقرة : ٦٠).

إن بنى إسرائيل أبوا أن يكونوا ربانيين عاملين لإقامة الدولة الربانية . فهم لم يقيموها فى أنفسهم حتى يكون ذلك مدخلا لإقامتها على أرضهم ، ومظهر ذلك أن

موسى عليه السلام قد دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة (أريحا) لمحاربة الوثنيين وتوطيد دعائم الإيمان كبديل للوثنية ، ولكنهم أبوا وقالوا له : إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها ماداموا فيها ، ثم شفعوا كلامهم هذا بقولهم : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . والواضح من هذا الموقف أن القوم لم يكونوا أهلا لتقبل عطاء السماء فضلا عن الدعوة إليه ، فكان الرد الحاسم أن الحق تبارك وتعالى جعلها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض .

غير أن القوم قد عادوا إلى مطالبهم مرة أخرى فطلبوا ذلك المطلب فكانت الإجابة إلى ماطلبوا سريعة لعلهم يرشدون . وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم سلفا نتيجة موقفهم من الحق فإننا نؤكد هنا أن كل مطالبهم التى استجيب لها ، إنما كانت تأكيدا لصدق رسولهم فى دعوى الرسالة كما شكلت فى نفس الوقت حججا وبراهين متعددة ، تكشف عن سوء طويتهم كما أشرنا ، ولماذا نذهب بعيدا ونحن نعلم - كما ذكرت ذلك بعض الروايات - أن الأنبياء الذين جاءوا إلى بنى إسرائيل بلغوا أربعة آلاف نبى ، أليس هذا العدد الكثير إلا دليلا على عمق الأمراض النفسية التى انطوت عليها تلك الشريحة من البشر ؟ أليس استقدام كثير من الأطباء لمعالجة مريض ما إلا دليلا على توطن المرض وعمق تأثيره ؟ إن هذا كله يذكرنا بماضيهم غير المشرف وحاضرهم المقيت الذى ينظرون فيه إلى الإنسانية بكل استعلاء وكبرياء ويخططون لليوم الذى يكون فيه العالم طوع إرادتهم وتصرفاتهم .

إن أبناء اليوم من الإسرائيلين هم أحفاد الأمس ، ولن تحسم المعركة بينهم وبين الحق الذى يمثله الإسلام إلا بالطريق اللائق بهم ، وهو القوة المعنوية التى تحشد جميع القوى المادية لنزالهم ، وفى شعورهم بهذا - حين يكون واقعا ملموسا - مايمكن أن يغير نظرتهم الاستعلائية إلى غيرهم ، وبخاصة إلى أبناء العروبة والإسلام فهل يمكن أن تكون هذه القضية محل اهتمامنا ؟ نأمل ذلك .

٥ - آية بعث قتيل بنى إسرائيل :

هذه الآية مرتبطة بها قصة « البقرة » التى أمرهم الله تعالى أن يذبحوها ويضربوا ببعضها القتيل ، الذي لم يستدل على قاتله ، والآيات التي ذكرتها تضم إلى المشاهد التى ذكرتها الآيات الأخرى فى الكشف عن نفسية بنى إسرائيل ، والملابسات التى أحاطت بقصة هذه البقرة ، أن رجلا من بني إسرائيل قتل دون أن يعرف قاتله فلما رفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام ، أوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ، ويضربوه ببعضها فيحيا ويقول عن قاتله ، فلما أخبرهم بذلك ماطلوا كثيرا فى أوصاف تلك البقرة من حيث لونها وعمرها والعلامات التى تميزها ، كل ذلك بمنهج المتشددين ، حتى شدد الله عليهم ، بأن بين لهم أنها نادرة الوجود . وقد صار موقفهم هذا مثلا يضرب لكل متشدد ، فيقال له : لاتكن كبنى إسرائيل شددوا فشدد الله عليهم ، ولو أن القوم كانوا مستجيبين للحق لحملهم هذا على تنفيذ ما أمرهم به ربهم لأول مرة دون أن يطيلوا الكلام فى أوصافها . وأخيرا عثروا على البقرة لدى يتيم فاشتروها بثمن مرتفع ، ثم ذبحوها ، وأخذ موسى عليه السلام بعضها فضرب به القتيل فقام على الفور وأخبر عن قاتله .

والآية هنا مزدوجة الدلالة : إنها تدل على صدق موسى عليه السلام فيما دعاهم إليه واستجابة الحق تبارك وتعالى لطلبه تأييدا له فى دعوى الرسالة ، كما تدل من جانب علي إمكان البعث والرد على منكريه ، لذا رأينا الآية الكريمة تعقب على تقرير القضية بقوله تعالى : « كذلك يحيى الله الموتى ... » يقول الله تعالى فى تصوير هذه الآية : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولابكر عوان بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولاتسقى الحرث مسلمة لاشية

فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ، وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتي ويريكم آياته لعلكم تعقلون » البقرة : ٦٧ - ٧٣)

وقد عقب القرآن الكريم على هذا المشهد بقوله تعالى مصورا القلوب القاسية التى ضمتها صدور بنى إسرائيل : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » (البقرة: ٧٤) وكفى بتلك الآية توضيحا لعلم الحق تبارك وتعالى بدخائل نفوسهم وقلوبهم ، وأن ذلك كله ليس بعيدا عن علم الله تعالى وإحاطته التامة بذلك ، وأنه جل وعلا قد استجاب لجميع مطالبهم استدراجا لهم ، وليظهر على رءوس الأشهاد طبيعة هؤلاء ، تلك الطبيعة الشاذة النافرة ،التي جعلت من قلوبهم ماهو أشد من الحجارة غلظا وكثافة .

والملاحظ أن الآيات التى أظهرها الحق تبارك وتعالى على يد موسى عليه السلام قد تعددت ، سواء منها ماظهر على يديه فى دعوته فرعون وقومه إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى أم ماكان منها خاصا ببنى إسرائيل ، وهذا كله يدلنا على غلظ البينة التى ظهرت فيها رسالة ذلك الرسول الكريم، كما يدلنا من جانب آخر على أن الآيات الربانية فى دلالتها على صدق الرسالة قد تنوعت ، فكان منها ماجاء على سبيل الأخذ بالذنب ، وماجاء على سبيل الاستجابة للمطالب استدراجا للقوم ، وهى فى هذا وذاك ليست إلا مظهرا لقدرة الحق تبارك وتعالى ، وتأكيدا لصدق الرسالة التى جاءهم بها رسولهم .

وإذا كان موسى عليه السلام قد عانى كثيرا فى دعوته إلى الحق فى مرحلتيها، فماذاك إلا لأن الله سبحانه وتعالى قد صنعه على عينه واصطفاه على الناس برسالته وبكلامه ، فكان بحق من أولئك المرسلين ، الذى مثلوا الوجود الإلهى فى وجه الطغاة الجبارين ، ولهذا كله لانجد فى القرآن الكريم قصة بلغت فى الطول

ودقة العرض مثل مابلغت قصة موسى عليه السلام ، إنه بإجماع جمهور المفسرين وعلماء الأمة من أصحاب التخصصات الأخرى ، من أولى العزم من الرسل الذين كانوا مثلا يقتدى به فى الصبر على تحمل الأذى الذى يلحقهم فى دعوة أقوامهم إلى الحق ، حتى صور هؤلاء لخاتمهم ، فى صورة تجسد كفاحهم ضد الباطل . ولتشد من عزمه حتى يصبر كما صبروا . وصدق الله العظيم حيث يقول : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ... » (الأحقاف : ٣٥) .

١٠ - عيسى عليه السلام

هو خاتم الأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى بنى إسرائيل ، وقد كان عليه السلام ذا طبيعة رقيقة ، أراد أن يخفف بدعوته ، ذلك الاستغراق فى المادة وصورها ، الذي استحوذ على نفوس بنى إسرائيل ، لقد كانت دعوة إلى المعانى الروحية والصفاء النفسى أكثر منها دعوة إلى تنظيم الحياة وشؤون الاجتماع ، ويظهر أن الجانب التنظيمى لم يكن يعوز بنى إسرائيل حين جاءهم عيسى عليه السلام ، من ثم كان المحور الذى دارت عليه دعوته بعد «التوحيد» هو « الأخلاق » العالية ، التى تخفف من قوة المادة وسيطرتها .

أما عن موقف بنى إسرائيل من عيسى عليه السلام فسنتحدث عنه في مبحث قادم ، والآن نتحدث عن الآيات التى أيد الله بها نبيه الكريم . والآيات التى جاءت فى هذا السبيل ، منها ماكان تأسيساً لرسالته ومنها ماكان تأييدا لدعوى الرسالة . والنوع الأول من الآيات يسمى فى عرف علماء العقيدة « إرهاصا » أى لفتا للعقول والأنظار إلى أن من ظهر على يديه هذا الخارق سيكون له شأن أى شأن ، وهو والمعجزة سواء في كونهما أمرين خارقين للعادة ، والفارق بينهما إنما يكون فى حال وزمن من ظهر على يديه ذلك الخارق ، فإن كان قبل النبوة والرسالة كان تأسيسا وإرهاصا بها ، وإن قارن دعوى الرسالة كان معجزة .

الآيات التى من قبيل الارهاص :

جاء فى القرآن الكريم ، وفى سورة « مريم » على الخصوص أن الله سبحانه

وتعالى أظهر إلى الوجود انسانا على غير الطريق الطبيعى هو " عيسى بن مريم " وأنه كان ثانى اثنين يأتيان على هذه الصورة ، فأما أولهما ، فهو أبوالبشر ، آدم عليه السلام ، الذى سواه الله تعالى ونفخ فيه من روحه ، فكان بشرا سويا ، وأما الثانى فهو عيسى عليه السلام ،حيث خلقه الله من غير أب ، فقد نفخ فى بطن أمه من روحه وهى بكر عفيفة طاهرة ، كما جاء فى قوله تعالى : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحناوصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » (التحريم : ١٢) ، وهذه آية أولى تدل على أن عيسى عليه السلام لم يكن ميلاده عاديا ، لذا ضرب به المثل مع آدم عليه السلام فقال تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

والآية الثانية التى جاءت فى هذا المقام : تكلمه وهو فى المهد ، وهذه الآية كانت لازمة للآية الأولى ، ذلكم لأن الإلف والعادة يستغربان بل ينكران - غالبا - كل أمر غير مألوف ، فلما كان الحمل بعيسى عليه السلام غير طبيعى ، فقد أنكر القوم ذلك ، فأراد الحق سبحانه أن يظهر براءة أمه وطهارتها ، عندما اتهمها قومها بأنها قد جاءت شيئا فريا . يقول الله تعالى في تصوير ذلك المشهد : « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت باليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليه رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ، فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا ، ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمك بغيا ، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى

مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ، ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » (سورة مريم : ١٦ - ٣٥) .

وهذه الآيات فى جملتها قررت عدة قضايا :

الأولى : مجيء عيسى عليه السلام بطريق النفخ الإلهى - وهذه هى الآية الأولى التى أشرنا إليها .

الثانية : طهارة مريم عليها السلام وبراءتها مما يمكن أن تتهم به مثيلاتها فى مثل هذه الحالة .

الثالثة : نطق عيسى عليه السلام وهو فى المهد ، وإقراره بأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيا . وهى الآية الثانية من الآيتين اللتين أشرنا إليهما سلفا كإرهاص ومقدمة وتأسيس لنبوة عيسى عليه السلام .

الرابعة : أنه عليه السلام عبد الله ورسوله ، وهذا الإقرار يعنى أن جميع الصفات التى تتجاوز ذلك مما خلعها عليه بعض أتباعه من التأليه أو كونه واحدا فى عقيدة التثليث ، ليست صحيحة ، لأنه ليس إلا بشرا رسولا . وجميع التأويلات التى خرجت بالنصوص الواردة فى شأنه عن هذا الإطار، تعد من قبيل التأويل المسرف ، الذى لادليل عليه .

آيات صدق رسالته عليه السلام :

أظهر الحق سبحانه وتعالى على يد عيسى عليه السلام ، سبع آيات بينات كدليل على صدق دعواه الرسالة ، هى :

١ - أن يجعل من الطين على هيئة الطير ثم ينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله .
٢ - إبراء الأكمه .

٣ - إبراء الأبرص .

٤ - إحياء الموتى بإذن الله .

٥ - إخبار الناس بما يأكلون ومايدخرون فى بيوتهم .

٦ - حفظ الله له من أذى بنى إسرائيل حين جاءهم بالبينات .

٧ - إنزال الله له المائدة التى طلبها الحواريون .

وهذه الآيات قد ذكر الحق تبارك وتعالى فى قوله : « إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ، وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين، قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لاأعذبه أحدا من العالمين » (المائدة ١١٠ - ١١٥) .

وأما الآية السابعة ، فقد ذكرها القرآن فى قوله تعالى : «وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ...» (آل عمران : ٤٩) .

والناظر إلى هذه الآيات يلاحظ عنايتها بالروح ، ذلكم لأن خلق الطير من الطين بعد نفخ الروح ، إنما يقصد به إحياء هذا المعنى لدى قوم كاد إيمانهم يكون مفقودا ، وكذا إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، كل هذا يدل على أثر الروح الواضح فى الخارق . وقد سبق أن ذكرنا أن بنى إسرائيل قد اجتاحتهم النظرة المادية التى كادت تطيح بعالم الروح لديهم ، فكانت آيات المسيح عليه السلام علاجا لهذه

القضية ومن ثم فلا يقبل الرأى القائل بأن بنى إسرائيل كانوا نابهين فى الطب ، فجاءت معجزات عيسى من جنس مانبغ فيه القوم [1] .

ماذا قال لبنى إسرائيل ؟ :

جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى فى شأن عيسى عليه السلام : « وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين، ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لايهدى القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (الصف : ٦-٩) .

ومضمون هذه الآيات يقرر :

١ - أن عيسى ابن مريم رسول من عند الله تبارك ولاتتعدى طبيعته طبيعة الرسول من البشر .

٢ - أن رسالته تمثل حلقة فى سلسلة الرسالات الإلهية - الحلقة قبل الأخيرة - حيث جاءت مصدقة بالتوراة التى نزلت على موسى عليه السلام ، ومبشرة بالرسالة اللاحقة الخاتمة .

٣ - أن الآيات التى أظهرها الله على يديه لتدل على صدقه فى دعوى الرسالة لم تغن عن بنى إسرائيل شيئا ، لأنهم أغلقوا قلوبهم وعقولهم دونها ، وقد كان ذلك أمرا منتظرا منهم ، ألم يقل الحق تبارك في حقهم فى حديثه عن نبيهم موسى وقبل الآيات التى ذكرناها ، : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ... » ثم أدرجهم فى عداد الفاسقين ، الذين لايهديهم الحق سبحانه « والله لايهدى

(١) انظر : أبوزهرة . محاضرات فى النصرانية ص ٢١ .

القوم الفاسقين » .

٤ - اتهامهم لرسولهم بأنه إنما جاءهم بالسحر ، يقصدون بذلك : الآيات التى ظهرت على يديه . وهذا فى منطق العقل ليس صحيحا ، إذ أن ماجاء به عيسى من البينات كان من نفس الجنس من الآيات التى جاءت على يد موسى ، ولو كان سحرا فى الواقع لعارضوه وهم في ذلك مشهورون . ولكنه الإعراض عن الحق عندما يستبد بأصحابه ، فيتعللون بغير العلل الصحيحة . وكيف تأتيهم تلك العلل ، وهي وهم أمام الحق الذى ظهر علي يد رسولهم .

٥ - وصفهم الحق تبارك وتعالى بالكذب ، لأنهم أرادوا تغيير الحقيقة ، حيث زعموا أن الآيات الواضحات سحر ، والواقع أنها أمر فوق طوق البشر ، لأنه من عمل الحق سبحانه ، أجراه على يدى رسوله تأييدا له فى دعوى الرسالة .

٦ - أنهم ظلموا أنفسهم بهذا الموقف ، لأنهم دعوا إلى الحق فأعرضوا .

٧ - أن نور الحق الذى جاءهم به رسولهم ، بل وكل رسول ، بل وكل داعية إليه بالغ مداه ، مهما حيل بينه وبين هذا المدى ، لأن هذا وعد الله الذى لايتخلف ولوكان ذلك على كره منهم .

وأما الآيات التى تحدثت عن مهمة عيسى عليه السلام بشىء من التفصيل ، فإنها موزعة فى القرآن الكريم ، وكلها تدور حول محور واحد ، هو : العودة ببنى إسرائيل إلى الطبيعة الإنسانية الراشدة وذلك يتم من وجوه :

١ - تصحيح اعتقادهم فى الإله ، بحيث لاتصرف قلوبهم إلا إلى الله الحق سبحانه وتعالى ، والإيمان بجميع الرسل والملائكة والكتب واليوم الآخر.

٢ - تجديد صلتهم بالتوراة الحقيقية ، عبر ماجاء فى الإنجيل، وبيان الانحراف الذى أصاب كتابهم ، وقلوبهم ، حتى قست ، وكانت كالحجارة أو أشد قسوة ، وهذا هو الجانب العاطفى الأخلاقى فى رسالة المسيح .

٣ - التأكيد على بشرية المسيح ، وبيان أنه ليس إلا عبدا أنعم الله عليه وجعله مثلا لبنى إسرائيل ، وتكفير من قال بألوهيته أو أنه عضو فى مثلث العقيدة .

٤ - بيان أن بنى إسرائيل لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكن شبه لهم . وتؤكد هذه المسألة موقفهم من الأنبياء ، ذلك الموقف الذى كان يوزعهم مابين مكذب ومقتول .

عقيدتا التأليه والتثليث وأسباب ظهورهما :

أثبت القرآن الكريم - كما أشرنا - أن من قال بألوهية « عيسى » فقد كفر ، وكذا من قال بأنه ثالث ثلاثة . وهذا يعنى أن الفكرتين طارئتان على ماجاء في الإنجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام ، ومن المستحيل عقلا وشرعا أن يكون مشتملا على هاتين الفكرتين . إذ كيف يعقل أن تكون مريم قد حملت بإله ، أو أن طبيعته قد تحولت من البشرية إلى الإلهية ؟ والمبرر الوحيد الذى يتذرع به من يقول بذلك ، أن الروح التي نفخ بها فى « مريم » قديمة وهى كلمة من الله ، فتكون قد حملت بإله قديم ، وهو مبرر لايعقل ، لأن معنى ذلك أن يكون آدم إلها كذلك ، لأن الله قد نفخ فيه فى روحه ، بل يمكن أن نقول : إن هذا القول يترتب عليه أن يكون جميع البشر آلهة كذلك ، إذ من الثابت أن أحدنا يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فينفخ فيه الروح ، وهى من الله تعالى .

ومما يبرر رفض فكرة تأليه المسيح أن الحق تبارك وتعالى يكون قد ألغى ذاته وهذا مستحيل عليه جل وعلا ، ثم من جانب آخر : كيف يعقل أن يتحول البشر إلى إله ومن المعلوم أن طبائع الأشياء لاتتحول ولاتتبدل إلا بإرادة عليا تقتضى ذلك ، وإذن فأين تلك الإرادة التى يترتب على القول بها مالايليق بحق الذات الإلهية ؟ والقول بالتثليث لايقل بعدا عن الحقيقة عن القول بالتأليه ، ذلكم لأن القائلين به، لايعنون به معنى مفهوما ، فهو تثليث وتوحيد فى نفس الوقت ، ولايمكن أن يفسر ذلك بعدم التناقض ، على اعتبار انفكاك الجهة بين الطرفين ، بل إن القوم يتمسكون

بهذا القول مع عدم المعقولية فى تفسيره ، ولوقلنا باقنومين لازمين لذات واحدة ، لكان ذلك قولا قريبا من التوحيد ، ولكن القوم يقولون بخلاف ذلك ، حتى صار القول بالتثليث مضرب المثل فى عدم الوضوح .

كيف نشأت فكرة التأليه والتثليث ؟ :

إذا كان العقل يرفض أن يكون « الإنجيل » قد احتوى فكرتى التأليه والتثليث ويتفق هذا الموقف العقلى مع ماجاء فى القرآن الكريم في حديثه عن طبيعة المسيح، فما منشأ هاتين الفكرتين ؟

لا يشك أحد من الباحثين فى تأثر المسيحية بالفلسفة اليونانية ، التى ورثتها الدولة الرومانية وهى فلسفة فى مجموعها تقوم على أساس وثنى ، وفي ثنايا الثقافة الفلسفية اليونانية ، لايعدم القارىء فكرة تأليه « الأشخاص » . لقد تسربت هذه الفكرة إلى المسيحية ، فى عصرها الأول الذى تلا عصر حياة المسيح فقد كانت مهيأة لذلك ، وبخاصة بعد أن بدأ التحريف والتبديل يأخذ طريقه إلى الإنجيل ،لقد انتشرت المسيحية فى العالم الغربى وكذا فى العالم الشرقى ، وكلاهما يخضع للامبراطورية الرومانية ذات القوة المادية فلم تستطع المسيحية بروحانيتها أن تحد من هذه الروح ، بل كان العكس هو الصحيح حيث أثرت الثقافة الرومانية فى الفكر المسيحى ، حتى صح ماقيل : لقد ترومت المسيحية بدلا من أن تتنصر روما .

وقد يكون من المسائل الهامة جدا في هذا المقام ، أن السلطة فى ظل الإمبراطورية الرومانية كانت تقوم على أساس « الحق الإلهى » بمعنى : أن الامبراطور كان يعتقد أنه ظل الله فى الأرض ، وأنه يستمد سلطانه من السماء ، وفى ظل هذه الفكرة ، يمكن أن نفهم كيف كانت مدخلا لتأليه الأشخاص ، وهذا ماسنراه بوضوح عند حديثنا عن مجمع « نيقية » وفكرة « التثليث » متولدة عن فكرة التأليه» أو قد تكون صورة مخففة لها . وهى -كذلك - ليست فى أصل المسيحية ، بل وليدة الفكر الوثنى اليونانى . وقد أثبت البحث العلمى ذلك ، لعل

على رأس القائلين بهذا ، المستشرق الفرنسى « ليون جوتييه » الذى قرر ذلك فى بحثه عن الفلسفة الإسلامية والمدخل إلى دراستها .

ولما كانت هذه المسألة من الأهمية بمكان ، حيث تضع أيدينا على المصدر المباشر للقول بالتثليث أو التأليه ، ومن ثم يتأكد أنهما فكرتان طارئتان على الإنجيل -كما سبق أن أشرنا - فقد لزم أن ننقل النص الذى يثبت ذلك ، والنص عبارة عن ترجمة لما قاله المستشرق الفرنسى السابق الذكر، وهو باحث نحسبه محايدا فى هذا المقام، حيث استخدم الأدوات الصحيحة فى تقرير رأيه ، وقد نقله إلى العربية المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ، فى ترجمته للكتاب .

يقول فى ذلك : **« كانت المشكلة الفلسفية التى واجهت الإغريق أولا هى : مامبدأ كل شىء . وباجتهاد الفلسفة فى الإجابة عن هذا السؤال إجابة محددة ومقنعة شيئا فشيئا ، كان لنا تلك المذاهب الفلسفية التى تتابعت فى تاريخ الفلسفة الإغريقية ، هذه فلسفة بدأت طبيعية ، مع الفلاسفة الأيونيين ، ثم أخذت فكرة التوحيد فى الظهور على أيدى سقراط وأفلاطون وأرسطو ، بحيث رأى هؤلاء أن المبدأ الذى صدر منه العالم هو « الله الواحد» الذى لم يتغير ... ولكن بمقدار تبين هذه المعارف عن « الله » كانت تكمن الصعوبة الأساسية التى اصطدمت بها المذاهب التى سبقت سقراط ، كيف تصدر الأشياء عن مبدئها ؟ كيف يمكن أن يخرج الكثير من الواحد ، والمتغير من الذى لايتغير ؟ وأنه كلما قرب المبدأ الأول من الوحدة بصيرورته روحا ، ومن عدم التغير الحق بصيرورته كاملا ، تتسع الهوة التى تفصله عن العالم وكثرته ، وتصير أكثر عمقا كما يصبح عسيرا فهم : كيف يبرز الله العالم للوجود ويحركه ؟**

إذا كان الله واحدا وحدة مطلقة فكيف يمكن أن يخلق الكثرة المختلفة دون أن يقبل فى ذاته كثرة بأى وجه من الوجوه ؟ وإذا كان كماله المطلق يقتضى عدم التغير فكيف نفهم أنه فى وقت ما أوجد العالم دون أن يلحقه تغير ، مع أنه انتقل من حالة عدم الفعل الى حالة الفعل ؟

كان أفلاطون أول من أدرك هذه المشكلة ، وأول من أدرك هذا الحل ، الذى وجب على العقل الإغريقى - فيما بعد - أن يجتمع نهائيا عليه ، أعنى : عقيدة التثليث وتعنى هذه العقيدة فى إطارها الدينى المسيحى : الاحتفاظ لله تعالى بالكمال المطلق والبراءة الكاملة من التغير ، بحيث يضع بينه وبين العالم وسيطين ، يعتبران دونه خارجين عنه ، وعلى نحو ما داخلين فيه، أى : تتضمنهما ذاته ، صادرين عنه ، دونه فى الكمال ويجعلان ممكنا أن يصدر عن الله العالم الكبير المتغير ، أول هذين الوسيطين : العقل ، وثانيهما : الروح الإلهية .. وهكذا كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الإغريقية ، لم ينتج فلسفة فقط ، بل أنتج معها دينا أيضا ، أعنى : المسيحية التى تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان ، ذلك أن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى كانت فيه الأفلاطونية المحدثة ، وبينهما مشابهات كثيرة ، وهما وإن افترقا أحيانا فى بعض التفاصيل ، إلا أنهما يرتكزان على عقيدة التثليث والأقانيم الثلاثة واحدة فيهما .

على أنه يجب أن يلاحظ أن هذه الأقانيم الثلاثة فى نظر هذا المذهب - الأفلاطونية المحدثة - ليست متساوية فى الجوهر والرتبة ، بينما نراها متساوية فى المسيحية ، فالابن الذى يتولد من الأب ، لايمكن أن يكون أدنى منه كمالا، وإلا صار من طبيعة الكامل أن يصدر اضطرارا عنه غير الكامل، وهذا حط من رتبته ، وكذلك الروح القدس صار كالأب والابن » (١) .

الأناجيـــــــل :

القارىء للقرآن الكريم ينبهر بحديثه عن الإنجيل ، ذلك الكتاب الذى نزل على عيسى عليه السلام هدى ونور لكل مسترشد مستبصر ، كما قال تعالى : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لمابين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه

(١) انظر : أبوزهرة . محاضرات فى النصرانية ص ٣٤ هامش .

هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين» (المائدة :٤٦) .
ويلاحظ كذلك أن القرآن الكريم تحدث عن « إنجيل » واحد وأن " اللام " فى لفظ " الإنجيل" ليست للجنس ،بل للعهد ،أى الإنجيل المعهود فى العقول والنفوس أنه نزل على عيسى ، كتاب الله ، ليس له تفسير آخر نزل من عند الله ، وكأن الحق تبارك وتعالى عندما قرر لنا هذه القضية ، كان ينبهنا إلى أن العقلية الإسرائيلية سوف تعبث بهذا الكتاب فتحرفه عن مواضعه ، كما هو شأنهم ، وأنه سيتحول من وحدته وصورته التي نزل بها إلى عدد من الأناجيل ، كل واحد منها يعبر عن تصور واضعيه عن طبيعة المسيح وتاريخه ، بل عن العقيدة المسيحية كلها .

إن المسيح عليه السلام قد نبئ وهو ابن الثلاثين ربيعا كما يقول المؤرخون ، وأنه لم يمكث بين ظهرانى من بعث إليهم إلا ثلاث سنوات ،حيث رفعه الله إليه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة [١] وقد كانت هذه المدة القصيرة ، التى عاشها المسيح عليه السلام كنبى ، من المسائل التى أطلقت العنان للأفكار كى يقال حولها الكثير ، ويذكر المؤرخون كذلك أنه لم يكد ينتهى العقد السابع من القرن الأول من ميلاده عليه السلام حتى بدأت النظرات إلى الانجيل الأصلى تختلف . ذلكم لأن الحواريين وغيرهم من مجتهدى المسيحية قد اختلفت وجهات نظرهم إلى الإنجيل ، وكذا حياة المسيح وهذا يعنى أن بداية الانحراف بالإنجيل قد ظهرت منذ عصر مبكر لظهور المسيحية ، كما يذكرون أن الأناجيل المعروفة الآن ، وهى التى أقرتها الكنائس والمجامع المسيحية ، سبقت بأناجيل أخرى ، بلغت من العدد مالايمكن حصره ، وهذا كله يعطينا نتيجة واحدة ، هى : أن الاجتهادات ذات الرؤى المتعددة المتباينة فى ظل المسيحية قد كثرت ، وبالضرورة كانت النظرة إلى حياة المسيح وطبيعته ، والدور الذى جاء كى يمثله محل خلاف فى العالم المسيحى ، بل إن هذا الخلاف ، قد حمل بعض الباحثين المعاصرين على الشك فى ظهور المسيحية والمسيح . ونحن لانوافق

---

(١) انظر : ابن جرير الطبرى . تاريخ ، نقلا عن ابن كثير : قصص الأنبياء ص ٤٢٠ .

على ماذهب إليه هؤلاء ، بل نرى أن الأمور ينبغى أن توضع فى نصابها فكثرة الأناجيل وتعارضها لايقتضى الشك فى المسيحية والمسيح ، بل ينبغى أن يقتصر الحكم عليها فقط ، وماينتج عنه ، وهو أن الإنجيل الحقيقى قد توارى خلف الأناجيل المزعومة ، كما كان ينبغى لهؤلاء أن يمدوا أنظارهم إلى ماوراء الأناجيل ليعرفوا حقيقة الأمر ، أعنى بذلك : النظر إلى الكتاب الأخير ، وهو القرآن الكريم ، الذى تحدث عن المسيح والمسيحية فى وضعهما الصحيح ، كما بين ما اعتراها من تبديل وتحريف ، وهذا الذى حدث من هؤلاء، ماكان ينبغى أن يكون، لأنه قصور فى البحث والتقصى فبدلا من البحث عن الحقيقة ، رأيناهم يؤثرون الطريقة الأسهل فيحكمون على المسيحية بهذا الحكم الذى لايطابق الحقيقة والواقع .

إن « الأناجيل » المعروفة الآن ، وهى التى تعترف بها الكنائس المسيحية ، أربعة : إنجيل متى - إجيل مرقس - إنجيل لوقا - إنجيل يوحنا ، والمحور الذى يدور حوله ماجاء فى هذه الأناجيل إجمالا ، هو حياة المسيح عليه السلام ، حمله - ولادته والخوارق التي ظهرت على يديه ثم مرباه ثم مواعظه وكلماته ، ثم علاقته باليهود ، ثم صلبه ثم حياته بعد ذلك ، ورفعه إلى ربه بعد أربعين يوما من وقوع الصلب عليه ، وهي فى جملتها تشمل العقائد المسيحية الرسمية ، لا العقيدة المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام .

ومن الثابت تاريخيا أن هذه الأناجيل قد كتبت بعد المسيح - كما أشرنا - وأن كتابها قد استوحوا حياة المسيح فجعلوا منها مصدرا لتسجيلها ، وهذا كله يؤكد انها عمل بشري ، وليست كتابا إلهيا ، وسنتكلم بشىء من التفصيل عن كل منها :

١ - إنجيل متى :

متى هو أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر ، وقد اختاره عليه السلام ليكون أحد تلاميذه كما يذكر ذلك الإنجيل ، وقد كان يعمل جابيا للضرائب لدى الدولة الرومانية بلواء الجليل بفلسطين ، وكان اليهود يربطون بين من يشغل هذا المنصب وبين الدولة وماتمثله من حيف ، باعتباره معينا لها على جباية الضرائب التى لايخلو

جمعها من الظلم ، ولما انتقل المسيح إلى ربه ، ساح فى البلاد داعية إلى المسيحية ، إلى أن مات بالحبشة سنة ٧٠ ميلادية ، نتيجة ضرب شديد أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة .

أما عن اللغة التى كتب بها هذا الإنجيل ، فقد كانت « العبرية » غير أنه ظل مغمورا فى هذه اللغة إلى أن ظهر فى اللغة اليونانية ، ولم يعرف من قام بترجمته الى هذه اللغة، أما العلة فى كتابته باللغة العبرية ، فإن المؤرخين للمسيحية يرون أن « متى » قصد بذلك أن يكون بلغة اليهود ، حتى يكون أدعى لمعرفة محتوى هذا الإنجيل ، الذى يشمل حياة المسيح ، باعتباره نموذجا مثاليا ، ينبغى أن يكون موحيا لكل ناظر ، حتى يخفف من نظرته المادية إلى الحياة . وأما عن السنة التي ألف فيها هذا الإنجيل فالخلاف حولها ظاهر جدا ، فمن رواية تقول إن ذلك كان سنة ٣٧م إلى أخرى تقول : كان ذلك سنة ٣٩م ، إلى ثالثة تقول : إن ذلك كان سنة ٤١م . إلى رابعة تقول : كان ذلك سنة ٤٣م ، أو ٤٨ ، أو ٦٢ ، أو ٦٤ من ميلاد المسيح ، وعلى كل حال : فالتاريخ الحقيقى لتدوين هذا الانجيل كان ولايزال مجهولا .

المشكلة الحقيقية التى ينطوى عليها « إنجيل متى » هى : إذا كان هذا الانجيل قد ألف أولا باللغة « العبرية » كما يجمع علي ذلك مشاهير المؤرخين ، وأنه لم يعرف إلا فى اللغة اليونانية وأنه اشتهر فيها ، فمن أين للعلم أن يجزم بأن الترجمة كانت صحيحة موافقة للأصل الذى ترجمت منه ؟ إن هذا الشك فى ذاته يكاد ينزع الثقة من هذا الإنجيل كمصدر للمسيحية . وإذا كان موضوعه متصلا بحقائق تلك العقيدة ، وإذا كانت العقائد الصحيحة . لاتبنى إلا على اليقين ، فإن هذا كله يجعلنا فى حل من القول بأن المسيحية كما يصورها هذا الإنجيل لاترقى إلى مستوى العقيدة الصحيحة المبنية على اليقين ، ولعل هذا يعد خطوة فى إثبات أن التحريف والتبديل اللذين حدثا لهذه العقيدة ، إنما كان من جراء ذلك الاجتهاد غير المنضبط فى المسيحية . وبخاصة فيما يتعلق بالعقائد ، التى تشكل أساس الدين .

٢ - إنجيل مرقس :

يذكر المؤرخون أن صاحب هذا الانجيل هو « يوحنا » ولقبه « مرقس » ولم يكن من الحواريين الاثني عشر ، الذين اختصهم عيسى عليه السلام ليكونوا أنصاره ، وقد كانت أسرته يهودية تقيم بأورشليم عند ظهور المسيح . وقد أعجب « مرقس » بالمسيح والمسيحية - كما يقول الإنجيل - لقد كان من السبعين الذين نزل عليهم روح القدس بعد رفع المسيح ، كما هو اعتقاد أتباع ذلك الإنجيل ، والذين ألهموا التبشير بالمسيحية ، وهو ابن أخت « برنابا » صاحب « الإنجيل » المعروف ، الذى يعد أقرب الأناجيل الى الإنجيل الصحيح الذى نزل على عيسى عليه السلام ، لأنه يتفق إلى حد كبير مع ماجاء فى القرآن الكريم عن المسيح من ثم لاتعترف به المسيحية الرسمية ، بل عملت على إخفائه ، لأنه فى نظرها لايمثل حقيقتها . لقد رحل « مرقس » مع خاله « برنابا » و« بولس » فى رحلتهم إلى أنطاكية ، للتبشير بالمسيحية ومنها عاد إلى فلسطين ، ثم ذهب إلى " قبرص " داعية ومبشرا بالمسيحية ، ثم إلى مصر وأقام بها وجعلها منطلقا له إلى " روما " و" إفريقيا " . كل هذه كانت رحلات تبشيرية ، وقد وجد من أهل مصر خير من يستجيب لدعوته ، فدخل فى المسيحية الكثير من أهلها . غير أن الوثنيين بها ، قد عز عليهم نشاطهم فقتلوه ، بعد أن سجنوه وعذبوه سنة ٥٢ م وأهم ماينسب إلى إنجيل « مرقس » أنه كان ينكر ألوهية المسيح [١] .

اللغة التى كتب بها إنجيل مرقس :

يجمع المؤرخون للمسيحية على أن هذا الإنجيل كتب باللغة اليونانية ، ويستنتجون من ذلك أنه كتب بمدينة « روما » . غير أن ابن البطريق - وهو حجة فى تاريخ المسيحية - يرى أن الذى كتب هذا الانجيل بهذه اللغة هو « بطرس » رئيس الحواريين ونسبه إلى « مرقس » وهنا تنشأ مشكلة تتصل بهذا الانجيل ، ولايمكن

---

(١) أبوزهرة : محاضرات في النصرانية ص ٤٣ .

حلها إلا فى ضوء مبدأ تعامل به المحدثون فى تراثنا الإسلامى ، ذلكم لأن «بطرس» متقدم فى الزمن والرتبة عن « مرقس » فقد كان رئيسا للحواريين ، والمشكلة تتجسد فى كيفية تلقى الأكبر - وهو " بطرس " علومه عن الأصغر " مرقس " ودونها ونسبها إليه فى صورة " انجيل " أما المبدأ الذى أشرنا إليه مما تعامل به المحدثون فى تراثنا ، فهو : جواز رواية الأكابر عن الأصاغر ، غير أن هذا المبدأ كان مطبقا ضمن أسس موضوعية تتصل بالعدالة والضبط ، بغض النظر عن السبق الزمنى ، فهل كان هذا مرعيا عند المسيحيين ؟ نحن نشك فى ذلك كل الشك . لذا رأينا صاحب كتاب « مرشد الطالبين » يذكر ذلك بصيغة التضعيف فيقول : « قد زعم أن إنجيل " مرقس " قد كتب بتدبير " بطرس " سنة ٦١م لنفع الأمم التى كان ينصرهم وفى التعبير عن المسألة بصيغة " الزعم " مايدل على أن صاحب هذا الكتاب لم يكن يصدقها ، بل إن هناك بعض الروايات التى تزيد الأمر تعقيدا وتشكيكا ، حيث تذكر أن هذا الانجيل قد كتب بعد بطرس وبولس [١] . وهذا وذاك يجعلنا فى حل من القول بأن هذا الانجيل محل شك من حيث حقيقة كاتبه .

٣ - انجيل لوقا

ولد فى أنطاكية من أصل غير يهودى ، ولما شب عن الطوق ، رافق " بولس " فى رحلاته ، التى كان يدعو فيها إلى المسيحية ، كان دارسا للطب ، ويربط بعض الكتاب المسيحين بين دراسته هذه وبين دقته فى تحرير إنجيله وتحقيقه للقضايا التى تحدث عنها ، وبخاصة فى مسألة ولادة المسيح من غير أب ، بحيث لايحتاج ذلك إلى تدليل ، وأن ذلك ليس ضد العلم ، وإن كان لايرقى إلى تفسيره .

لمن كتب هذا الانجيل واللغة التى كتب بها ؟ :

والمسألة هنا لها شقان :

١ - القوم الذين كتب لهم هذا الانجيل :

---

(١) نفس المصدر ص ٤٤ .

٢ - اللغة التى كتب بها .

فأما عن الشق الأول ، فهناك خلاف واضح حول هذه المسألة ، فبينما يرى أحد الكتاب المسيحين - هو القس إبراهيم سعيد - أنه كتب لأهل اليونان ، يرى أخرون أنه كتب للرومان ، أو المصريين ، وفى هذا الإنجيل بعض النصوص التى يفهم منها أنه كتب لرجل " رومانى " فقد جاء فى مقدمته : « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا ، كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين ، رأيت أيضا إذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق ، أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز « ثاوفيلس » لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » و « ثاوفيلس» هذا، رجل من عظماء الروم ، كما يحكى ذلك عنه « ابن البطريق » يقول فى ذلك ، « وكتب لوقا إنجيله إلى رجل شريف من علماء الروم يقال له « ثاوفيلا » .

والمدقق هنا يلاحظ أمرين :

أولهما : أن هذا الانجيل كتب لشخص بعينه ، وهذه مسألة ليست جوهرية ، فقد يكون هذا الشخص رمزا لمن معه فى العقيدة ، وهى مسألة تتكرر كثيراً فى الثقافة الإنسانية وفي تراثنا الاسلامى ، رأينا الكثير من الكتب يؤلف ، ويهدى إلى شخص بعينه ، حاكم - أمير - عالم - الخ .

ثانيهما : الخلاف حول الجهة التي كتب لها هذا الانجيل ، فالمشهور أنه كتب لليونانيين والنص يقول إنه كتب لواحد من عظماء الروم هو « ثاوفليس» ، فهل المقصود باليونانيين ، هم « الروم » فى شخص شريفهم « ثاوفليس » ؟ الأمر إلى الاحتمال الراجح أقرب ، وإن كان ليس جزما بالمسألة . والذى يجعل الأمر دون اليقين أن هناك روايات تقرر أنه كتب للمصريين .

أما عن تاريخ كتابة هذا الانجيل ، فالأمر فيه مختلف كذلك ، فبينما تذكر بعض الروايات أنه كتب مابين عامى ٥٨ ، ٦٠ م فى قيصرية من أرض فلسطين ،

ترى روايات أخرى أنه كتب قبل ذلك سنة ٥٣م ، وأخرى أنه كتب بعد ذلك سنة ٦٢ أو ٦٣ م .

وأما عن اللغة التى كتب بها هذا الانجيل ، فالخلاف حولها قد وقع ، وهذا أمر طبيعى ، ذلكم لأن الجهة التى كتب من أجلها ، ليست محددة على الوجه الذى ذكرناه ، فتحديد المكتوب لهم ، يحل المشكلة ، لأنهم سيكونون أصحاب لغة معروفة ، وإن كنا نرجح أنه كتب باليونانية لأنها إحدى اللغات الهامة والمتداول التأليف والتخاطب بها فى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط قبل ظهور المسيحية وبعدها .

وينبغى ألا ننسى أن هذا الخلاف الذى دار على الشكل الذى ذكرناه ، يضعف من قوة التراث المسيحى كله ، لاسيما إذا وضع فى مقابلة مايسمى عندنا فى تراثنا الاسلامى بالإجماع ، وهو مصدر هام جدا لدينا ، وترجع أهميته إلى أنه يستند إلى نصوص صحيحة ولعل عدم وجود مثل تلك النصوص فى المسيحية ، هو السبب فى عدم وجود الاجماع لديها على الشكل الذى عندنا فى ثقافتنا الإسلامية .

٤ - إنجيل يوحنا :

كاتب هذا الانجيل هو : « يوحنا » الحوارى بن زيدى الصياد . وكان أثيرا لدى المسيح عليه السلام ، كما يقول « انجيله » ومن فرط حبه له ، استودعه أمه مريم ، وهو فوق الصليب ، فى عقيدة المسيحيين . نفى فى أيام الاضطهاد الأولى ، ثم عاد إلى « أفسس » وظل يبشر فيها بالمسيحية ، إلى أن مات وهو شيخ كبير .

وهذا الانجيل له خطورته من بين الأناجيل المعترف بها ، ذلكم لأنه : الانجيل الوحيد الذى تحدث عن ألوهية المسيح ، والنصوص التى يعتمد عليها فى هذا المقام ، هو مصدرها وأساسها ، والملابسات التى أحاطت بكتابته ، يحكيها مؤرخو المسيحية على هذا النحو : « لقد كان " شيرينطوس" و " أبيسون" وجماعتهما

(١) النجار : قصص الأنبياء : ص ٤٧٧ .

يعلمون المسيحية ، ويقولون عن المسيح ليس إلا إنسانا ، وأنه لم يكن قبل ولادته من أمه مريم موجودا ، وكان ذلك سنة ٩٦م ولما كان هذا الكلام غير واقع من كثير من الأساقفة موقع القبول والرضا ، وبخاصة أساقفة آسيا ، فقد اجتمع هؤلاء الأساقفة وغيرهم عند « يوحنا » والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح ، وينادى بانجيل لم يكتب مثله من قبل ، حيث يكتب بنوع خاص « لاهوت » المسيح ، فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم » (١) .

هذه هى الملابسات التى أحاطت بكتابة هذا الانجيل ، وهو - كما نرى - أول انجيل يصرح بألوهية المسيح ، فى ذلك الزمن المبكر لظهور المسيحية ، ولعله هو الذى يتمسك به من يقول بألوهية المسيح الى يومنا هذا ، على نحو غير مفهوم - كما ألمحنا إلى ذلك من قبل - ولا شك فى أن هذه العقيدة قد شكلت فى العالم المسيحي محورا هاما ، حيث التفت حولها كنائس كثيرة ، كما سنري عند حديثنا عن فرق المسيحية ، الأمر الذى تولد عنه اتجاهات أخري داخل المسيحية ، منها : اتجاه « أريوس » الذى كان يرى أن المسيح ليس إلا بشرا رسولا .

على أن كثيرا من الباحثين فى المسيحية ينكر أن يكون « يوحنا » هو الذى كتب هذا الانجيل ، ويرون أنه من تصنيف طالب من طلاب مدرسة الاسكندرية ، ونحن نعلم أن تلك المدرسة كان لها دورها البارز فى الجمع بين الفكرين : الدينى الشرقى والفلسفى اليونانى ، وقد سبق لنا أن ذكرنا عند حديثنا عن مصدر القول بألوهية المسيح ، أن الفلسفة اليونانية كان لها الأثر المباشر فى ذلك . ولاشك فى أن صحة هذا الرأى تؤكد ماسبق أن ذكرناه ، لاسيما وأن الذين ذكروا ذلك ، جمع كبير من كتاب المسيحية ، ممن يؤخذ برأيهم . وقد نسب هذا الانجيل إلى « يوحنا » فى رأى هؤلاء كنوع من الترويج له والاعتزاز بتلك الشخصية ، حيث كان لهذا « التلميذ » أثره فى العالم المسيحى ، لما كان يتمتع به من حب المسيح عليه السلام له .

---

(١) النجار : قصص الأنبياء ص ٤٧٧ .

ومن المسائل التي ينبغي ذكرها في هذا المقام ، أن هذا الإنجيل لم يظل على الصورة التى كتب بها أولا ، فقد أثبت بعض الباحثين ، أنه أضيف إليه الباب الحادى والعشرون [1] ، وقد كانت أبوابه قبل ذلك ، عشرين بابا فقط ، ولعل هذا يدلنا على مدى التساهل فى كتابة الأناجيل .

تضارب الأناجيل وتناقضها :

أثبت البحث العلمى أن الأناجيل الأربعة المعتبرة لدى المسيحين متناقضة فيما بينها ، والخلاف فيها يصل إلى درجة الحدة ، بل قد يوجد التناقض والاختلاف بين نصوص الانجيل الواحد ، وقد سمعنا ونحن نتابع المناظرات التى كانت تدور بين الداعية المسلم الشيخ أحمد ديدات ، ومناظريه من المسيحين مدى مافي تلك الأناجيل من اضطراب واختلاف والنتيجة التي يمكن أن تقال فى هذا المقام ، هي : أن هذا الاضطراب والتناقض ، لايمكن أن يحدث إلا اذا اختلف الصدر الذى أخذت منه هذه الأناجيل . وهذه مسألة طبيعية جدا ، فالفكر البشرى الذى كتبت به ، طبيعته كذلك - عدم الاتساق فى بعض الأحيان - ولعل مما يحسم هذه القضية ، ويظهر أن الكتاب الخاتم ، ماكان له إلا أن يكون فوق الاضطراب والاختلاف ، أن مصدره واحد ، وهو « الحق » سبحانه وتعالى ، وقد جاء القرآن بهذا المعنى في قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء : ٨٢) .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف تكون تلك الأناجيل مصدرا للدين وبخاصة فى مقام الأصول التى تشكل أساس بنيانه ؟ ولايمكن أن تبنى العقائد إلا على أساس من اليقين ، ولا يتأتى ذلك إلا بالإخبار الصادق ، ولن يكون كذلك إلا إذا اتحد مصدر الخطاب . وهذا كله يؤكد أن هذه الأناجيل لم تنزل على عيسى عليه السلام ، بل لكل واحد منها ملابسات خاصة فى كتابته على الوجه الذى ذكرنا .

---

(١) نفس المصدر : ص ٤٧٨.

إنجيل برنابا :

هذا الإنجيل خارج عن حدود ما أقرته الكنائس المسيحية من الأناجيل ، وذلك راجع إلى سبب واضح ، هو : أن هذا الانجيل وحده قد ذكرت فيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتكرر ذلك غير مرة ، وقد أصدر البابا « جلاسيوس» فى القرن الخامس للميلاد منشورا بالكتب التى يحرم قراءتها ، ومنها هذا الانجيل .

ومضمون هذا الانجيل لايخرج عن كونه تأريخا لحياة المسيح عليه السلام ، غير أنه يمتاز عن غيره من الأناجيل ببلاغته وأسلوبه الأدبى الشعري الرائع .

ظلت النسخة الأصلية لهذا الانجيل بمكتبة البابا « سكتس » بروما ، حتى اختلسها أسقف يقال له « فرامرينو» حين عثر عليها مصادفة ، ولما قرأها بدقة اعتنق الاسلام (١) .

أما كاتب هذا الانجيل فهو « برنابا » وهذا لقبه واسمه « يوسف » ويلقب أيضا بابن الواعظ ، وهو لاوى قبرصى الجنس ، ويقال إنه هو الذى شهد « لشاول » «بولس» بالإيمان ، كما يذكر تاريخ المسيحية أنه كان من أتباع المسيح المواظبين على نشر دعوته والتبشير بها ، والقول باقتراب ملكوت السماوات، كان موثوقا به لدى الكنيسة ، ثقة تامة ، وكان يندب كى يعظ الناس حتى يدخلوا فى الدين .

وما ذكرناه هو كلام جمهور الكاتبين المسيحيين ، أما بعضهم - وهو مترجم هذا الانجيل إلى العربية « الدكتور خليل سعادة » فيري أن كاتب هذا الانجيل هو يهودي أندلسى متمكن من اليهودية والاطلاع عليها ، ولكنه قد تنصر وقرأ المسيحية ، ثم مالبث أن أسلم ، واطلع على الاسلام كذلك . ولو صح هذا الكلام لكان نصيب هذا الانجيل كغيره من التى اختلف فى كاتبيها (٢) . وعلي كل حال : فانقطاع السند التاريخي واضطراب النصوص ، مما يجعلنا في حل من القول بأن هذه الأناجيل ليست

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨٠ .

(٢) نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

كتبا إلهية ، وانما هى اجتهادات بشرية ، كما سبق أن ذكرنا ، وينبغى أن يكون التعامل معها على هذا الأساس .

وهذه الأناجيل كى تأخذ نصيبها من التقديس لدى المسيحين ، نراها فى بعض المواضع تأتى بنصوص تنسبها إلى المسيح الابن أو الإله ، وهذا يعني أنها تعترف صراحة بأنها ليست الانجيل الذى نزل على عيس عليه السلام ، وانما هى استلهام لحياة المسيح ، تقتبس بعض نصوص الإنجيل الصحيح لتأكيد صلتها به ، وأما أكثرها فقد كان اجتهادا من الواضعين ، كما ألمحنا إلى ذلك .

وحسبنا هذا القدر لننتقل إلى الحديث عن الفرق المسيحية ، ثم عن المجامع ، ونحن فى هذا وذاك لا نركز إلا على الجوانب المتصلة بصحة المسيحية كرسالة إلهية ، وبالمسيح كرسول من عند الله تبارك وتعالى .

الفرق المسيحية

ذكر مؤرخو الفرق الاسلامية ثلاث فرق قديمة للمسيحية : الملكانية - النسطورية - اليعقوبية ، ويرى « الشهرستانى» (١) أن سبب الاختلاف راجع إلى أمرين :

أحدهما : كيفية نزول عيسى عليه السلام واتصاله بأمه وتجسد الكلمة

والثانى : كيفية صعوده واتصاله بالملائكة وتوحد الكلمة .

كما يذهب - أيضا - إلى أن النصارى بسبب هذين الأمرين ، اختلفوا إلى اثنين وسبعين فرقة ، تحقيقا للعدد الذى ورد به الحديث ، وهذا القول محل بحث ، كما أن الحديث الوارد فى ذلك أيضا محل بحث . ولما كان منهجنا الذى قطعناه على أنفسنا ، ألا نطيل حتى لايمل القارئ ، فإننا ننبه فقط إلى المسائل التى تحتاج إلى تحقيق علمى ، والآن سنلقى نظرة على أشهر الفرق القديمة لدى المسيحية .

---

(١) الملل والنحل جـ١ ص ٢٢٠ .

الفرق الموحدة :

يطلعنا تاريخ المسيحية على أن من الفرق التي تكونت منذ عصر مبكر ، من كان يؤمن أصحابها بأن الله واحد لاشريك له ، وأن المسيح ليس إلا بشرا رسولا . ومن هذه الفرق :

(أ) فرقة أريوس :

كان قسيسا بالإسكندرية ، وعقيدته التي كان عليها وأصحابه هي : التوحيد لله تعالى ، وأن عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، ويفهم هذا العلاقة بطريقة صحيحة بين الله وبين المسيح ، ومن أجل عقيدة هذه الفرقة من حيث صحتها ، ومن حيث تأثير رئيسها « أريوس » فى العالم المسيحى ، حيث كان يتنقل من مكان إلى آخر ، داعيا إلي عقيدة « التوحيد » حكمت الكنيسة بطرده . ولكن تأثيره ظل موجودا ، حتى مجمع نيقية كما سنبين ذلك .

(ب) فرقة بولس الشمشاطى :

كان « بولس الشمشاطى » بطريركيا بأنطاكية ، يدعو إلى التوحيد ، ويقرر أن المسيح بشر ، وليس إلها ، كما كان يمسك عن الإدلاء برأيه فى المراد بالكلمة وروح القدس ومانسب إلى « بولس » من كلمات تقترب كثيرا من رأى غيره من الفرق غير الموحدة ، فإنه ينبغى أن يفهم فى ضوء العقيدة الصحيحة التى آمن بها ومن معه ، وهي أن الله واحد لاشريك له ، وأن المسيح ليس إلا بشرا رسولا . من هذا ماقاله ابن البطريق عن المسيح : « إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره ، وأن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى ، صحبته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى « ابن الله » يقولون : إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس»[1].

---

(١) أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٣٩ .

والناظر فى تصوير « ابن البطريق » لعقيدة « بولس الشمشاطى » وفرقته ، يرى أنها عقيدة صحيحة ، لأن نظرتهم إلى طبيعة المسيح نظرة صحيحة ، لاتتجاوز كونه بشرا رسولا. وكلام هذا المؤرخ المسيحى هنا يتفق تماما مع ماقاله « ابن حزم » عن هذه الفرقة .

بداية دخول الوثنية فى المسيحية :

ذكرنا فيما سبق أن المسيحية منذ عصر مبكر دخلتها أفكار وثنية ، هى التى حولتها من دين إلهى إلى عقيدة غير صحيح لذا رأينا أن بداية الانحراف بهذا الدين ارتبط الى حد كبير بالتزاوج بين الفكر الدينى والفكر الفلسفى غالبا . ولو استثنينا الفرقتين السابقتين - فرقة آريوس وفرقة بولس الشمشاطى - لوجدنا أثر ذلك التحول بالعقيدة الصحيحة إلى عقيدة محرفة ، يظهر فى « المرقيونية » و « البربرانية » لأنها تراوحت مابين القول بالتثليث أو تأليه عيسى عليه السلام ، كما خبطت مقالات كل من « بابليدوس » و «البان » ومن شايعهما خبطا كثيرا . وقد ارتبط هذا كله بما سبق أن ذكرنا ، كما ارتبط من جانب آخر - وهذا لازم للسبب الرئيسى ، وهو التزاوج بين الدين والفلسفة - بتحريف الانجيل . فقد ضاع التوحيد الذى جاءت به المسيحية وأصبحت دينا محرفا ، لايمت إلى الدين الحقيقى بأية صلة . ولكن على الرغم من هذا الانحراف ، فقد ظهرت بعض الشخصيات ، وبعض الفرق التى ظلت محافظة على روح المسيحية، من هذه الشخصيات والفرق : فرقة " مقدونيوس " التى كانت تذهب الى بشرية المسيح ، وتنكر روح القدس إلها. وكانت تقف في وجه الكنيسة الرسمية التى كانت تقول بخلاف ذلك ، ويذكر مؤرخو المسيحية الأثبات ، أن " مقدونيوس " كان على مقالة « أريوس » فى القول بالتوحيد ، وقد أنكر على الأساقفة قولهم بتأليه المسيح وروح القدس . ويمكن أن يقال عن هذا الاتجاه : لقد كان يمثل الفاصل الحقيقى بين المسيحية التى جاء بها عيسى عليه السلام ، وما آلت إليه بعد أن دخلتها الوثنيات ، التى حولتها إلى دين وضعى .

وأما عن الفرق ذات السعة ، التى تلت العصور الأولى لظهور المسيحية ، فأشهرها ثلاث : الملكانية - النسطورية - اليعقوبية ، وهى كلها تمثل الفرق المنحرفة ، فى عصور المسيحية القديمة والوسطى .

١ - الملكانية :

فرق تنسب إلى مؤسسها « ملكا » الذى ظهر بأرض الروم ، ولم يذكر التاريخ عنه أكثر من ذلك ، وعقيدتهم في المسيح تقوم على هذا التصور : « إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح ، وتذرعت بناسوته ، ويعنون بالكلمة : أقنوم العلم ، ويعنون بروح القدس : أقنوم الحياة ، ولايسمون العلم قبل تذرعه « ابنا » بل المسيح مع ما تذرع به ، ابن ، فقال بعضهم : إن الكلمة مازجت جسد المسيح ، كما يمازج الخمر أو الماء اللبن » [١] .

ويرى هؤلاء أن « الجوهر » غير « الأقانيم » كغيرية الموصوف للصفة ، وعلى هذا صرحوا بالتثليث ، وقالت : إن المسيح ناسوت كلي لاجزئى ، وهو قديم أزلى ومن قديم أزلى ، وقد ولدت مريم عليها السلام إلها أزليا ، والقتل والصلب وقع على اللاهوت والناسوت معا . وأطلقوا لفظ الأبوة على الله تعالى وعلى المسيح ، لما وجدوا فى الانجيل حيث قال : إنك أنت الابن الوحيد ، وحيث قال شمعون الصفا : إنك ابن الله حقا [٢].

والشهرستانى وغيره من باحثينا يرون أن إضافة البنوة أو الكلمة إلى الله بالنسبة للمسيح عليه السلام ، إنما هو من مجاز اللغة ، وليس حقيقة ، ولايدل على قدم العلاقة ، وهذا الكلام معقول جدا فى الرد على هذه الفرقة ، فنحن جميعا عباد الله وأبناؤه وخلقه ، وتضاف جميع المخلوقات إليه إضافة الفعل إلى فاعله ولايدل هذا على قدم الفعل اطلاقا كقدم الفاعل .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل حـ١ : ص ٢٢٢.

(٢) نفس المصدر .

٢ - النسطورية:

كان « نسطور » بطريركا للقسطنطينية ، وكان يرى أن الله واحد ، ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة . وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ، ويرى «الشهرستاني » أن رأى « نسطور » فى علاقة الأقانيم بالذات يشاكل رأى المعتزلة فى علاقة الصفات بالذات فى تراثنا الإسلامى ، وبخاصة أحوال أبى هاشم الجبائى .

إن النسطورية ترى أن اتحاد الكلمة بجسد المسيح . لم يكن على سبيل الامتزاج كما قالت الملكانية ، ولا علي طريق الظهور كما قالت اليعقوبية ، بل كإشراق الشمس فى كوة على بلورة ، وكظهور النقش فى الشمع ، إذا طبع الخاتم [١].

والمدقق في كيفية اتحاد الكلمة بجسد المسيح كما يصورها « نسطور » يشعر أن هذا اتجاه لايزال يقرر بشرية المسيح ، لأنه اتحاد في الظاهر ، لبس امتزاجا وليس ظهورا من ثم يقرر تاريخ المسيحية أن « كيرلس » بطريرك الاسكندرية و « يوحنا » بطريرك أنطاكية قد خاطبا « نسطور » فى المسألة حتي يرجع عن رأيه ، الذى لايزال يتمسك ببشرية « المسيح » ولكنه لم يستجب إلى طلبهما ، فانعقد مجمع «أفسس » سنة ٤٣١م وقرره لعنه وطرده ، وأثبت هذا المجمع أن مريم العذراء قد ولدت بالإنسان والإله [٢] غير أن " الشهرستانى " ينسب إلى إتباع « نسطور » أقوالا ، أقل مايقال فيها إنها مضطربة فى كيفية الاتحاد ومايترتب عليه ، فهل ياترى كان الحال كما قال ، أو أنه لم يكن مصورا للمسألة على وجهها الصحيح ؟ الأمر يحتمل هذا وذاك ، وعلى كل حال فالأمر لايحتمل أكثر من هذا [٣] .

٣ - اليعقوبية :

قالت هذه الفرقة بالأقانيم الثلاثة ، إلا أن التثليث لديها انقلب إلى تأليه

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٤ .

(٢) أبوزهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٤٤ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل : حـ١ ص ٢٢٤ .

للمسيح ، حيث ترى انقلاب الكلمة لحما ودما ، فصار الإله هو المسيح ونعتقد أنها أرقى الفرق المسيحية فى سلم اللامعقول ، ذلكم لأن تحول الكلمة إلى لحم ودم مسألة لايدركها العقل ، ومعلوم أن الله تبارك طبيعة لاتدرك كنهها ، وهى فى نفس الوقت طبيعة لاتتغير ولاتتحول ، ثم من جانب آخر : كيف يحل اللانهائى - وهو الله سبحانه - فى النهائى - وهو جسد المسيح - على وجه معقول ؟ إن الفكرة في ذاتها خاطئة ، فالحلول من الأمور المستحيلة ، ولذا رأينا القرآن الكريم يكفر من قال بألوهية المسيح، كما حكم بكفر من قال بالتثليث وهو حكم يحمل معه أدلة قوته من الناحية العقلية ، كما ذكرنا ، إنه يدل على أن من قال بذلك ، ليس لديه مسحة من تفكير ، أو أثارة من علم (١) .

من ثم رأينا أن كنائس العالم المسيحى آنذاك ، رأت ضرورة انعقاد مجمع يستنكر هذه العقيدة ، التى تقرر : الطبيعة الواحدة بعد الاتحاد ، فانعقد مجمع « خليكدونية » وقرر أن المسيح ذو طبيعتين ، وبسبب هذا الاعلان انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية (٢) .

انقسام العالم المسيحى إلى كنيستين : شرقية وغربية

لما ظهر الخلاف حول « روح القدس » هل هو من الأب وحده ، أو منه ومن الابن ، تبين أن هناك اتجاهين واضحين ، فكنيسة « القسطنطينية » تعتنق أن روح القدس من الآب وحده ، بينما تعتنق كنيسة " روما " أن روح القدس من الآب والابن معا ، من ثم انقسم العالم المسيحي تبعا لذلك الى تبعيته لكنيستين : شرقية، وهى الأولى ، وغربية ، وهى الثانية ، يضاف إلى ذلك ، اختلاف العالم المسيحى حول : أى الاثنتين تكون لها الرئاسة . فكان اتجاه بعض المجامع التى انعقدت لحسم هذا الخلاف أن تكون الكنيسة الغربية ، هى صاحبة الكلمة الأخيرة حين الخلاف ، كما تكون لها الرئاسة فى العالم المسيحي ، ومن هذا التاريخ ظهرت

(١) نفس المصدر .

(٢) أبوزهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٤٦ .

الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية لكل منهما اتجاهها العقدى .

لقد كان بوسعنا أن نتكلم عن الفرق الحديثة والمعاصرة فى المسيحية ، لولا مخافة التطويل ونشير بإيجاز إلى ظهور فرقة « البروتستانت » فى العصور الحديثة ، وتعنى الكلمة : المنشقين ، الراغبين فى الإصلاح الكنسى ، وقد تزعم هذه الحركة الإصلاحية ، « مارتن لوثر » و « كلفن » . وكان المحور الأساسى الذى يقوم عليه نشاطها ، هو رفض الطقوس التى كانت تقوم على نوع من التحكم الذى لايقره العقل ، كصكوك الغفران ، كما حارب هذا الاتجاه الإصلاحى موقف الكنيسة من العلم والحياة الخ ، ولاشك فى أن هذا الاتجاه كان مبشرا فى العالم الغربى بالاتجاه العلمانى ، إن لم يكن هو ذلك الاتجاه ، ونحن نرى أن موقف الكنيسة المتعصب هو الذى أدى إلى هذه النتائج الخطيرة ، التى عزلت الدين عن الحياة .

وإذا كان واقع الحياة الكنسية فى الغرب قد أوقف المصلحين أمام هذه القضية قضية التحرر من سلطانها ، والانطلاق بالعقل كي يقود الحياة ، بعيدا عن تصورات الكنيسة ورغبات ممثليها من رجال الدين . فهل معني ذلك أن يقال في عالمنا الاسلامي ، مايقال عن العالم المسيحى ؟ الإجابة هنا بالنفى القاطع ، ذلك لأن الإسلام ، لايحجر على التفكير العلمي الصحيح ، ولا يعزل العقل عن قيادة الحياة ، بشرط ألا يتعارض ذلك مع مبادئه وإطاره العام ، وليس فيه سلطة كهنوتية متسلطة ، كما أن العلاقة بين الدين والعلم فى التصور الاسلامى كالعلاقة بين الكل والجزء ، إذ العلم في نظر الإسلام جزء من الدين لأنه لايعدو أن يكون سننا إلهية ، جعلها الله سبحانه وتعالى رابطة لحركة الكون والحياة .

المجامع المسيحية :

المجامع فى المسيحية ، مؤتمرات يتشاور فيها آباء الكنائس ورجال الدين في الموضوعات التى تطرح عليهم ، والتى تكون فى حاجة إلى بيان الرأى المجمعى فيها ، وهى لدى المسيحين نوعان : مجامع عامة ، وتسمى بالمجامع « المسكونية » ومجامع خاصة ، وهى التى تكون متعلقة بطائفة بعينها أو بمجموعة من الكنائس

ذات إقليم واحد . وقد كثرت هذه المجامع حتى صار عددها حتى سنة ١٨٦٩م عشرين مجمعا ، وكل واحد منها كان يتمخض عن قرارات تأخذ صفة رسمية فى العالم المسيحى ، إما على المستوى العام أوالمستوى الإقليمى .

مجمع نيقية سنة ٣٢٥م :

يعد هذا المجمع أكبر المجامع ذات الأثر الواضح في العقيدة المسيحية ، وسبب انعقاده هو كثرة الخلاف بين الكنائس حول طبيعة المسيح ، لقد دعى إليه أكثر من ألفى قسيس من جميع الكنائس الشرقية منها والغربية ، وكان الهدف منه هو توحيد كلمة هذه الكنائس على كلمة سواء فى طبيعة المسيح ، وكان الاتجاه الذى يرى أن المسيح ليس الا بشرا رسولا له تأثيره الكبير فى نفوس أكثر المدعوين لحضور هذا المؤتمر وكان هذا تحت تأثير « أريوس » إلا أن فريقا من هؤلاء كان يميل إلى القول بألوهية المسيح ، وكانت هذه المقالة ذات صدى كبير فى نفس الامبراطور «قسطنطين » . فلما أدرك أن الغالبية مع القول الذى لايرتاح إليه ، عمد إلى حيلة ، ظنها تستر مايضمر ، فاجتمع بهؤلاء القلة الذين يميلون إلى القول بألوهية المسيح وأظهر لهم ذهبه وسيفه ، وانتهى الاجتماع إلى اعتناق عقيدة « المسيح الإله» وادعى أن المجمع قد أقر هذه العقيدة ، ولم يعتبر وجود الآخرين ومعارضتهم، وكتب إلى أرجاء الإمبراطورية بذلك ، ومن ثم أصبح التأليه عقيدة رسمية فى العالم المسيحى منذ انعقاد هذا المجمع .

توالت المجامع بعد مجمع « نيقية » وكانت قراراتها مابين معارض له ، ومقر لما جاء به أو معدل له وأقرب المجامع الذى انعقد بعده هو مجمع « صور » الذي رفض القول بألوهية المسيح ثم مجمع « قسطنطينية » سنة ٣٨١م وكان الموضوع الذى دارت حوله مباحث هذا المجمع متعلقا بروح القدس ، لا بطبيعة المسيح ، وانتهى إلى أن روح القدس « قديم » بمعنى روح الله .

ولو أننا سرنا إلى نهاية الشوط وذكرنا المجامع التى تلت ذلك ، لطال بنا الحديث ، ولكنا فى نهاية حديثنا عن « المسيح » و «المسيحية » نقول : إن

الباحث لايكاد يعثر عن رأى واحد فى التراث المسيحى ، بل الاختلاف هو طبيعة هذا التراث ، كما أن ضياع السند التاريخي فى نصوصهم التى يدعون قدسيتها ، يقلل الى حد كبير من اتخاذها أصولا يمكن الاعتماد عليها في استخلاص الآراء الاعتقادية ، ولاتزال هذه الروح حتى يومنا هذا تسيطرعلى الفكر الدينى المسيحى إن هذا كله راجع إلي سبب واحد أشرنا إليه من قبل ، وهو عدم وجود نص دينى صحيح النسبة إلى صاحبه « عيسى عليه السلام » إذ الأناجيل ليست إلا اجتهادات بشرية غير معصومة .

وأما المسيحية فى العصور الحديثة فقد غلبت عليها الروح الصليبية ، وقد اتخذت سبيلا إلى تمكين العالم الغربى من العالم الشرقى الإسلامى ، حيث كان التبشير بها ، هو الممهد الأول والمبرر الحقيقى لوجود العالم الاستعماري عسكريا ، وسياسيا واقتصاديا فى العالم الاسلامى.

إن الإسلام يعترف بالمسيحية والمسيح ، فى الحدود الطبيعية ، التى قررتها النصوص الدينية الصحيحية ، تلك التى تقرر أن المسيح ليس إلابشرا رسولا . وأما ماعدا ذلك فالإسلام منه براء ، كما أنه لايملك لنفسه حجة من منطق ، ولا أثارة من علم .

الفصل الخامس

صفات الرسل : الواجب منها والمستحيل والجائز

تمهيد :

من يختاره الحق تبارك وتعالى لتحمل عبء الرسالة ، يصنعه على عينه ، ويصطفيه لنفسه ، ويتولى حفظه وعصمته ، حتى فى المراحل المتقدمة على تكليفه بهذه المهمة ، بل إن الأمر قد يتخطى شخصية الرسول نفسه ، إلى أصلابه : الأقارب منهم والأباعد ، وهذا ما حدث لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، حيث زكاه ربه بقوله : « وتقلبك فى الساجدين » وجمهور المفسرين على أن آباء النبى - محمد - صلى الله عليه وسلم كانوا كذلك ، فلم يؤثر عنهم أو عن أحدهم أنه سجد لصنم قط ، أو غير ذلك مما كان يفعل الجاهليون ، على امتداد التاريخ .

وإذا كانت القيادات الاجتماعية بكل مستوياتها لا تستأهل هذه الدرجة من القيادة والزعامة ، وبالضرورة التأثير فى الجماهير ، إلا إذا كان لها نوع تميز عن بقية البشر العاديين ، فإنه من باب أولى أن تكون القيادات الروحية ، وعلى رأسها أنبياء الله ورسله ممن حسنت سيرتهم وطاب تاريخهم حتى تبلغ مهمتهم غايتها ، وتؤتى ثمارها إنهم بشر، تتجلى فيهم البشرية بكل أبعادها ، ولكنهم فى نفس الوقت ليسوا عاديين كسائر البشر لأنهم وسطاء عن الله تعالى ، وسفراء له ، ومن المعقول أن يكون للوسيط من المزايا والخصائص مالا يكون لغيره بالنسبة للمهمة التى يقوم بها وحسبه أنه مرسل من ربه جل وعلا . غير أن هذه الخصائص وتلك المزايا ليست ذاتية له ، بل بتوفيق من الله تعالى وتدبيره وإحكامه ، حتى تظل للرسالة قدسيتها ، فلا يدعيها من يظن أن لديه بعض المواهب أو الخصائص ، وقد حدثنا التاريخ أن أدعياءها كثيرون ولولا ذلك المقياس الحاسم الذى يفرق به الحق تبارك وتعالى بين من يدعيها صدقا ومن يدعيها كذبا - وهو المعجزة بالإضافة إلى السيرة الذاتية لكل منهما - لكان الباب مفتوحا لكل من يشعر فى نفسه - صدقاً أو كذباً كذلك - نوع ذكاء أو تأثيرا روحيا ، ليدعى أنه رسول من عند الله تبارك وتعالى .

إن الصفات والخصائص التى كان عليها أنبياء الله ورسله يمكن أن تكون فى مجموعها ضمانا أكيدا ، لا يتسرب من خلاله دعوى الأدعياء ، كما أنها فى نفس الوقت تكون ذات أثر واضح فى الوصول بالمهمة التى نيطت بهم إلى مداها .

صفات الرسل على سبيل الإجمال

يقرر جمهور الباحثين فى علم العقيدة أن رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، يتصفون على سبيل الإجمال بكل كمال بشرى ، ماديا كان ذلك الكمال أو معنويا ، ويقصد بالجانب المادى مايتصل ببنيتهم وبنائهم الجسمانى ، ويقصد بالجانب المعنوى ما يتصل بالكيان الداخلى كله ، العقل - المشاعر - الأحاسيس - الوجدان الخ ، كما أنهم فى نفس الوقت يتنزهون عن كل نقص بشرى كذلك ، فى الجانبين : المادى والمعنوى أيضا . والواقع أن ما انتهى إليه هؤلاء ، إنما كان منظورا إليه من جانبين :

أولا : تبعة الرسالة وما تتطلبه من ذلك الكمال البشرى بنوعيه ، وهذا كما قلنا ، إنما كان كذلك لأن الحق سبحانه وتعالى يصنع أنبياءه ورسله على عينه .

ثانيا : وهذا الجانب لازم للأول وتفسير له ، أن تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد قرر ذلك بكل وضوح ، وإذا كان لبعضهم مما يمكن أن يكون محل مؤاخذة قبل الرسالة أو بعدها ، فإنما ينبغى أن يفسر فى ضوء اعتبارين بارزين :

أولا : تأكيد بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم أصحاب عقول ، بها يفكرون وأصحاب إرادة بها يخصصون بعض الأمور المتقابلة على بعض ، وأن طبيعتهم البشرية تقتضى ذلك ، بخلاف الطبيعة الملكية ، أى أن لهم « اجتهاداتهم » المبررة ، كما تحدث القرآن الكريم عن بعضها ، مما سيأتى ذكره فى موضعه .

ثانيا : أنهم لا يقترفون كبيرة ولا يصرون على صغيرة قبل الرسالة أو بعدها . وبين ما يجب لهم من صفات الكمال البشرى ، مما ذكرناه على سبيل الإجمال ، وما يتنزهون عنه من كل نقص بشرى كذلك ، تكون الأمور الجائزة ، التى تتصل بهم من حيث كونهم بشرا ، إنهم يأكلون ويشربون وينكحون ، ويعملون ،

وينتصرون ، وقد ينهزمون ، وقد يقع على بعضهم القتل ، كما حدث لبعض أنبياء بنى إسرائيل ، ويكذبون ، وتنالهم يد الظلمة الخ .

وينبغى هنا أن ننبه إلى أن أقوام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد رموهم بكل النقائص ، بل قد وصل بعضها إلى الرمى بالضلالة ، والسفاهة ، إلى غير ذلك من بقية المطاعن التى تحدث بها هؤلاء الأقوام ، وهى كلها ممن لم يدرك حقيقة واقعه ، لأنه واقع صنعه بنفسه أو شارك فى صنعه ، بالإضافة إلى ما يجئ به هؤلاء .إن القرآن الكريم قد أظهر هذه القضية بكل وضوح ، حين كشف عن المعيار الذى كان يتعامل به بنو إسرائيل مع أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام فقال : « .. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » .

وإذا كان معيار الحق هو « هوى النفس » فماذا ينتظر ممن تعامل به أن يصف أصحاب الحق ، وبخاصة أصحاب الرسالات العظمى التى جاءت لتضع معيارا جديدا هو الحق فى ذاته ؟ . إن تاريخ الرسالات كلها كان مسرحا لذلك الصراع بين هذين المعيارين :« الحق فى ذاته » الذى جاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليجعلوه قاعدة التعامل فى كل جوانب الحياة ، « وهوى النفس » الذى فى ضوئه حكم على الرسالات وعلى أصحابها .

والمؤكد أن هذه سنة الله فى خلقه وفى كونه ، لاختبار العزمات والإرادات ، وليميز الله الخبيث من الطيب ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (العنكبوت : ٢ ، ٣)

صفات الرسل على سبيل التفصيل

لا شك فى أن الصفات البشرية كثيرة ، وقد ذكرنا ما كان عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام من تلك الصفات على سبيل الإجمال . وأما ما كان لهم على سبيل التفصيل ، فقد حصرها علماء العقيدة فى أربع صفات : هى : الصدق - العصمة - التبليغ - الفطانة . وقد ذكر بعض الكاتبين صفتى الذكورة والحرية ، إضافة إلى هذه

الصفات الأربع . وإذا نظرنا إلى طبيعة المهمة التى نيطت بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، للاحظنا أن تلك الصفات يمكن أن تتضمن صفات أخرى تكون من لوازمها ، تستوعب كل الفضائل البشرية ، مثل : الحكمة - الصبر - الشجاعة - الحلم - العفو - التسامح - السخاء - الإيثار - التوكل - الحزم الخ .

والقارئ للقرآن الكريم يرى هذه الصفات بارزة جدا فى حديثه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ذلكم لأنها مطلوبة أن يتحلى بها الإنسان ، حتى يظل على إنسانيته فما بالنا بمن يكونون فى مقام القدوة والتأسى ؟

ويظهر أن علماء العقيدة عندما اقتصروا على هذه الصفات التى عرضناها قبلا ، إنما لاحظوا ما يتصل منها بجانب الرسالة والتبليغ ، وأما سائر الصفات التى أشرنا إليها ، فقد سكتوا عنها ، لأن هذه فضائل نفسية ، هى لهم بحكم كونهم بشرا أسوياء وإن كانت فى نفس الوقت تتصل بالصفات اللازمة للتبليغ كما ذكرنا آنفاً

١- الصدق

يراد بهذه الصفة : أن تكون دعوى الرسالة التى يدعيها الرسول مطابقة للحقيقة والواقع ، بمعنى : أن يكون إخباره من يرسل إليهم بأنه رسول من عند الله جاءهم ليبشرهم وينذرهم هو فى الحقيقة كذلك ، وإذا كان الصدق - وهو الإخبار بما يطابق الواقع - أمرا مطلوبا كفضيلة من الفضائل التى ينبغى أن يحوزها الإنسان ، فمن باب أولى أن يكون فضيلة مطلوبة ممن يتحمل عبء الرسالة الإلهية .

والصدق فضيلة كذلك فيما بعد دعوى الرسالة ، التى يؤيد الله فيها رسله بالمعجزة من الإخلاص فى القول والعمل ، ليكون الرسول هو القدوة والأسوة ، غير أنه فى موضوع دعوى الرسالة أظهر ، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج لهذه الفضيلة فيما أخبر به موسى عليه السلام فرعون بأنه صادق فى دعواه ، قال تعالى : « وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » (الأعراف : ١٠٤ ، ١٠٥) كما ذكر فى حق

نبينا عليه الصلاة والسلام قوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليمـا حكيمـا » (النساء : ١٧٠) وقوله :« وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى» (النجم : ٣ , ٤) وهذه الآيات تمثل القاعدة الأساسية التى يتعامل بها رسل الله عليهم أجمعين صلوات الله وسلامه مع وحى السماء ، إنهم فى ذروة الأمانة والصدق على ما أمروا به ، كوسطاء بين الحق تبارك وتعالى وبين من يرسلون إليهم . ولا يتصور العقل أن يكون المختار لهذه المهمة الخطيرة ، ممن يخبر بخلاف الحقيقة ، لأنه مؤيد من عند الله تعالى فى كل ما أخبر عنه . ولو أنه - فرضا - أخبر بغير الحقيقة ، لكان كاذبا ، وتأييد الكاذب كذب ، والكذب على الله تعالى محال . من ثم يقول علماء العقيدة - وقولهم حق - إن المعجزة التى تظهر على يد مدعى النبوة ، تتنزل منزلة قوله تعالى : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى .

إن القرآن الكريم قد حدد المعالم الرئيسية للرسالات والرسل ، بطريقة لا يمكن معها أن يتصرف هؤلاء فى شىء مما يوحى إليهم ، لأنهم بذلك يكونون قد خالفوا مهمتهم فالرسالات الإلهية من أبرز معالمها : الهداية والإصلاح ، ولن يتم ذلك إلا بالمنهج الذى وضعه الحق تبارك وتعالى . لأنه الأعلم بنفوس عباده ، وما به هدايتهم وصلاحهم ، والسبيل إلى ذلك هو الأوامر الإلهية ، وما يتبعها من المسنونات والمستحبات ، وكذلك ما به ضلالهم وفسادهم والسبيل إليه هو النواهى وما يتبعها من المكروهات . ولا يكون ذلك إلا للحق تبارك وتعالى وحده . إن هذين القطبين : الأوامر والنواهى يمثلان طريق الله وصراطه المستقيم والتدخل البشرى - ولو من الرسول نفسه فى غير ما يقره الله عليه فما بالنا بعامة البشر - يمثل منهجا موازيا لمنهج الله ، لا يحقق الغاية من الرسالات والهدف الأسمى لها . وهذا التدخل تتعدد درجاته ومستوياته بحسب التصرف البشرى فيما جاوز الإطار العام للمنهج الإلهى .

لكل ما تقدم رأينا القرآن الكريم يبين لنا ولمن قبلنا ولمن بعدنا هذه الحقيقة الواضحة حقيقة مهمة الرسول - أى رسول - ممثلة فى خاتمهم عليه الصلاة والسلام ، حين صاغها فى أسلوب الحصر والقصر كما يقول البلاغيون : « إن عليك إلا البلاغ » « فذكر إنما

أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » أى أن المهمة التى نيطت بالرسول مقصورة ومحصورة فى البلاغ والتذكير دون سواهما .

وفى نفس الوقت يسوق بعض الآيات التى تحمل من الوعيد والإنذار الشىء الكثير ، لو أن الرسول تصرف من تلقاء نفسه فى شىء يخص الرسالة ، وهذا سياق جا بطريق إبطال النقيض ، لتسلم القضية الأساسية ، وهى صدق الرسول فيما هو بصدده مما يتعلق بموضوع الرسالة والبلاغ قال تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » (الحاقة : ١٤.١٦) .

يكمل الصورة التى نحن بصدد بيانها واقعة عملية تؤكد القاعدة النظرية التى أشرنا إليها ، لقد طلب بعض المشركين من رسول الله صلى الله عليه وسلم - على سبيل التعجيز والمراوغة - أن يأتيهم بقرآن غير الذى جاءهم به أو أن يبدله ، فكان الرد حاسما وواضحا يتجلى فى بيانه عليه الصلاة والسلام لمهمته . وهى « الاتباع » لا « الابتداع » قال تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » (يونس : ١٥) .

وإذا كان فى منطق العقل والفطرة أن الأشياء تتميز بأضدادها ، فماذا يكون الكذب كبديل للصدق ، وبنفس الدرجة التى أشرنا إليها من قبل ، فى مقام تبليغ الرسالة وما دون ذلك ؟ أليست الرذائل - والكذب من بينها - إلا ضعفا فى النفوس والقلوب تنزل بمن يقترفها عن درجة الإنسانية السوية ؟ إن الكذب يستهدف قلب الأمور وتغيير الحقائق ، فهل رأينا نفسا شريفة تؤثره على الصدق ؟ وهل لاحظنا مجتمعا سويا يقره ؟ كلا ، وإذا كان هذا أمرا مجمعا عليه لدى أصحاب النفوس العالية والعقول الفاهمة فى أوساط البشر العاديين ، فإنه من باب أولى يكون فى حق من يبلغون رسالة الله ، من قبيل المستحيلات ، التى لا تقع منهم ، لأنه نقص بشرى ، وهم فى قمة الكمال الإنسانى ، بحفظ الله تعالى لهم .

إن القرآن الكريم قد وصف « الكاذبين » بالإجرام والظلم ، بل يمكن أن يقال إن الكذب والكاذبين قد استجمعا فى الكتاب المبين كل الرذائل ، وحسبنا هذه الآية كمثل لما سواها مما جاء فى معناها ، قال تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون » (يونس : ١٧) . والذى تفيده الآية الكريمة أن الكاذبين قد بلغوا فى ظلمهم للحقيقة ولأنفسهم مبلغا ليس دونه مقام .

مسألة :

المتتبع للآيات القرآنية التى تناولت قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما حدث لهم من الملأ من أقوامهم ، يمكن أن يدرك أن الجحود والإنكار والتكذيب لما جاءتهم به الرسل ، إنما كان مسألة ظاهرية ، تمليها عوامل الإلف والعادة والتقليد غير البصير ، يؤيد ذلك ما انطوت عليه الفطر السليمة من إدراك الحق والصدق بطريقة لا تحتاج إلى دليل ، لأن فى طبيعة كل منهما دليله القوى ، وهؤلاء الذين ظلت فطرهم هكذا ، آمنوا بما جاءهم من الحق ، ولا يكون ذلك إلا عن تصديق . ومن ثم يصبح تصديق الصادق هو القاعدة ، وتكذيبه هو الاستثناء الذى يؤكد صحة القاعدة . ودليلنا على ذلك من كتاب الله تعالى ما حكاه القرآن الكريم فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وسحرته ، حيث جاءتهم الآيات صريحة على صدق ذلك النبى الكريم وأنها تقع من النفوس والعقول موقع التأثير ، غير أن المعارضة الظاهرية كان لها تأثيرها فى التكذيب وعدم التصديق قال تعالى : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » (النمل : ١٣ ، ١٤) . فالظلم والاستكبار - وهما صفتان ذميمتان تقع على القشرة الظاهرية من الإنسان - هما سبب الجحود والتكذيب بالآيات التى جاء بها موسى عليه السلام ، وأما ما تنطوى عليه دخائل النفس وعمق الفطرة ، فقد كان الاستيقان . وهذا يعنى بوضوح أن التكذيب لا يمكن أن يكون دليلا على الكذب ، بل إن القرآن الكريم يصرح فى موقف آخر أن التكذيب إنما يكون عن جهل وعدم إدراك لحقيقة الموضوع الذى كذب ، « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما تأتهم تأويله ...» (يونس : ٣٩) .

٢- العصمة

هذه الصفة تعني عند علماء العقيدة حفظ الله تعالى أنبياءه ظاهرا وباطنا ، بحيث يفعلون كل المأمورات ويتركون كل المنهيات ، وبمعنى آخر : لا يتركون مأمورا به ولا يفعلون منهيا عنه ولما كان هذا الموضوع ذا أهمية بالغة فى مقام الرسالات الإلهية ، فقد استحوذ على اهتمام علماء العقيدة وغيرهم من علماء الأمة ، وظهرت فيه اجتهاداتهم إلى حد كبير ، ذلكم لأن الرسل بشر ، والطبيعة البشرية من حيث هى ، فيها منازع إلى الخير ، وأخرى إلى الشر ، وقد يعتريها النسيان والغفلة ، إلى غير ذلك من الأمور التى يمكن معها القول بأن الإنسان يمكن أن تصدر منه أفعال أو أقوال ، أو تكون لديه اعتقادات ليست مطابقة للواقع الدينى . أى: لأوامر الله ونواهيه ، بصرف النظر عن كونه رسولا مجتبى ، فالذين يتصورون أن العصمة التى اختص بها الأنبياء واسعة المدى ، تشمل حياتهم كلها ، حتى ما كان منها قبل البعثة ، يذهبون إلى تأكيد عصمتهم عن جميع المخالفات الشرعية ، الصغائر منها والكبائر على حد سواء ، وأما الذين يتصورون أن العصمة إنما تكون فيما يتعلق بالوحى والتبليغ ، فإنهم يجوزون أن تقع منهم الصغائر والكبائر سهوا قبل البعثة وبعدها . ولما كان الأمر هنا على هذه الدرجة من الدقة والأهمية ، فقد لزم أن نلقى عليه بعض الضوء حتى يستبين للقارئ فكر الباحثين فى هذه المسألة .

مذهب الأشاعرة فى عصمة الأنبياء :

يرى جمهور الأشاعرة وجوب عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد النبوة عن الذنوب كلها ، كبيرها وصغيرها ، إلا ما جاء على سبيل الخطأ أو النسيان إذ ليس هذا من الذنوب فى شيء [1] ولعلهم قد لاحظوا فى ذلك أن كل فعل ينبغى أن يكون القصد إليه معروفا لدى الفاعل ، وبهذا يكون ما جاء خطأ : أى دون تعمد ، أو نسيانا ، فلا يسمى ذنبا . ويذكرون أن الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم قد نسى فى صلاته . كما أنه اجتهد فى بعض المواقف ، ولم يكن قصده إلا خيرا ، فجاء القرآن

---

(١) البغدادى : أصول الدين ص ١٦٧ .

الكريم بخلاف ما كان يرى ، من ذلك : رأيه فى أسرى بدر ، وفى الثلاثة الذين خلفوا ، وما ذهب إليه فى مسألة عبدالله بن أم مكتوم . ولعل الأشاعرة هنا ، إنما يلاحظون أن الجانب البشرى فى الرسول - أى رسول - ينبغى ألا يغيب عن الذهن حين التعرض لهذه المسألة .

أما حديثهم عن عصمة الأنبياء قبل البعثة ، فقد أجازوا عليهم الذنوب [1] ويظهر أنهم فى هذا المقام كانوا متساهلين ، حيث لم يفسروا طبيعة هذه الذنوب ، ولو أنهم فصلوا القول فى ذلك بحيث يظهر من كلامهم أن الذنوب التى يمكن أن تقع من الأنبياء قبل البعثة هى تلك التى لا تتعارض مع حقائق الذى جاءوا به بعد ذلك أعنى بذلك : أن الشرك ذنب ، والقتل ذنب ، والكذب ذنب الخ ، فهل يمكن على إطلاقهم هذا أن تقع هذه الذنوب ، أو واحد منها من الأنبياء قبل بعثتهم ؟ لا أعتقد ذلك ، ولا أعتقد أنهم يقصدون ذلك ، لأن الأشاعرة من الفرق المحافظة إلى حد كبير ، وإذن فإجازتهم وقوع الذنوب قبل البعثة ، لابد أن يخصص بالصغائر أو الكبائر التى لا تتصل بالاعتقاد . ويبدو أنهم هنا قد راعوا ما ورد فى القرآن الكريم من ذكره لبعض ذنوب الأنبياء قبل بعثتهم ، وأوضح ما يكون هذا الأمر ، ما جاء فى شأن موسى عليه السلام ، يوم أن استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، وقد اعترف - عليه السلام - بأن عليه ذنباً ، وقد خاف أن يقتل بهذا الذنب كما صرح القرآن الكريم .

مذهب المعتزلة :

وهؤلاء ليسوا على رأى واحد فى هذه القضية ، فذهب فريق منهم إلى أن ذنوب الأنبياء التى وقعت منهم خطأ من جهة التأويل والاجتهاد لا يؤاخذ عليها ، ومن ثم فلم يجوزوا عليهم أن يقع منهم ذنب على سبيل القصد والتعمد مع العلم بأنه ذنب ، وقد ضربوا مثلا لذلك بآدم عليه السلام فقالوا : إن أكله من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ، لم يكن عن قصد لعصيان نهى الله عن ذلك ، وإنما كان بتأويل منه واجتهاد ،

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٨ .

حيث ظن أن النهى كان عن الأكل من شجرة بعينها ، وله أن يأكل من غيرها من جنسها . فالله سبحانه قد نهاه عن الأكل من جنس الشجرة ، فتأول النهى واعتقد أن المنهى عنه الأكل من شجرة مخصوصة .

وأما أبو هاشم الجبائى فقد ذهب إلى أن ما وقع من آدم عليه السلام كان ذنبا ، بدليل أنه تاب فتاب الله عليه ، ولم يذكر الوجوه الأخرى للمسألة ، فالقرآن الكريم قد ذكر أن آدم عليه السلام قد نسى . وأن توبته ربما تكون قد وقعت عن هذا الجانب ، ويرى أبو هاشم كذلك أنه يجوز أن تقع منهم الصغائر التى لا تنفر . وأما النظام وجعفر ابن مبشر فيذهبان إلى أن الأنبياء مؤاخذون على السهو والخطأ نظرا لمكانتهم وإن كان ذلك لا تؤاخذ عليه أممهم [1] ، ولعلهما يستندان فى ذلك إلى ما جاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

مذهب الكرامية :

يذهب هؤلاء إلى أنه يجوز الذنب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما لا يوجب الحد ولا التفسيق ، وبعضهم يجوز أن يقع منهم الخطأ فى التبليغ وقد زعم هؤلاء أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أخطأ حين قرأ قوله تعالى : « ومناة الثالثة الأخرى » فقد قال بعد ذلك : وإن شفاعتهن لترتجى . والمحققون على أن هذه العبارة مما ألقاه الشيطان فى قلوب المشركين ، فاعتقدوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد نطق بها ، [2] ومما لا شك فيه أن مذهب الكرامية هنا ، ليس صحيحا ، ومخالفا لما عليه جمهور علماء الأمة لأنه يؤدى إلى أنه لا فرق بين « الرسول » وغيره فيما يتعلق بإرتكاب الذنب اللهم إلا ذلك الفرق الضئيل ، وهو أن يكون الذنب غير موجب للحد ، ومن قبل مخالفة هذا الرأى لرأى جمهور علماء الأمة ، مخالف لروح القرآن الكريم ، التى بينت أن الله سبحانه وتعالى يصنع رسله على عينه ، ويعصمهم من الذنوب ،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر وانظر : تفسير قوله تعالى من سورة الحج آية ٥٢ : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » فى كتب التفسير المعتبرة .

وبخاصة ما كان منها كبيرا . وأظهر آرائهم بطلانا تجويز بعضهم أن يقع الخطأ من الأنبياء في التبليغ لأن هذا مناف لمهمة الرسالة .

وفى تقديرى أنه ينبغى أن يراعى فى هذه القضية جانبان ، سواء أكان الحديث عنها قبل بعثة الأنبياء أم بعدها ، لأن الفارق الزمانى لا معنى له ، بعد أن عرفنا أن الله سبحانه وتعالى ، يتولى من يختاره لتبليغ رسالته بنوع خاص من الرعاية منذ حداثته ، بل ما قبل ذلك .

الجانب الأول : الناحية البشرية فى الرسول .

الجانب الثانى : ناحية المهمة التى تناط به .

فإذا لاحظنا الجانب الأول وحده فإن الرسول قد يصدر عنه بهذا الاعتبار من الذنوب، صغيرها وكبيرها ، مما يوجب الحد أو ما دون ذلك ، شأنه كشأن البشر العاديين . وأما إذا لاحظنا مع ذلك ، الجانب الثانى ، وهو أنه إنسان مهيأ لتحمل عبء رسالة إلهية ، مع بشريته أيضا ، فإنه يمكن أن يقال : تقع من الأنبياء قبل البعثة ذنوب لا عن قصد، بل عن اجتهاد وتأويل ، وأما بعد البعثة فلا يتصور أن يقع منهم مما يتعارض مع البلاغ والتبعة الملقاة على عاتقهم ، وأما ما عدا ذلك فيما عدا الذنوب الكبيرة المنفرة فيجوز أيضا أن يقع منهم عن اجتهاد لا يقصد من ورائه إلا إثبات بشريتهم ، مع عدم الإصرار عليه ، متى لاح لهم أن الحقيقة فى غير ما وقع منهم ، اعتقادا أو عملا . وهذا ما نطق به القرآن الكريم فى شأن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : آدم - نوح - إبراهيم - موسى - محمد صلى الله عليه وسلم . فهؤلاء - وغيرهم - قد وقعت منهم أخطاء ، لا يقصد بها تحدى أوامر الله أو نواهيه ، وإنما تجلى فيها الجانب البشرى ، فلما علموا أنها لم تكن فى محلها وعوتبوا فى ذلك رجعوا عنها .

٣- التبليغ

الرسالات الإلهية منهج ربانى يسوقه الله سبحانه وتعالى للبشر من ذوى العقول ليقودهم إلى خيرى الدنيا والآخرة ، وذلك باختيارهم وإرادتهم ، وهى تحمل معها من

الأدلة والبراهين ما يجعلها حجة لمن آمن بها ، وحجة على من أعرض عنها . ولا تكون كذلك إلا إذا بلغتهم بطريقة صحيحة . من ثم نرى أن تبليغ الرسالة هو المهمة الكبرى التى تناط بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد قال الحق سبحانه وتعالى فى حق رسولنا صلى الله عليه وسلم - والخطاب هنا شامل لكل رسول - : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين » (المائدة : ٦٧) وقال سبحانه فى حق موسى وهارون عليهما السلام : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » (طه : ٤٣ ، ٤٤) فالقول المطلوب منهما ليس شيئا أكثر من تبليغ ما أرسلا به من عند الله تعالى . وأظهرت الآية طبيعة المنهج الذى ينبغى أن يتعامل به الرسل فى تبليغ رسالتهم ، تجلى ذلك فى هذا التعبير الواضح « قولا لينا » أى : أن الطريقة المثلى للبلاغ ينبغى أن تقوم على « اللين » لا على الغلظة التى تنفر المدعوين منها فيضيع المعنى من وجود الرسالة . وهذا المعنى قد تأكد أكثر من مرة فى القرآن الكريم من ذلك ما ذكره الحق تبارك وتعالى فى قوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (النحل : ١٢٥) وفى جدال أهل الكتاب ، أمر الحق سبحانه وتعالى أن يكون بالتى هى أحسن ، قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ... » (العنكبوت : ٤٦) .

كما يقول تعالى مبينا طبيعة الدعوة والبلاغ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه على طريق الحق : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » (يوسف : ١٠٨).

والآيات التى ذكرناها فى مجموعها تشير إلى أمرين :

أولا : وجوب تبليغ الدعوة عن الله تعالى ، إلى المدعوين .

ثانيا : أن يكون الأسلوب المتبع فى ذلك متلائما مع طبيعة الدين ، من حيث اللين - الوعى - الاستبصار الخ.

ويلاحظ أن الآيات مع بيانها للأمرين السابقين ، تشير إلى أمر واضح جلى ، هو أن « التبليغ » وطبيعته ، معنى يتخطى « الوجوب » على الأنبياء والمرسلين إلى أتباعهم حتى يظل منهج الله تعالى واصلا إلى الناس ، وهذه مهمة ينبغى أن يدرك مسؤوليتها أتباع الرسالة الخاتمة فى يوم الناس هذا ، كل على قدر ما تؤهله له مواهبه وقدراته فى الدعوة إلى الله تعالى . إن التقصير فى هذا السبيل يقف بأهل هذا الدين - وبخاصة العلماء منهم - أمام تبعة ضخمة ، ومسؤولية عظيمة وثقيلة .

إن تقرير صفة « التبليغ » قد قررها علماء العقيدة بطريقة يظهر منها أن التقصير فى ذلك خيانة ، تتنافى مع ضرورية اتصال السماء بالأرض لعلاج البشرية مما يصيبها من أمراض نفسية وعقلية واجتماعية الخ ، لقد قالوا : لو لم يبلغ الرسول - أى رسول - الرسالة التى أمر بتبليغها لكان كاتما لما أمر بتبليغه ، والكتمان خيانة ومخالفة لأمر الله تعالى ، والخيانة نقص ، لا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وينتهون من هذا كله إلى أن صفة « التبليغ » من الصفات التى ينبغى أن يكون لها أثرها الواضح فى عملية إرساء قواعد المنهج الربانى ، لمن جاء إليهم .

إن القرآن الكريم قد قص علينا ما قال الأنبياء لأقوامهم ، ولم يأت نص من كتاب أو سنة يقرر أن أحدا منهم قد كتم شيئا أنزل عليه ، حتى ما كان موضع عتاب لبعضهم ، وهذا كله يعنى شيئا واحدا : هو : ضرورية البلاغ ، وأن ذلك كان صفة لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد بين القرآن الكريم فى حديثه عن أهل الكتاب أن بعضهم كان يكتم بعض ما أمر الله بتبليغه مما جاء فى التوراة والإنجيل، من أجل شهوات عارضة ، وهذا عبث بمنهج الله لا يليق بالإنسان العادى ، فضلا عن أن يكون رسولا مجتبى . وينبغى أن نشير هنا إلى أمر هام هو : أن مهمة الرسول مقصورة على « البلاغ » فقط ، وأما النتائج المرتبة على ذلك فهى بيد الحق سبحانه وتعالى وحده لذا رأينا القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فى أكثر من آية ، جاءت لتبين للرسول - أى رسول - حدود مهمته ، حتى لا ييأس عندما تكون النتائج على غير ما كان يتمنى ، لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعنى نفسه كثيرا يوم يرى أن مردود « البلاغ » غير متناسب مع الجهد الذى يبذله ، فجاء قوله : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم

بمسيطر » وقوله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .....» وقوله : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ليؤكد أن « البلاغ » وحده بالطريقة الهينة اللينة ، هو مهمة الرسول ، وأن الكتمان أو الزيادة أو النقص ، لا يتفق مع الأمانة التى اؤتمن عليها الرسول ، كى يبلغها إلى من أرسل إليهم .

٤- الفطانة

تعنى هذه الصفة : الذكاء العقلى والقلبى والنفسى ، الذى ينبغى أن يكون لذوى المهام الكبرى . وهى معنى شامل لكل أنواع الوعى . ومن الطبيعى أن تكون لكل من يختارهم الحق تبارك وتعالى لتبليغ رسالته ، بعد أن يقر العقل لزومها لكل قيادة بشرية دون الرسل ، ولنا أن نتصور إنسانا خامل الفكر والذهن ، غير مشرق القلب والنفس ، ثم نسأل أنفسنا عن مدى تأثيره فى الحياة ، والإجابة الصريحة ستكون : لا شىء ، إن الوجود كله قد أقامه الحق تبارك وتعالى على أساس من التفاوت بين أنواعه ، فعالم الإنسان أشرف من عالم الحيوان ، وأعلا منه ، لأن الإنسان يمتاز عن الحيوان بالإدراك والوعى والإرادة ، وعالم الحيوان أعلا من عالم النبات ، لأنه يمتاز بنوع من الشعور الغامض نحو أفعاله وتصرفاته ، كما توجهه غرائز غامضة كذلك وهذا ليس موجودا فى عالم النبات ، الذى يحتاج إلى مطالبه مع عدم الشعور بها وهذا العالم أعلا درجة من عالم الجماد . الذى ليس له إلا الوجود المادى فقط .

ولا شك فى أن كل عالم من هذه العوالم تتفاوت أفراده ، وبناء عليه فنوع الإنسان متفاوت المراتب ، والأسباب الحقيقية للتفاوت لا ترجع إلى عوامل عرضية ، بل إلى أمور عقلية وقلبية ونفسية . من ثم نرى أن الذين يختارهم الله سبحانه وتعالى لتبليغ رسالته ينبغى أن يكونوا من أصحاب المواهب المتميزة ، بحيث يكونون فوق غيرهم من البشر من هذه الناحية ، إنهم أصحاب رسالة ، وأرباب دعوة ، ولا يمكن أن تصل رسالتهم إلى غايتها ، ما لم تكن لديهم من المواهب ما به يكونون أهلا للمهمة التى تعلقت بوجودهم .

ثم من جانب آخر : هل يتصور العقل أن يختار الله إنسانا خامل العقل والقلب والنفس ليتحمل مهمة كبرى هى مهمة الرسالة ؟ إن هذا كله يؤكد أن صفة «الفطانة» لازمة لنجاح المهمة التى تناط بوجود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقرآن الكريم عندما حدثنا عن قصصهم أظهر لنا ما كان يتمتع به هؤلاء من ذكاء بالمعنى الذى ذكرناه . فقد وصف بعضهم بالحكمة والعلم - مثل إبراهيم ويوسف وغيرهما - ولا يكونان إلا مظهرا للفطنة ، كما بين أن بعضهم قد جادل قومه ، حتى أفحمهم ، وأظهر باطلهم ، ولا يكون ذلك ، إلا إذا كان قادرا على إظهار الحجة على صدق ما جاءهم به ، وكذب ما هم عليه . ولعل أظهر الآيات التى أبرزت فطانة الأنبياء ، ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام فى محاجة قومه ، حين كسر أصنامهم وحين بين لهم أن الكوكب والقمر والشمس ليست آلهة ، ليخلص إلى بيان الألوهية الحقيقية لله رب العالمين ، على الوجه الذى ذكرناه فى حديثنا عن إبراهيم عليه السلام ، كما جاء فى القرآن الكريم من الآيات ما يزكى رسوله الخاتم من الناحية العقلية ، وإذا كانت الآيات التى جاءت فى هذا المقام فى شكل قد يفهم منه إقامتها بعد أن لم تكن قائمة ، إلا أنها فى الواقع كانت موجودة فى نفس الرسول وكيانه الداخلى ، ولو لم يكن مستعدا لذلك لما كان للحديث معنى . فالقرآن الكريم يقول له : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ... » ويقول : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

ثم إن حياته عليه السلام قبل البعثة كانت تدل على رجاحة عقله ، وسمو تفكيره ، حين قررعليه السلام فى بعض المواقف ما يدل على ذلك . وفى قضية رفع الحجر الأسود حين اختلف فيمن ينال هذا الشرف ما يؤكد ما نحن بصدده ، فقد أشار عليه السلام إلى اشتراك أظهر القبائل فى ذلك بالطريقة التى ذكرتها كتب السيرة .

صفتا الذكورة والحرية :

هاتان صفتان لم يتعرض لهما كثير من الباحثين ، ويظهر أن هؤلاء قد نظروا إلى واقع الأمر ، حيث إن ذلك الواقع يشهد بأن رسل الله عليهم الصلاة والسلام كانوا جميعا من صنف الرجال . وقد قال الله تعالى لرسوله الخاتم : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (الأنبياء : ٧) كما يشهد

الواقع كذلك ، بأنهم جميعا من الأحرار ، فلم يذكر عن أحدهم أنه كان عبدا ، ثم تحرر ، ذلك لأن العبودية نقص معنوى فى الإنسان ، نعم قد لا يكون للعبد دخل فى وضعه ولكنها على أى حال مسألة تجعل صاحبها غير قادر على التصرف فى شىء إلا باذن صاحبه من البشر . وهذا كله يتنافى مع طبيعة « البلاغ » الإلهى .

ولو أننا تجاوزنا الواقع وناقشنا المسألة من حيث هى لقلنا : إن للرجال من الخصائص فى تحمل عبء المهام الكبرى ما لا يكون للنساء ، ومن المؤكد أن أصحاب الدعوات يتعرضون لكثير من الأذى ، وبخاصة ما كان منه موجها إلى النفس ، وطبيعة المرأة لا تقوى على ذلك . وهذا لا يمنع أن يكون لها دور فى الدعوة غير أن تكون على رأسها ، ويوم أن قرر جمهور فقهائنا منع المرأة من الولاية العامة ، لم يكن حكمهم هذا قائما على التعصب ، بل كان معبرا عن الحقيقة والواقع ، هذا فضلا عما تعانيه بحكم طبيعتها كأنثى .

وأما عن الحرية فإننا نعلم أن العبودية لغير الله نقص بشرى ، والرسل منزهون عن كل نقص يتعارض مع المهمة التى أرسلوا من أجلها ، وبإختصار : فكل الصفات الإيجابية ، مما ذكرناه وما لم نذكره واجبة للرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومنزهون عن أضدادها .

الفصل السادس

دلائل صدق الرسالات الإلهية

يمكن إدراك صدق دعوى الرسالة بثلاثة أمور :

١- الأمـر الأول : حياة مدعى الرسالة وسيرته فى قومه قبل أن يكلف بها .

٢- الأمر الثانى : ما يؤيده الله به من خوارق العادات التى تظهر عليه مقرونة بدعوى الرسالة سواء تحدى بها أم لا .

٣- الأمر الثالث : مضمون الرسالة التى يبشر بها بالقياس إلى المصالح الحقيقية لمن يدعوهم إليها .

فأما الأمر الأول ، فقد قرر الحق سبحانه وتعالى فيه أنه أعلم حيث يجعل رسالته ، ولا يتصور من الحكيم أن يختار من يرسله إلا بما يليق بحكمته وعلمه ، لأنه مبلغ عنه، ومتحدث باسمه ، ولا يجوز من جانبنا أن نقرر الأوصاف والمؤهلات التى تكون فى الرسول ، بعد هذا البيان منه سبحانه وتعالـى ، وحسبنا أن نضيف إلى ما تقـدم قولـه تعالـى فى هذا المقـام ، تقريرا لحقيقة اختيار من يقـع عليـه عبء القيـام بالرسالة « لا ينال عهدى الظالمين » (البقرة : ١٢٤) وإذا انتفى أن يكون الظلم وسيلة لاستحقاق الرسالة ، فإن العدل الإنسانى فى أرقى صوره هو الطريق لهذا الاستحقاق ، مع استصحاب أصل المسألة ، وهو أن الله وحده هو الأعلم بمن يكون أهلا لتحمل هذه المسؤولية ، وحسبنا أيضاً أن نقرر أن الاصطفاء والاجتباء ، وإن كان له مبرراته من جانب من يختارهم الله لهذه المهمة إلا أن المقاييس الحقيقية تظل حقا لله وحده ، من ثم كانت الرسالة هبة واصطفاء وليست أمرا مكتسبا - كما أشرنا - وهذه نقطة هامة جدا فى هذا السبيل تغلق باب الادعاء ، وإن كان هناك ضمان أوفر ، وهو أن خارق العادة الذى يظهره الله على يد مدعى النبوة ، يكشف عن طبيعة الادعاء الحقيقى والادعاء المزعوم ، وفى قصة سجاح ومسيلمة شاهد على ما نقول . وفى هذا يقول ابن تيمية : « إنه يمتنع فى حكمة الرب وعدله أن يسوى بين خيار الخلق - الأنبياء - وبين

شرارهم ، وهم الذين يدعون النبوة كذبا ، لا فى سلطان العلم وبراهينه وأدلته ولا فى سلطان النصر والتأييد ، بل يجب فى حكمته ، أن يظهر الآيات والبراهين الدالة على صدق هؤلاء ، وينصرهم ويؤيدهم ، ويعزهم ، ويبقى لهم سلطان الصدق ، ويفعل ذلك بمن اتبعهم ، وأن يظهر الآيات المبينة لكذب أولئك الكاذبين ، ويذلهم ويخزيهم، ويفعل ذلك بمن اتبعهم » (١)

وهذا الذى قلناه يشكل الإطار النظرى للقضية ، وأما الإطار الواقعى ، فيحدثنا تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم كانوا أعلا أقرانهم كعبا فى أصالة النسب وكرم المحتد وحسن المنبت وطيب النشأة ، وأن ذلك يمتد منهم إلى أصولهم المباشرة والبعيدة . هذا بجانب طهارة الفطرة ونقائها ، وقد نقل الإمام البيهقى فى كتابه دلائل النبوة مجموعة من الأحاديث الصحاح تبين شرف نسب الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو مثل لإخوانه جميعا ، إذ ليس بدعا من الرسل ، كما يبين ذلك صريح القرآن الكريم ، من ذلك قوله - فيما رواه واثلة بن الأسقع : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » (٢)

المعجزات المؤيدة لدعوى الرسالة :

معنى المعجزة :

تعرف المعجزة بأنها : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة تأييدا له فى دعوى الرسالة . والمراد بالأمر الخارق ما كان كذلك فى الواقع ونفس الأمر وبهذا القيد يخرج السحر وغرائب المخترعات ، فهما ليسا من الأمور الخارقة للعادة ، إذ السحر له قواعد تتعلم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله : « يعلمون الناس السحر ..» وكذلك غرائب المخترعات فهى أمور تنال بالتعلم ، بدليل أن ما كان منها مستغربا بالأمس أصبح معترفا به اليوم ، وذلك كله بفضل التقدم العلمى

(١) النبوات : ص ٣٨٩ ط . دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٨٥ .

(٢) البيهقى : دلائل النبوة جـ ١ ص ١٣٠. ط . دار الفكر - بيروت - ١٩٨٣ .

والتكنولوجى . وأما ما يشارك المعجزة من الأمور الخارقة للعادة ، والتى هى من خلق الله تعالى فهى :

١- الإرهاص : وهو يشارك المعجزة فى كونه أمرا خارقا للعادة من خلق الله تعالى ، ولكنه يظهر على يد الرسول قبل بعثته ، كما حدث لعيسى عليه السلام .

٢- الكرامة : وهى كالمعجزة ، إلا أنها تظهر على يد عبد ظاهر الصلاح فى قومه كما حدث لمريم عليها السلام ، فقد بين القرآن الكريم أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، فلما سألها أنى لك هذا ، قالت من عند الله . وكذلك عندما هزت النخلة فتساقط عليها الرطب الجنى .

٣- الاهانة : وهى : أمر خارق للعادة يظهره على يد مدعى النبوة كذبا ، وتكون كاشفة عن ذلك الكذب ، حيث تأتى بعكس ما يدعى .

٤- الاستدراج : وهو - كذلك - أمر خارق للعادة يظهره الله على يد الكفار والمشركين ، استدراجا لهم . والفوارق بين هذه الخوارق معروفة بحسب من تظهر على يديه ، وزمن ظهورها .

هذا هو الأمر الثانى من الأمور التى ذكرناها آنفاً ، وقد أجرى الله سنته بأن يظهر على يد مدعى الرسالة أمراً خارقاً للعادة يأتى تصديقا لدعواه ، يكون - غالبا - من جنس ما نبغ فيه القوم إمعانا فى التحدى ، وقد وردت هذه المعجزات فى القرآن الكريم والسنة النبوية بمعنى الآية ، أى الدليل على تصديق دعوى الرسالة ، من ذلك ما جاء فى صدر سورة الإسراء تبيانا لصدق رسالة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » (أول سورة الإسراء) وما جاء فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم :« ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات مامثله

آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (١)

إنها أدلة مستلزمة لمدلولاتها كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهى ليست من الأدلة العامة ، بل من الأدلة الخاصة المرتبطة بمن ظهرت على يديه ، وبطبيعة الدعوة التى جاء ليبشر بها (٢) وفى هذا تفرقة بينها وبين الأمور الأخرى التى تشاركها فى الظاهر من خوارق العادات أو ماشابهها

والملاحظ هنا أن هذه الآيات هى من خلق الله سبحانه وتعالى ، تضاف إليه إضافة الفعل إلى فاعله ، من ثم نرى أن الكفار حينما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم بعض المطالب على سبيل العنت والتعجيز ، مضيفين نسبتها إليه ، بين القرآن فى خاتمة مطالبهم أنه ليس إلا بشرا رسولا ، أى ليس من طبيعته خلق هذه الآيات ، بل هى من خلق الله سبحانه وتعالى ، قال جل من قائل : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا » (الإسراء : ٩٠ - ٩٣) .

وقد تنوعت المعجزات بحسب المناسبات بالنسبة للرسل جميعا وبالنسبة للرسول الواحد ، كما تنوعت فى طبيعتها ، وكان هذا فى مجموعه مشيرا إلى شمولية المعالجة لقضية البراهين والآيات على تصديق الرسل ، حتى إن بعضها كان بمثابة المدخل إلى العقاب الذى يؤاخذ به القوم عند إعراضهم عن الدعوة التى جاء بها نبيهم ، وأظهر مثل لذلك « آية » ثمود عليه السلام وهى الناقة التى كان لها شرب يوم غير شرب يوم القوم والتى أمروا ألا يمسوها بسوء ، فلما عقروها وعتوا عن أمر ربهم ، أخذهم الله بالعذاب ، وقد صور القرآن هذا المشهد بقوله : « قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم

---

(١) البخارى : جـ ٨ ص ٦١٩ . جـ١٣ / ٢٦١ من فتح البارى .
(٢) النبوات : ٣١٣ .

معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ، فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم » (الشعراء : ١٥٥- ١٥٩) .

وأكثر الأنبياء ظهورا للآيات على يديه قبل محمد صلى الله عليه وسلم هو موسى عليه السلام ، فقد بين القرآن أنه أوتى تسع آيات ، وفى هذا دلالة ظاهرة على أن السبل الممكنة لتكون مدخلا إلى نفوس المدعوين قد استنفدت ، وأن سوء طويتهم قد تسبب فى تنوع الآيات ، حتى لا تبقى لهم حجة بعد ذلك ، وقد بين القرآن الكريم أن هذا التعدد والتنوع فى الآيات لم يغن عنهم شيئا لأنهم أغلقوا بصائرهم دون الإحساس بدلالاتها . فكانت آية الآيات هو المعاينة المباشرة لنتيجة إعراضهم كما جاء فى قوله تعالى : « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (العنكبوت : ٤٠) .

والمتتبع للآيات التى أظهرها الله على يد أنبيائه قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، يلاحظ أنها كانت أشياء مادية لا تدخل فى صميم الرسالة التى جاء بها الرسول ، بل هى دليل خارجى على صدق دعواه ، وهذا يعنى أنها تنقضى بزمانها ، أى أنها مرتبطة بالحدث الذى سيقت من أجله ، وكذا الحال فى معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام التى من هذا القبيل ولكن مع انقضاء زمانها فنحن نؤمن بحدوثها ، لأن الخبر الصادق قد قال بها أما معجزته الباقية ،والتى ستظل دائما موضوعا للتحدى ، لأنها فوق أن تكون حدثا ماديا ، فهى « القرآن الكريم » وفى هذا المعنى يقول ابن رشد : « إن دلالة القرآن الكريم على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست كدلالة انقلاب العصا حية ولا كدلالة إحياء الموتى وإبراء المرضى ، فإن تلك وإن كانت أفعالا لا تظهر إلا على أيدى الأنبياء ، وفيها ما يقنع الجماهير من العامة ، إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحى ، ومعنى الشريعة . أما القرآن فدلالته على صفة النبوة وحقيقة الدين ، مثل دلالة الإبراء على الطب ، ومعرفة السطوح على الهندسة ، ومثال ذلك : لو أن شخصين ادعيا الطب ، فقال أحدهما : الدليل على أنى طبيب أنى

أطير فى الجو ، وقال الآخر : الدليل على أنى طبيب أنى أشفى الأمراض ، وأذهب الأسقام ، لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى من المرض قاطعا ، وعند من طار فى الجو مقنعا فقط (1)

ونفس الفكرة هذه ، قد قررها الغزالى من قبل بشىء أكثر بسطا وتوضيحا ، فى كتابه القسطاس المستقيم ، ولا نريد أن نتوسع فى بيان أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم بعد الدراسات التى سيقت فى هذا المقام ، وحسبنا أن نقرر أنه سيظل الكتاب السماوى الوحيد ، الذى يتحدى الإنس والجن على كر السنين ومر الدهور ، وأن كل تقدم علمى صحيح يرقى إلى مستوى الحقائق الثابتة يمكن أن يستوعبه وزيادة ، مما يتأكد معه بالدليل القطعى أنه كتاب رب العالمين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد . وفوق ذلك - وبناء على قضية كونه الكتاب المحفوظ بحفظ الله له - هو المصدق لما بين يديه من الكتاب والمهيمن عليه ، ومن هذا نعلم أن كل ما اعترى الكتب السماوية السابقة من تحريف وتبديل ، يمكن معرفته على سبيل الاجمال من موقف القرآن الكريم منها ، وفى نفس الوقت - بحكم كونه يقينى الثبوت - تأخذ آيات الأنبياء السابقين المادية ، التى أيد الله بها صدقهم ، صفة الديمومة التاريخية ، لأن القرآن الكريم حين قص علينا قصص السابقين ، قرر أن هذا المنهج هو محض الحق ، « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » (الكهف :١٣)« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (سورة يوسف : الآية الأخيرة) .

إن هذا الذى قلناه يتعلق بالرسالة والرسل من حيث إنها علاقة بين الله سبحانه وتعالى وبين البشر والمبررات العقلية الواضحة التى تلزم العقل بصدق دعوى الصادقين ودحض دعاوى الكاذبين ، إننا كمسلمين نقر بجميع المعجزات التى جاءت بها النصوص الصحيحة - قرآنا كانت أو سنة - سواء منها ما يتعلق برسولنا عليه الصلاة والسلام ، أم ببقية إخوانه عليهم الصلاة والسلام ، ولا ننكر شيئا منها ، لا نخضع تلك المعجزات لمقولات العقل القاصر ، أو تفسيرات علمية لم تنضج بعد ، ونرفض موقف المنكرين لها أو لواحدة منها ، بأى تبرير من التبريرات ، ونرى أن هذا عجز فى العلم وقصور فى

(1) الكشف عن مناهج الأدلة . ص ٧٥ .

الفهم ، إن الذين يتحدثون كثيراً عن الغيبيات ، ويتخذون من حديثهم مدخلا لإنكار ما جاء به النص الصحيح لا يملكون على إنكارهم أى دليل . ومن المعروف فى المنهج العلمى أن النافى عليه الدليل كما أن على المثبت ذلك . ونحن نملك الأدلة على ما نقول ، وأدلتنا ، إما نص صحيح ، وإما عقل راجح صريح ، يرى أن الأمور الممكنة فى ذاتها ، إذا جاء بها النص الصحيح ، ولا يترتب على القول بها محال فى الحقيقة والواقع ، ينبغى ألا تنكر وأن إنكارها ليس علما ، بل تهريج باسم العلم .

وحسبنا هذا القدر الموجز من الحديث عن معجزات رسولنا صلى الله عليه وسلم وعن آياته ، ولم نشأ أن نطيل فيها كما أطلنا مع بعض إخوانه ممن سبق أن تعرضنا لآياتهم ، لأن القصد منها أن نظهر عناد هؤلاء الأقوام - وبخاصة ما يتعلق منها ببنى إسرائيل - وأما الآية الكبرى والمعجزة العظمى ، التى أيد الله بها رسوله الخاتم - القرآن الكريم - فلا تزال غضة طرية ، يدرك صدق دلالتها على الرسالة كل من تعامل بها بالمنهج الصحيح ، وأما من ليس كذلك ، فلن يكون موقفنا معه إلا كما بينه قوله تعالى « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ... » .

وقد جرت عادة الكاتبين فى معجزات الأنبياء أن يطيلوا الحديث عن القرآن الكريم إظهارا لجهات إعجازه ، ونحن نقول باختصار شديد ، إنه معجز بكل ما تحمل كلمة الإعجاز من معنى ، إعجاز فى نظمه وأسلوبه وبلاغته - إعجاز فى تركيبه ورصف ألفاظه وكلماته - إعجاز فى إخباره عن الغيب الصادق ، إعجاز فى اشتماله على محاور يمكن أن تكون منطلقا للعلم بكل مستوياته ، إعجاز للنفس والعقل والضمير والروح . إنه إعجاز تقصر الكلمات عن أن توفيه حقه . وفى هذا القدر كفاية ، ومن أراد المزيد فعليه الرجوع إلى الكتب التى تحدثت عن القرآن الكريم من هذا الجانب ، وبخاصة ما كتبه : الباقلانى - الزمخشرى - الجرجانى ، ومن المحدثين : مصطفى صادق الرافعى - سيد قطب .

ولن أترك القلم هنا حتى أشير إلى أمر تعرفه جماهير أمتنا ، لقد يتهيأ لبعض الأغرار أنه عندما يتناول القرآن بسوء سيهز من إيمان الأمة به ، وهذا وهم ، لا يقل عن الوهم الذى يحياه هؤلاء ، حين يتصورون أنهم قادرون على أن يقولوا فى كتاب الله

شيئا قد يرفعهم إلى دائرة المفكرين أصحاب الفكر المتحرر ... إن هذه كلها أوهام تدل على ضعف فى العقل ، وموت فى الشعور ، إننا نسأل هؤلاء هذا السؤال الموجز : أأنتم أعلم باللغة وأسرارها وبلاغتها ودقتها أم العرب الأقحاح الذين نزل عليهم هذا الكتاب العزيز ؟ إن أسلافكم كانت تتوافر لديهم دواعى الانتصار على هذا الكتاب المبين ولكنهم عجزوا عن ذلك ، وهم فى مقام البلاغة والفصاحة فى الذروة . فكيف يتصور هؤلاء الأحفاد أن يكونوا أكثر خبرا باللغة من أجدادهم ، وهم دونهم بأشواط بعيدة ؟ اللهم إنه التعالم المقيت الذى يدل على أنه ليس لديهم أثارة من علم ، ولا مسحة من عقل .

وأما عن مضمون الرسالة – وهو الأمر الثالث – فإنه يمكن تركيزه فى قضية واحدة ، ولكنها عامة وشاملة لكل جوانب الإنسان ، وحياتيه : الأولى والآخرة . إنها « قضية الإصلاح » فى الاعتقاد ، فى السلوك ، فى الاجتماع ، على مستوى : الفرد – الجماعة – الإنسانية . ومن الثابت أن مراتب الإصلاح متفاوتة ، ولما كان على رأسها ، إصلاح العقيدة ، فقد بدأت بها جميع الرسالات الإلهية ، ثم تأتى بعد ذلك المراتب الأخرى للإصلاح .

ونشير هنا إلى معنى ينبغى التأكيد عليه ، وإن كنا قد أشرنا إليه من قبل ، هو : إن المعيار الحقيقى للإصلاح ، هو ما جاء به الحق سبحانه وتعالى ، وتضمنته رسالاته ، ولا يمكن أن يتخذ من أهواء المدعوين معيارا لذلك . وإلا كان فى مجئ الرسالة مصادرة على المطلوب كما يقولون ، أى : أن يكون وجودها لا معنى ، بل يكون الضرر من وجودها آكد ، حيث تكرس الاعوجاج والانحراف ، وتقر ما ألفه البشر مما لا يقبله العقل والفطرة .

وقد حدثنا تاريخ الأنبياء أن العقبة الكؤود التى وقفت أمام الحق الذى جاءوا به ، هو : الإلف والتقليد غير البصير ، والغفلة عن الحق ، بعد أن طمست معالم الفطرة الصحيحة . وقد تحدثنا عن ذلك بشىء من البسط عند حديثنا عن بعض الأنبياء الذى ذكرناهم ، فى الفصل الرابع .

والآن ننتقل الى الحديث عن الرسالة والرسول الخاتمين .

الفصل السابع

الإسلام خاتم الرسالات ومحمد ﷺ خاتم المرسلين

ختم سلسلة الرسالات الإلهية بالإسلام ، وانتهاء مواكب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم ، مما أجمع عليه العقلاء من كل الأمم ، ومما يؤكده الواقع الصحيح ، كما جاءت به نصوص الكتاب والسنة . وكون الأمر هكذا يعنى أن الإسلام كامل فى ذاته ، مكمل للرسالات قبله ، وأنه يحمل فى مضمونه ما يمكن أن تطب به البشرية لكل أدوائها فى جميع عصورها الباقية ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . لقد أكمل الحق تبارك وتعالى به الدين ، وأتم به النعمة ، ورضيه لنا الدين الصحيح ، المهيمن على كل الرسالات السابقة ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا .. » (المائدة : ٣)

وكمال الإسلام يعنى :

أولا : أنه يملك فى ذاته من المؤهلات ما يتفق وجميع المطالب الإنسانية ، على مستوى الفرد والجماعة ، بحيث يشمل الحياة كلها ، فى صورتيها : الأولى والآخرة .

ثانيا : أن أصوله وثوابته باقية راسخة ، إما من حيث مصدره وإما من حيث المقومات الأساسية والأركان العامة ، وإما من حيث منهج وطريقة خطابه بحيث يشمل كل المدارك الإنسانية الراشدة .

ثالثا : أن العقلية الإسلامية مطالبة بأن تكون فى مستوى التبعة والمسؤولية لقضية « الإسلام الخاتم » صدق بلاغ وحسن توجيه ، وقيادة حياة فى كل جوانبها ، حتى يتلائم هذا كله مع طبيعة هذا الدين .

رابعا : ليس لحاضر الإنسانية ومستقبلها من منهج سوى الإسلام ، بعد أن أفلست

كل من : اليهودية والمسيحية ، فى علاج الأمراض البشرية ، وقيادة الحياة بطريقة صحيحة ، وبعد أن فقدتا معا عناصر المعقولية فى بناياتها وأنساقها الروحية والفكرية ، وذلك كله بسبب ما اعتراهما من عوامل التغيير والتبديل ، الأمر الذى قرر معه كثير من الباحثين الغربيين فى هذا القرن انعدام الثقة فيهما والبحث عن دين جديد يطب للبشرية أدواءها ويرسم لها طريقها إلى الخلاص الصحيح . (١)

وإذا كانت اليهودية والمسيحية هكذا ، فإن الديانات الوضعية والمذاهب البشرية الاجتماعية تكون أدخل فى عدم كفايتها لقيادة الحياة بطريقة صحيحة (٢) ولا يخفى على كل ذى عقل ما تعانيه اليوم أمم الحضارة والمدنية من ويلات ، وما تقاسيه من صعوبات ، فى ظل أنظمة يدعى لها التقدم والتطور ، ذلكم لأن تلك الأنظمة يوم أن اتخذت من الإنسان محورا لها ، لعلاج مشاكله وتنظيم حياته ، لم تنظر منه إلا إلى القشرة الظاهرة ، والمطالب المادية ، وأما أشواقه الروحية : نفسه - روحه - مشاعره وجدانه - أهدافه الحقيقية ، فلم تصب من ذلك شيئا ، فأصبح إنسان اليوم فى ظلها يعانى من شقائه وتمزقه ، أكثر مما يجنيه من صعود فى الجانب المادى فقط .

إن هذا الذى أقوله ليس وليد عاطفة من إنسان ينتمى إلى دين يريد له أن يستعلى ، ولكنها - قبل ذلك - حقيقة واقعة ، أقرها أساطين العلم ، فى مجال الحضارة وفلسفة التاريخ : أرنولد توينبى - جوستاف لوبون - رجاء جارودى - محمد اقبال - محمد أسد - وغيرهم .

الأصول الدينية لختم الأديان بالإسلام والنبوات بمحمد ﷺ :

قبل أن نبين هذا الموضوع بجلاء ، ينبغى أن نشير إلى قضية هامة ، هى : أن هناك تلازما فى الواقع وفى العقل ، وفى الدين ، بين ختم الإسلام للأديان ، وختم

---

(١) انظر : عباس العقاد . عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٣٥ .

(٢) انظر : رجاء جارودى : الإسلام دين المستقبل ص ٧٥ .

محمد صلى الله عليه وسلم للأنبياء ، بحيث لا ينفصل أحد طرفى القضية عن الآخر ، وبالتالى فإن الحديث عن أحدهما حديث عن الآخر . وعلى هذا سيكون علاجنا للموضوع . ومن ثم يظهر - أيضا - أن كل الدعاوى التى ظهرت ، يزعم أصحابها النبوة قديما وحديثا ، هى من قبيل الكذب الصريح ، كما سنشير إليه بإيجاز فى نهاية هذا البحث .

يقول الله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما » (الأحزاب : ٤٠) وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه إلا موضع لبنة فيه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » وقوله - أيضا - فيما رواه الشيخان : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى » وفيما رواه الإمام أحمد فى مسنده أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا نبوة بعدى إلا المبشرات ، قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الحسنة أو قال : الرؤيا الصالحة »

وجمهور المفسرين على أن لفظ « خاتم » يقرأ بفتح « التاء » وكسرها على أنه اسم «فاعل» ويفيد الأول المعنى المراد لأنه يعنى : الطبع بمعنى أنه لا نبى بعد ذلك ، من حيث أن الله تعالى ختم به سلسلة النبوات وطبع تلك السلسلة بخاتمها ، ويفيد الثانى نفس المعنى المراد بمعنى أنه صلى الله عليه وسلم آخرهم ولا ينقض هذا ، نزول عيسى فى آخر الزمان ، كما جاء به بعض الآثار ، لأنه لن يكون أكثر من داعية إلى دين الإسلام ، الذى بشر به فى حياته ، كما جاء فى « الإنجيل » وسيتصرف فى بعض ما آلت إليه المسيحية بعده ، حتى تتفق مع معطيات الإسلام ، ذلك الدين القيم .

المبررات العقلية :

لا نشك فى أن النصوص الدينية كافية فى صدق القضية التى معنا ، وإنما نردف ايرادها بالمبررات العقلية تأكيدا وتدعيما لهذا الصدق ، ونقطع الطريق أمام كل

الأدعياء الذين يقولون بخلاف ما نذهب إليه ، على أى مستوى يكون ذلك القول ، ولعل آخر هذه الأقوال ، ما نسمعه من أولئك الأغرار ، الذين يزعمون كفاية العقل فى قيادة الحياة ، ويحصرون الدين - إن آمنوا به - فى دائرة ضيقة جدا ، هى دائرة العلاقات الفردية بين العبد وربه ، ممن يسمون أنفسهم بأصحاب المشروعات الحضارية ، ويلقبون ذواتهم بالتنويريين . وهؤلاء لهم موقف من الدين واضح لا ينكر ، وأخفهم حملة عليه ، يحصره فى الدائرة التى أشرنا إليها . وأما أراذلهم وجهالهم فلا يحملون له أى توفير واحترام ، بل يرون أنه سبب تأخر الأمة وتراجعها .

ويعنى هذا كله إحلال العقل محل الدين ، وكأنهم يفتحون باب النبوة من جديد ولكن بمفهوم جديد ، يقوم على وحى العقل ، لا على وحى السماء . ولما كان هذا خبطا وجهلا وقولا بلا علم ، وإفلاسا روحيا ونفسيا ، فإن مقولة هؤلاء تلتقى عند الهدف الذى يسعى إليه أدعياء النبوة الجدد ، لاتحاد الصورة فى أذهان هؤلاء وأولئك صورة عدم الاقتناع بأن الإسلام هو الدين الخاتم ، وأن محمدا - كذلك - هو آخر سلسلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

لكن حرصنا الشديد على تصفية الحساب مع كل فكر فيه دخل وكل قلب فيه زيغ وكل نفس فيها مرض ، يحملنا على إبراز المبررات العقلية التى تؤكد قضيتنا ويمكن أن نلمس ذلك فى الجوانب الآتية :

١- الجانب العقدى .

٢- الجانب التشريعى .

٣- الجانب الأخلاقى .

٤- الجانب التنظيمى .

الجانب الأول :

فأما عن الجانب الأول ، فقد أقام الإسلام عقائده على أساس من العقل وحرية الإرادة والاتساق التام مع الفطرة الصحيحة . وفى ترسيخ هذه العقائد ، أقام الإيمان

بالله تعالى على أساس من الوحدانية التامة الشاملة لكل معانى الوحدانية ، وحدانية فى الذات وفى الصفات ، وفى الأفعال ، وبذلك رفض كل مظاهر الوثنية والشرك ، التى جاءت بها الديانات الوضعية والفلسفات المادية ، والتى آلت إليها الأديان السماوية قبل الإسلام - اليهودية والمسيحية - وقد انعكست الوحدانية الاعتقادية حين تمكنت من قلوب المؤمنين ومشاعرهم إلى وحدانية فى الواقع ، فتوحدت القلوب والنفوس والصفوف ، كما توحدت الوجدانات والمشاعر والأهداف والغايات . فكانت الأمة المسلمة ، التى عبر عنها القرآن الكريم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... » (آل عمران : ١١٠) .

لقد كانت عقيدة « الوحدانية » التى جاء بها الإسلام واسطة العقد فى الجانب الاعتقادى فاتسقت معها بقية الأصول الاعتقادية من الإيمان بوحدة الأهداف الكبرى للرسالات السماوية كلها ، وما نزل على الرسل السابقين من الكتب والصحف ، فكان الإيمان بجميع الرسل والكتب من بين تلك الأصول ، كما كان الإيمان بالملائكة واليوم الآخر والقدر من أركان الإيمان الصحيح الكامل . كل هذا قام على أساس من العقل والفطرة .

لقد كان القرآن الكريم محورا لبيان صدق ما جاء به الإسلام من عقائد ، مرتبطة بأدلتها الواضحة الجلية ، وبطلان ما سبقها من العقائد التى مسخت الإنسان ، وحولته إلى كائن لا يعقل ، وسلبت منه إرادته ، يوم أن كان التقليد ، لما كان عليه الآباء والأجداد هو المعيار الذى قاس به هؤلاء ما جاءتهم به أنبياؤهم . لقد طمست معالم الفطرة الصحيحة لدى الجاهلين من أقوام الأنبياء ، حتى غدا الإنسان أقل بكثير فى مراتب الوجود مما يعتقد فيه ، وإلا لكان الصنم والحجر والوثن أعلا منه ، وهذا أمر لا يعقل ، إذ الإنسان فى وضعه الصحيح ، إنما خلق ليكون خليفة الله فى أرضه وقد سخر له الحق تبارك وتعالى الكون كله ليكون فى خدمته ، وليتوجه إلى الإله « الحق » بالعبودية الصحيحة ، المبنية على العقيدة السليمة . وليتخذ من الآيات الكونية والنفسية مراقى تعرج به إلى الإيمان الصحيح . ولتضعه فى رتبته اللائقة به

فى الوجود ، وباختصار : فإن عقيدة الإسلام هى الضمان الحقيقى لنجاة الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة .

الجانب الثانى :

وأما الجانب التشريعى ، فقد أقامه الإسلام على أساس من الملائمة بين التكاليف الشرعية والطاقة الإنسانية « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » واليسر الذى لا عسر معه « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ورفع الحرج « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ودفع الضرر « لا ضرر ولا ضرار » وعدم المحاسبة على الخطأ والنسيان « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ومراعاة الظروف الاستثنائية « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » والموازنة بين ما يجلب الخير وما يدرأ الشر « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » .

هذا بالنسبة لأسس التشريع فى الإسلام . وأما بالنسبة لعلاقة ذلك التشريع بالإنسان ، فقد وازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فلم يقدم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة ، كما تفعل النظم الرأسمالية ، ولم يهمل مصلحة الفرد ويعنى بمصلحة الجماعة كما تفعل النظم الاشتراكية ، بل راعى مصلحتهما معا . وكتب الفقه التى أبرزت فلسفة التشريع الإسلامى حافلة بما يؤكد هذا المعنى ويوضحه ويظهر فى هذا الجانب ، شمول التشريع الإسلامى لكل مطالب الإنسان ، فهو ممتد عبر حياته كلها ، ظاهرها وباطنها ، كما أنه ممتد عبر الزمان والمكان ، فليس تشريعا خاصا بعصر بعينه ولا ببيئة بذاتها . يضاف إلى ذلك ، أن الإسلام جعل لاجتهاد العلماء مدخلا واسعا فى ربط الدين بالحياة ، فى الوقائع المتجددة ، نظرا لتناهى النصوص ، وعدم تناهى المستجدات .

الجانب الثالث :

هذا الجانب له فى الإسلام شأن عظيم ، وهو جانب الفضائل النفسية والسلوكية والاجتماعية ، ومن الطبيعى أن يكون الجانب الأخلاقى فى الإسلام ثمرة لعقيدة

صحيحة ، إذ الخلق كمعنى باطنى والسلوك الذى يترجم عنه ، إنما يكونان من حيث الصحة وعدمها ، من آثار العقيدة التى بنيا عليها . والمدقق فى القرآن الكريم يرى أن الفضائل التى دعا إليها ، وطلب من المؤمنين تقديرها فى النفس والواقع ، قد ارتبطت بالعقيدة ارتباطا وثيقا ، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة التى تكون إشارة ومدخلا إلى غيرها .

المثل الأول :يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (النساء :٣٦) إن الآية هنا ربطت بين العقيدة والأخلاق برباط محكم ، وكان المظهر الحقيقى للتوحيد فيما توحى به إنما يكون فى الإحسان ، الإحسان بكل مستوياته : إلى الوالدين - الأقربين - اليتامى - الخ ، ثم تأتى الآية فى عجزها بما يفيد ذم الرذائل ، ومنها : الخيلاء والفخر ، بما يؤكد أن الله سبحانه وتعالى يحب الفضائل ولا يرضى عن الرذائل .

المثل الثانى : يقول الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (المؤمنون : ١-٨) .

إن نسق الفضائل العليا فى الآيات مرتبط بالإيمان الصحيح ، كما نرى ، وفى هذا من الإيحاء ما يجعل هذه الفضائل من الناحية الواقعية فى مستوى العقيدة الصحيحة وكأن تلك العقيدة ، هى الضمان الحقيقى لوجودها على أساس صحيح ، وكأن تلك الفضائل من جانب آخر ، هى الدليل الظاهرى على رسوخ العقيدة وتمكنها من القلب .

إننا نقول بكل ثقة : إن الإسلام قد أرسى مبادئ السلوك القويم ، بعد أن وضع الأسس النظرية والقواعد الكلية لذلك السلوك ، كما حدد العلاقات بين المرء ونفسه -

المرء وأسرته - المرء والمجتمع - ثم العلاقات الأسرية - علاقة الحاكم بالمحكوم والمحكوم بالحاكم ، ثم علاقة الدول بين بعضها وبعض ، فى الأحوال : العادية - السلم - ، الحرب كما أمرنا باحترام المواثيق والمعاهدات [1] الخ ، ومن قبل ومن بعد ، أوقف المسلم أمام مسؤوليته تجاه كل ما يتصرف فيه ، ووضع الضوابط لذلك كله . كما بين فى علاجه لقضية الأخلاق ، الصورة المقابلة ، لما يدعو إليه من الفضائل ، حتى يتضح أثرها فى حياة الأفراد والجماعات ، وليرينا إلى أى حد يمكن أن يظل الإنسان إنسانا فى ظل تمسكه بتلك الفضائل ، وأما إذا انفلت منها ، فإنه لا يكون إنسانا إلا بضرب من التجوز ، لأنه يكون قد فقد عقله وإرادته ، وهما الدعامتان الأساسيتان للمسؤولية الخلقية .

الجانب الرابع :

الجانب التنظيمى فى الإسلام ، مظهر من مظاهر احترام ذلك الدين لعقلية المسلم ، كما يعد كذلك من الأدلة الواضحة على أنه دين مفتوح ، وليس مغلقا ، ذلكم لأن دستور الإسلام ، وهو القرآن الكريم ليس كتابا خاصا بعلم بعينه ، بل هو فى المقام الأول كتاب هداية ، غير أنه احتوى على توجيهات ومحاور يمكن أن يتخذها العقل المسلم منطلقا له ، يبنى عليها ما يصل إليه بالبحث والدراسة ، ضمن منهج سليم وغاية محددة .

من ثم نرى أن الجانب التنظيمى فى الإسلام ليس وليد أصول إسلامية فحسب ، بل تفاعلت مع حقائقه فى هذا الجانب ، ما استخلصته العقلية المسلمة من علوم الأوائل وتجاربهم ، فى الاقتصاد ، التجارة والتربية ، والحرب والسلم - والإدارة - الزراعة - .... الخ وباختصار يمكن أن يقال : إن كل التنظيمات التى ترقى بها الأمة والتى من شأنها أن تقود الحياة إلى أهدافها بطريقة صحيحة ، كان الإسلام منطلقها ،

---

(١) انظر : د. محمد عبدالله دراز . دستور الأخلاق فى القرآن الكريم . وهو أحسن الكتب التى ألفت حديثا فى هذا الباب ، وفيه تفسير شامل للنظرية الأخلاقية كما جاء بها الإسلام .

ولكنه استثار العقل كى يكون له الأثر الواضح فى ذلك . ولا بأس فى هذا بعد أن تكون الأهداف قد تحددت .

إن هذا الذى قلناه يؤكد أن الإسلام - وبحكم عالميته - ليس دينا فحسب ، كما يتصور بعض الناس ، عنى بذلك : لا يعنى بالجانب الاعتقادى والعبادى فحسب ، بل إنه - كذلك - دين الحياة ، يأخذ بكل ما يرقيها وينميها من نظم سابقة ، ويضع الضمانات الواضحة لعدم الانحراف إلى غير ما يريد . ودور العقل المسلم هنا واضح ، ولعل فى هذا ما يجعلنا نؤكد أنه بهذا المنهج الصحيح ، يظل الإسلام قابضا على زمام الحياة وحركتها وبهذا يتأكد أن ختم الإسلام للرسالات الإلهية له من المبررات العقلية بجانب النصوص الدينية ما يجعل هذه القضية مقبولة فى نظر العقل . وتصبح دعاوى من يقول بخلاف ذلك غير مقبولة ، لأنه لا مبرر لها .

على أنا نقول لكل من يقول فى الإسلام بغير علم : من الناحية المنهجية تكون أحكامك غير صحيحة ، وعليك إذا أردت أن تكون منهجيا ، أن تقرأ هذا الدين بمنهج المحايد ، ومتى فعلت ذلك ، فنحن مطمئنون إلى النتيجة التى ستصل إليها ، إنها ستكون لصالح الإسلام ، لأنه يحمل من الأدلة على صدقه ما لا يرده عقل عاقل .

لقد كان بوسعنا أن نتكلم كثيرا فى هذه الجوانب ، وحسبنا هذا القدر ليكون مدخلاً لمن يريد المزيد ، والقرآن الكريم والسنة الصحيحة وتراثنا الزاخر ، فيه الكثير مما يجد فيه طالب الحق ضالته ، وأما من ليس كذلك فلن ينتفع بشىء مما فى هذا كله ، لأن شأنه - فى حالته هذه - كمن أغلق بصره فى نور الشمس الواضح ، ثم قال : إن الشمس غير طالعة . لقد حق فى هؤلاء قول الشاعر :

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

إذا تقررت القضية كلها على الوجه الذى ذكرنا ، فإن المنكرين لختم الرسالات بالإسلام وختم النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يملكون شيئا من البراهين

يقدمونه بين يدى إنكارهم ، انها - حينئذ - دعاوى غير مبرهن عليها ، ومتى كانت كذلك ، كانت ساقطة ، من ثم نرى أن أدعياء النبوة قديما وحديثا يظلون هكذا - أدعياء - لا سند لهم من عقل ، ولا أثارة معهم من علم .

إن الإنسانية فى ظل الإسلام لن تحتاج إلى دين جديد ، لأنه بلغ من الكمال والتمام مالا ينتظر معه العقل دينا آخر سواه . وهو فى نفس الوقت يحمل أتباعه المسؤولية الكبرى أمام قضية ختم النبوة ، ذلكم لأن هداية البشرية لن تكون إلا بمثل هذا المنهج - منهج الإسلام - وهذا يحتم بالضرورة على أتباع هذا الدين أن يبلغوا به العالمين ، دعوة وتبشيرا به ، وسلوكا وتطبيقا له ، وأن يقيموا دولته فى نفوسهم حتى تقوم على أرضهم ، فتكون النموذج الذى يحتذى به ، والمثل الذى يقتدى به بعد أن أفلست النظم المعاصرة فى قيادة الحياة على أساس صحيح على الوجه الذى ألمحنا إليه من قبل .

حديث عن المتنبئين قديما وحديثا :

كدت أمسك القلم عن الكتابة فى هذا الموضوع ، لأنى أومن بأن ما مع المدعين ليس أكثر من دعاواهم ، وهذا يعنى أنهم ساقطون عن رتبة الخطاب ، إذ لو كان لديهم أدلة لناقشناهم فيها ، غير أن الحديث عن هؤلاء - ولو على سبيل الإيجاز - مما يعرى مواقفهم ويكشف عوارهم حتى لا ينخدع بهم أحد ، وقضية « الانخداع » هذه يعانى منها أصحاب الحق كثيرا ، ذلكم لأن حزب الشيطان قد يملك من الأساليب والمؤثرات ، ما به يلبس على الجماهير ، حتى ينقلب الباطل حقا ، والحق باطلا . والنفس البشرية تواقة إلى الجديد حتى ولو كان فيه حتفها ودمارها ، وهى إلى الانخداع بالباطل ، أكثر ميلا من استبصار الحق ومعرفته والتمسك به . وإذا كان أنصار الحق يقبضون على آلة البناء بكل قوة ، فإن أنصار الشيطان يملكون - كذلك - معاول الهدم . وهكذا تظل قضية الصراع بين الحزبين قائمة ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

المدعون قديما :

لقد ادعى النبوة - فى عصر النبوة الحقيقية - مسيلمة الكذاب ، وهو من بنى حنيفة وزعم أن الوحى ينزل عليه ، وقد قال فى ذلك أسجاعا ، تدل على خبل فى العقل وركاكة فى اللغة ، ويظهر منها الكذب واضحا ، ادعى بها معارضة القرآن الكريم . لقد زعم أن الله سبحانه جعله ردءا لمحمد صلى الله عليه وسلم ونصيرا لدعوته ، وأنه قسم الأرض بينهما ليحكم كل واحد منهما نصفها ، وقد عرض على النبى صلى الله عليه وسلم هذه الفكرة الساذجة ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض هذا العرض بكل قوة ، لأنه يعلم مدى كذبه وادعائه .

ولنا أن نقول : إن الادعاء الكاذب أمر سهل وميسور لكل أحد ، والفارق الذى يمكن أن يحدد الصادق من الكاذب - فى قضيتنا - هو ما جاء به كل منهما ، فمحمد صلى الله عليه وسلم قد نزل عليه القرآن الكريم ، وقد احتوى على كل المطالب التى يحتاجها الإنسان ، فماذا قدم « الكاذب » من منهج يفيد من يدعوهم إلى نبوته ، فى حياتهم سوى تلك الكلمات الهزيلة ؟

كما ادعى النبوة كذلك فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم « الأسود العنسى » فى اليمن ولم يكن معه أيضا سوى ادعائه وكان الخلاص منه على يد زوجته التى ضاقت ذرعا بكذبه على الله ورسوله ، حين عاونت أناسا آخرين على قتله ، ولو كان على حق لكانت أولى الناس باتباعه ، ولكن الحق لا يتعدد . وقد قال الله تعالى : « فماذا بعد الحق إلا الضلال .. »

ثم ادعاها كذبا - أيضا - « طليحة الأسدى » وزعم أن جبريل ينزل عليه بالوحى كما ينزل على محمد ، وقد عاش بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وظل فى غيه حتى هداه الله فى عهد عمر رضى الله عنه فتاب .

ويجمع هؤلاء هدف واحد ، هو تحقيق مآربهم الخاصة ، ومنها : الزعامة والقيادة والمكانة الاجتماعية . ومنها كذلك ، الناحية المادية ، ولم نقرأ عن واحد من هؤلاء أنه كان يملك مشروعا نهضويا كما يفعل الزعماء الحقيقيون بين يدى دعوة الناس إلى الإيمان

بهم وبوجودهم . وهذا كله يؤكد أن دعاواهم عارية عن الصدق بل هى صريحة فى أنها كاذبة .

إن الروح العربية التى كانت تقدس مشاعر القبيلة وتقاليدها ، ومكانتها بين القبائل قد تكون من الأسباب الداعية إلى ذلك . وإذا كان من المعلوم أن اتصال السماء بالأرض لتبليغ رسالة من رسالات الله لا يخضع لمثل هذه العوامل الهابطة ، فكيف ساغ لهؤلاء أن يدعوا ذلك ؟ لقد كان الأولى لهم أن يفهموا طبيعة الرسالة ، وما تهدف إليه ، ولو أنهم فعلوا ذلك ، لما رأينا فى التاريخ حديثا عن مواقفهم ، التى يمكن أن توصف بأنها مواقف البلهاء والمعتوهين ، وهؤلاء وأولئك لا تسمع لهم كلمة ، ولا يصدق لهم قول .

مدعو النبوة من الشيعة :

كانت الشيعة مرتعا لكثير من الأفكار والعقائد الضالة ، وكان السبب فى ذلك راجعاإلى غلاتهم ، وعلى رأس هولاء الغلاة : « عبد الله بن سبأ » « وبيان ابن سمعان التميمى » لقد بدأ فكر هؤلاء بالقول بالوصية ، وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب من بعده بالخلافة ، ثم تدرج منها إلى القول بمشاركته فى النبوة على أن تكون له بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى القول بأن النبوة كانت لعلى ولكنها أخطأته ونزلت على محمد ، وأخيرا إلى الزعم بأن عليا فيه جزء إلهى الخ . ولم يكن بدعا فى هذا الإطار الذى صورت فيه حياة على بن أبى طالب على غير حقيقتها أن تظهر حركات يدعى أصحابها أنهم أنبياء ، وأنهم فى ذلك أخلاف لإمامهم الأكبر - على بن أبى طالب - وهو من هذا الادعاء برىء ، أمثال : المختار الثقفى وعبدالله بن عمر بن حرب الكندى والمغيرة بن سعد العجلى ، وابن الخطاب محمد بن زبيب الأسدى ، والحارث بن سعد الدمشقى ، والحسين بن حمدان الحصيبى وإسحق الأخرس .

ويظهر من تاريخ هؤلاء أنهم لم يكونوا مخلصين للإسلام ، فقد كان أكثرهم ينتسب إلى أصول مجوسية ، وقد ظلت بقية من عقائدهم القديمة مستورة وراء القشرة الظاهرة

- إسلامهم - كما كان للشعوبية دور واضح فى إذكاء عملية نقض الإسلام ، وتقويض أركانه لأنه - فى نظرهم - دين عربى ، بعروبة لغته ورسوله . وليس هناك أولى - فى اعتبارهم - من دعوى النبوة ، كما ادعاها الرسول العربى . ونسى هؤلاء أن الفارق واضح بين دعاواهم الكاذبة ، وصدق محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوى الرسالة حيث أيده الله بالمعجزة الدالة على صدقه .

مدعو النبوة فى العصور الحديثة :

نقول فى اطمئنان : إذا كان قد حرك مدعى النبوة قديما عوامل نفسية وتقاليد اجتماعية ومواريث دينية قديمة تعادى الإسلام وتنهض لمقاومته والقضاء عليه ، فإن الأسباب وراء ادعاء المحدثين للنبوة قد دارت حول سببين لا ثالث لهما :

أولهما : داخلى ، يتجلى فيما تنطوى عليه نفوس هؤلاء الأدعياء من حب للشهرة وتطلع إلى الزعامة والقيادة .

وثانيهما : خارجى ، وهو الاستعمار الغربى . لقد أراد أن يستعيد الغرب مجده الأدبى والسياسى بعد أن انتزع منه الإسلام زمام المبادرة ، وأصبحت مواريث الامبراطورية الرومانية خاضعة للحكم الإسلامى فى أكثر البلاد ، يضاف إلى ذلك تلك الوقفة القوية الحاسمة ، التى كشفت أمام التاريخ كيف استغلت المسيحية ، لتكون ذريعة ضد الإسلام يوم أن رفعت الجيوش الغربية الصليب ، ليكون رمزا لها تدافع تحت لوائه ، فيما سمى بالحروب الصليبية . وكانت المسيحية الحقيقية براء من كل التبريرات التى سيقت فى هذا السبيل ، لأنها دين المسالمة والموادعة ، كما لم يكن العالم الإسلامى آنذاك بل فى كل زمان إلا واحة وارفة الظلال لكل الأديان السماوية ، يتعامل معها بالمنهج الذى رسمه لذلك ، فى إطار حرية الأديان الكريمة ، مع تطبيق مبدأ « الولاء والبراء » الذى أكدته الآية الكريمة وهى قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من

دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هـم الظالـمون »
(الممتحنة : ٨ ، ٩).

ولا نشك فى أن الاستعمار قد يكون وراء التماس ذريعة من التراث الإسلامى تجعل باب النبوة مفتوحا أمام من يدعيها ، فقد كان علماء الغرب ومفكروه من الممهدين له ، والداعين إليه ، وكان الكثيرون منهم على علم بتراثنا ، ومن بين العناصر التى يمكن أن تكون موضع استغلال من هؤلاء ، ما ذهب إليه « ابن عربى » من القول بنبوة الإلهام ونبوة التشريع . وأن الأولى لم يغلق بابها ، وأن الثانية قد ختمت بمحمد . فقد أثبت البحث العلمى أن « غلام أحمد القاديانى » أحد أدعياء النبوة حديثا قد قال بمثل ذلك . ويمكن الحديث عن أدعياء النبوة من المحدثين لدى ثلاثة ، هم :

١- الباب والبابية .

٢- البهاء والبهائية .

٣- غلام أحمد القاديانى والقاديانية .

أولا : الباب والبابية :

« الباب » لقب أطلقه على نفسه « ميرزا على محمد » الذى ولد فى القرن الماضى سنة ١٢٣٥ هـ ببلاد فارس ، ثم انتقل منها إلى العراق ، بعد أن بلـغ سن العشرين، وفى كربلاء تلقى علومه على يد « كاظم الرشتى » الذى كان تلميذا للشيخ أحمد الإحسائى ، زعيم طائفة « الشيخية » . وقد كان لتعاليم هذا الشيخ الأثر الواضح فى تكوينه النفسى والعقلى ودعواه النبوة .

كانت للباب منذ شبابه الباكر رياضاته الروحية وقراءاته الكثيرة ، وكان ملهمه فى ذلك : التراث الشيعى ، وما فى عناصره من حديث عن الوجود وتفاعله ورتبة الإنسان فيه ، وكذلك ما فيه من الحديث عن « المخلص » أو « المهدى » المنتظر . إن هذه الفكرة تحرك النفس - متى لم تجد لها عاصما - إلى التطلع لهذا الدور ، فإذا حاز بعض الأشخاص - مع ذلك - قدرا من الذكاء وحسن التصرف وقوة التأثير ، فإن هذا

كله يحمله على القول بأنه ذلك « المنتظر » على أنه قد ينظر إلى تلك المهمة بمعنى أوسع من كونه آتيا لتجديد دعوة قد خبا ضوؤها ، بل قد تفسر على أنها دعوة إلى دين جديد ، جاء لينسخ الدين السابق ، وهذا ما كان من « الباب » .

لقد كان فى بدء شأنه يدعو من آمن به على أنه « واسطة » إلى الحقيقة ، وكان اللقب الذى اختاره لنفسه « الباب » مشيرا إلى هذا المعنى ، فقد جاء فى بعض أقواله « ادخلوا البيوت من أبوابها . وأنا مدينة العلم وعلى بابها » . وقد آمن به وبدعوته بعض ممن انخدع ببريق كلامه ، فأرسلهم كدعاة له فى بلاد فارس ، مسقط رأسه ، وطلب إليهم ألا يذكروا اسمه .

لقد تصور « الباب » أنه قد حل فيه جزء روحانى كما حل فى « على » من قبل ، ونحن لا ننكر ذلك لجميع البشر ، ولكن الشيعة عموما ، والغلاة منهم على وجه أخص لهم تفسير معروف لهذه المسألة ، إن هذا التفسير يصعد بهم إلى مقام يتجاوز مقام النبوة أحيانا .

لقد تكونت عقيدته فى نفسه وفى دعوته على وجه جعله يشعر أنه فى موقف مع الحق ، ينبغى الدفاع عنه ، فناظر كثيرا من العلماء الذين أنكروا عليه دعوته ، كما اعتورت حياته مراحل كانت السلطة ترى فيه خطرا على الدين الصحيح ، فكان السجن مقره ، ولكنه لم يلبث أن يخرج منه ، حتى يعود إلى دعوته مرة ثانية .

ومن أظهر ادعاءاته أنه كان يقول إن كتابه « البيان » ورسائله الأخرى ، لم تكن من عمل عقله ، بل من وحى السماء ، وأن علمه لم يكن علما تقليديا ، بل كان إلهاما ووحيا من الله تعالى . ومن الغريب حقا أن يزعم أن كتابه هذا ، أفضل من القرآن الكريم ، ومن مزاعمه - كذلك - أنه - أى ذاته ورسالته - فى مقام « النقطة » وأن محمد صلى الله عليه وسلم فى مقام « الألف » يعنى بذلك أنه نهاية ما تنتظره البشرية من توجيه ، بحيث لا تنتظر بعده أحدا ، كما يقف القارئ عند النقطة التى تعبر عن تمام الكلام . وأما محمد فلم يكن - فى زعمه - إلا بداية للطريق . لذلك

كله كان العلماء الأثبات ما بين قائل بكفره ، وقائل بنقص فى عقله واضطراب فى نفسه .

ما يحويه « البيان » من ضلالات :

(١) فى الجانب الاعتقادى : تعرض لكثير من القضايا الاعتقادية فى التراث الشيعى وغيره مثل : الرجعة - القيامة - الحياة - الموت - الجنة - النار ، وكان فيها مردداً لآراء من سبقه من الشيعة ، وبخاصة غلاتهم من أصحاب الفكر الباطنى .

(ب) فى الجانب التشريعى : تجلى فى هذا الجانب الكذب الصريح فى شريعة « الباب » حيث جاء ينقض كثيرا من شعائر الإسلام المعروفة . من ذلك : دعوته إلى أن تكون الصلاة وقتا واحدا فى الصباح ، وتغيير مطالع الشهور بحيث لا يعرف شهر الصوم وأشهر الحج والأشهر الحرم . لقد جعل الصوم شهرا من آخر نزول الشمس برج الحوت حتى يتوافق مع عيد « النيروز » كما غير نظام الزكاة ، حيث أوجب أداءها له أولا ، ولشيعته . وأما عن الحج فقد جعل بيته هو الكعبة التى يحج إليها أتباعه .

وأما عن النظم الدينية الاجتماعية ، فقد غير نظام الزواج ، حيث جعله برضا الطرفين دون ولى ، وقصره على اثنتين ، وجعل الطلاق تسعة عشر مرة . كما غير نظام المراجعة ، بحيث لا تصح إلا فى العام الأول للطلاق ، كما حرم الزوجة مطلقا بعد استنفاد عدد الطلقات . وأما الغنائم فقد قرر فيها أنها من حقه كاملة إن أخذت من البلاد المفتوحة عن طريق المظالم ، ولو جاءت عن غير هذا الطريق ، فتكون لتعمير المشاهد المقدسة وما بقى منها يوزع على الجند .

ومن التشريعات التى جاءت بها البابية فى هذا الجانب ، أنه لا يجوز لمن آمن بها أن يتصرف فى أمواله إلا بعد أن يزكيها « الباب » أو أحد أمنائه ، وأن من يسمع بالباب ولم يؤمن به فأمواله حلال له ولأمنائه . كما زعم أنه لا يسأل عن أمواله ، وأن على كل بابى أن يكتب وصيته وجوبا ، بشرط أن يصدق عليها .

وفى الجانب الأخلاقى له بعض التصرفات التى تخرج عن إطار الأخلاق الإسلامية فى بعض الأحيان ، مثال ذلك : أنه أحل الدية محل الحد عند ارتكاب حدى القذف والزنا ، كما أحل التمتع بالحرير والذهب للرجال والنساء على السواء . كما جعل المطهرات خمسا ، ومنها « البيان » وحكم بطهارة كل الأشياء ، حتى النجاسات كما حرم على أتباعه التعليم إلا الاشتغال بكتبه (1)

نظرة واقعية إلى الباب والبابية :

إذا نظرنا إلى ما دعا إليه الباب فى الجانبين الاعتقادى والتشريعى فماذا نرى ؟ نرى من الجانب الفكرى اضطرابا وتناقضا ، ومن الجانب العملى سعيا وراء فكرة واحدة هى : ذاته ، بدءا من ادعاء البابية - مدخل إلى الحق - إلى المهدية إلى النبوة . وقد أكد الجانب التشريعى فى كتابه « البيان » دعوته للنبوة كذبا . وإذا كنا من الناحية المنهجية نؤكد على أن الإسلام ، قد أتم الله به النعمة وأكمل به الدين ، وأن الواقع يشهد بذلك ، فماذا يمكن أن نقول عن أى منهج يأتى بخلاف ما شرع الله ؟ إنه الضلال المبين ، لأن القرآن الكريم حين تعرض لقضية الحسم بين الحق والباطل والهدى والضلال، لم يعط لنا طرفا ثالثا يمكن أن يكون بين الحدين . من ثم نفهم أنه ليس بعد الحق الذى جاء به الإسلام إلا الضلال ، وليس بعد هدى الله من هدى ، فإن رضى بهذا الحكم هؤلاء الأدعياء فقد ناقضوا أنفسهم ، وإن أعرضوا فقد ثبت خروجهم عن الإسلام ، لأنهم نصبوا من أنفسهم - وبغير مبرر صحيح من عقل أو دين - أوصياء على العقل الإنسانى .

ثم إن « الباب » لم يكن لديه من الأدلة والقرائن ما يؤيد مدعاه ، وكم طلب منه مناظروه ذلك فصمت ، ولم يحر جوابا . وكم ضاقت به « السلطة » ذرعا فكان يتنازل عن آرائه حين يرى أن سيفها سيناله ، فهل يمكن أن يكون - والحالة هذه - من أصحاب الدعوات الصادقة ، التى تحمل أصحابها على التضحية فى سبيلها ؟ كلا . ولا يعترض على ذلك بكونه خرج من الدنيا على يد « السلطة » فقد كان يعلم أن هذه نهايته ، ولماذا لا يكون هذا الموقف نوعا من اضفاء الصدق على ما يدعى ، حتى ينال لدى المؤمنين به المكانة التى يرجوها بعد موته ، كما نالها منهم فى حياته ؟

---

(1) انظر : مهدى خان . مفتاح باب الأبواب ص ٢٥١ وما بعدها .

ثانيا : البهاء والبهائية :

كان « ميرزا حسين على » الملقب بالبهاء أحد أتباع « الباب » ولو أنه كان يعلم أن صاحبه على « الحق » لما ادعى أنه موحى إليه من جديد ، ولما زعم أن معه شريعة نسخ بها شريعته . إنها الادعاءات الكاذبة ، والزعامات المتطلعة إلى القيادة ، دون أن يكون معها رصيد يبرر مدعاها . ولو أن ذلك كان فى دائرة السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الفلسفة لما كان لتلك الدعاوى وجه من الاستغراب ، لأنها لا تحتاج إلى تبرير إلهى ، بخلاف النبوات ، فإن الأمر الحاسم فى الكشف عن الصادق والكاذب منها هو وجود ذلك التبرير المشار إليه . إنه : المعجزات التى يظهرها الله على أيدى الصادقين فى دعوى النبوة .

ولد « البهاء » فى بلاد فارس سنة ١٢٣٣ هـ . نشأ محبا للتصوف ، ثم مالبث أن انضم إلى دعوة « الباب » وصار أحد دعاتها . وبعد هلاكه ، ادعى « النبوة » وألف كتابه « الإيقان » الذى قرر فيه أن الوحى الإلهى لا يزال مفتوحا ، وأن النبوة بعد محمد لم يوصد بابها ، كما زعم أن الذين يقولون بختم النبوات بمحمد بن عبدالله ، يشاركون اليهود فى كونهم ينكرون النبوة بعد موسى عليه السلام . وله فى قول اليهود « يد الله مغلولة » والرد عليهم بقوله « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ... » تفسير خاص ، إذ يفسر بسط « اليد » هنا بمعنى : امتداد الوحى وعدم انقطاعه . ضاربا صفحا بما أجمع عليه جمهور المفسرين ، حين فسروا الآية على وجهها الصحيح . وعنده أن النبوة واحدة من حيث الحقيقـة ، وإن أخذت مظاهر متعددة . ولا عبرة بالأشخاص وذواتهم ، إلا من حيث أنهم حاملون لها . ومبلغون عن الله رسالته . وهذه الفكرة تعد مدخلا واضحا لهدم ختم النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم .

أما الجانب التشريعى فقد جاء فى كتابه « الأقدس » وفيه نلاحظ تغيير كثير من الشعائر التى جاء بها الإسلام ، على غرار ما فعل « الباب » قبله، مع خلاف بينهما فى نظرتهم لتلك الشعائر ، سواء ما يتصل بالصلاة أم بالصيام والزكاة والحج . وكذلك نظام الميراث والعقوبات ... الخ

وباختصار يمكن أن نقول : لقد كانت « البهائية » امتداداً للبابية مع تعديل فى بعض الشعائر . وقد كان كتاب « الإيقان » تبريرا لفتح باب النبوات ، كما كان كتاب « الأقدس » تفسيرا للشريعة الجديدة التى ادعى البهاء مجىء الوحى الإلهى بها . وهو فى هذا وذاك يفسر النصوص الدينية الصحيحة على غير وجهها الصحيح ، حتى توافق هواه ومزاعمه وليس معه من الأدلة العقلية ما ينهض ليكون حجة له ، بل يمكن أن يقال : إن كل ما ساقه من أفكار وآراء ، هى إلى الهذيان أقرب منه إلى القول المعقول . أما أنصاره اليوم فلا يزالون يسيحون فى بلاد كثيرة فى العالم الإسلامى والغربى . وقد تلقى أعداء الإسلام مثل هذه النحل الباطلة بالقبـول ، لأنها تؤدى عنهم المهمة التى يتعلقون بها ، وهى تشويه الإسلام ، وتخريبه . ومما يؤسف له أن معارف الغرب عن الإسلام ، قد تكون عن طريق مثل هذه الفرقة الخارجة ، ولعل فى هذا ما ينبه أبناء الإسلام ، حتى يقاومـوا تلك الضلالات ، ليظل هذا الدين على صفائه ونقائه .

ثالثا : القاديانى والقاديانية :

غلام أحمد القاديانى ، هو زعيم هذه الطائفة ، ولد فى اقليم البنجاب بالهند سنة ١٢٥٣ هـ نال قسطا من التعليم ، وكان يميل إلى قراءة الكتب الدينية ، ثم عمل مع المندوب السامى البريطانى فى « سيالكوت » ثم ما لبث أن استقال من هذه الوظيفة عندما شعر بدنو أجل والده ، وقبل موته بقليل ادعى أنه أوحى إليه أن أباه سيموت بعد الغروب . فكان هذا القول بداية ادعائه النبوة .

زعم فى أول أمره أنه « المسيح » المنتظر وأنه يوحى إليه . وقد عمل على نشر دعوته خارج مسقط رأسه ، فى حماية السلطة الإنجليزية .

لقد وصل به الحال إلى درجة أن أتباعه يزعمون أنه أفضل من أولى العزم من الرسل إلى غير ذلك من الضلالات . ومظهر ذلك أنه ادعى أنه أوحى إليه ليصلح ما فى الدينين : المسيحية والإسلام ، من أخطاء ، إما لأنهما كانا فى الأصل كذلك . وإما لسوء فهم أتباعهما لهما ، غير أن أتباعه يزعمون أنه لم يدع أنه أتى بشرع جديد . ولكن كيف يفهم هذا مع الإقرار بأنه جاء ليصلح ما اعوج فى المسيحية والإسلام ؟ إن الإصلاح لا يكون إلا بشىء جديد ، وهذه إحدى التناقضات التى تحملها هذه النحلة

وما أكثرها ، ولو ذهبنا إلى نهاية الشوط مع تلك الفرقة لطال بنا الحديث ، وإنما نقول باختصار : لقد كانت القاديانية صنيعة الاستعمار واليد التى تحركت لتشويه الإسلام ، بدعوى الإصلاح والتجديد ، ومن المعلوم أن للإسلام ثوابته وأركانه ، وأن التجديد أو الإصلاح فى دائرته إنما يكون فى تجديد روح المسلمين ، كى تتلاءم مع مبادئه وثوابته ، ولعل هذا ما يشير إليه الحديث الذى يقرر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها . ومن المؤكد أن القاديانية لم تكن كذلك .

- وبعد - فهل أغنت هذه النحل الثلاث شيئا فى مجال الفكر الإسلامى أكثر من التشويه ومحاولة طمس معالم هذا الدين ؟ وهل كان معها من المبررات ما يجعل ظهورها أمراً طبيعياً ؟أعتقد أن الإجابة هى : النفى المطلق ، لأنها تجاوزت الحق وليس بعد الحق ، إلا الضلال .

إن عقيدة « ختم النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم » مما أجمع عليه المسلمون الذين يعتد بإجماعهم . أما أولئك الذين مر ذكرهم من القدماء والمحدثين فلم يكن معهم إلا دعاواهم ، ولا عبرة كذلك بما ذهب إليه « اليزيدية » من الخوارج الذين زعموا أن الله عز وجل سيبعث آخر الزمان نبيا من العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء ، ويكون دينه كدين الصابئة ، ينسخ به شرع القرآن .[1]

ولا عبرة كذلك بإنكار اليهود لكل رسالة بعد نبيهم موسى ، لأن هذه الدعاوى ليس معها أى دليل على صدقها فى الوقت الذى رأينا فيه ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بأكثر من دليل وكذا ختمه للنبوات على الوجه الذى بيناه .

إن عالمية الإسلام ، وشموله لكل مطالب الإنسان ، ووسطيته ، ووثاقه مصدره وكونه الدين الذى أتم الله به النعمة ، وأكمل به الأديان ، ورضيه لنا دينا ، كل هذا يؤكد ختمه للأديان . بحيث لا ينتظر - عقــلا - بعــده من ديـن ولا بعـد رسولـه مـن رسول .

والله أعلم .

---

(١) البغدادى : أصول الدين . ص ١٦٢ .

أهم المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : صحيحا البخارى ومسلم وبقية كتب السنة .

ثالثا : المصادر والمراجع المتخصصة :

١- الأرناؤوط « الشيخ شعيب » الإحسان فى تقريب صحيح ابن حيان . ط بيروت سنة ١٩٩٠ .

٢- الأعسم « الأستاذ الدكتور عبد الأمير » : ابن الريوندى فى المراجع العربية الحديثة ط بيروت سنة ١٩٧٨ .

٣- الايجى « عضد الدين » : المواقف . ط ساسى . القاهرة سنة ١٩٠٧ .

٤- ابن تيمية « شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم » : النبوات . ط بيروت سنة ١٩٨٥.

٥- ابن خلدون « عبد الرحمن » المقدمة . فصل علم الكلام . القاهرة بدون تاريخ .

٦- ابن خلكان « أبو العباس شمس الدين حسين محمد » : وفيات الأعيان . ط . دار صادر بيروت .

٧- ابن كثير « أبو الفداء إسماعيل » :

(١) تفسير القرآن العظيم . ط بيروت سنة ١٩٨٦ .

(٢) قصص الأنبياء . ط . القاهرة سنة ١٩٨١ .

٨- أبو زهرة « الشيخ محمد » :

(١) محاضرات فى النصرانية .ط . دار الفكر العربى . القاهرة سنة ١٩٦١ .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية .ط . دار الفكر العربى . القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٣) خاتم النبيين . ط . دار الفكر العربى . القاهرة سنة ١٩٩٣ .

٩- بينيس « المستشرق المعـــروف » مذهب الذرة عند المسلمين . ط . القاهـــرة سنة ١٩٤٦ .

١٠- البغدادى « أبو منصور عبد القاهر بن طاهر » :

(١) أصول الدين . ط . استانبول سنة ١٩٢٨ .

(٢) الفرق بين الفرق . بيروت سنة ١٩٩١ .

١١- التفتازانى « سعد الدين » : المقاصد . ط . استانبول سنة ١٣٧٧ هـ .

١٢- الجاحـــظ « أبو عثمان عمرو بن بحر » : الحيـــوان . ط . القاهـرة سنـــة ١٩٦٦ .

١٣- الجوينـــى « إمام الحرمين » : الإرشاد إلى قواطع الأدلـــة . ط . القاهـرة سنة ١٩٥٠.

١٤- جولد زيهر « المستشرق المعروف » : العقيدة والشريعة فى الإسلام . ط . القاهرة سنة ١٩٥٩ .

١٥- الخياط « أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد » : الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد . ط . بيروت سنة ١٩٨٨ .

١٦- دنيا « الأستاذ الدكتور سليمان » : الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين . ط . القاهرة سنة ١٩٥٨ .

١٧- الـــرازى « فخر الدين » : التفسيـر الكبيـر . ط . دار الفكـر - بيـروت سنـــة ١٩٨١ .

١٨- زقزوق « الأستاذ الدكتور محمود » : دراسات فى الفلسفة الحديثة . ط . دار الفكر العربى . القاهرة سنة ١٩٩٣ .

١٩- السنوسى « الإمام أبو عبدالله محمد بن يوسف » : شرح السنوسية .ط . الكويت سنة ١٩٨٢ .

٢٠- الشهرستانى « أبو الفتح محمد بن عبد الكريم » :

(١) الملل والنحل . ط بيروت سنة ١٩٨٠ .

(٢) نهاية الأقدام ط . الفرد جيوم .

٢١- عطوان : « الدكتور حسين » : الزندقة والشعوبية فى العصر العباسى الأول . ط . دار الجيل - بيروت .

٢٢- عبد الجبار « قاضى القضاة » شرح الأصول الخمسة . ط . القاهرة سنة ١٩٦٥ .

٢٣- الغزالى « أبو حامد » : المنقذ من الضلال . تحقيق المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود . ط . بيروت سنة ١٩٨٥ .

٢٤- كرم « الأستاذ يوسف » تاريخ الفلسفة الحديثة . ط . دار المعارف القاهرة ١٩٨٦ .

٢٥- مدكور « الأستاذ الدكتور إبراهيم » فى الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيقه ط . دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٦ .

٢٦- الماتريدى « محمد بن محمد بن محمود أبو منصور » التوحيد . تحقيق د/فتح الله خليف .

٢٧- المغربى « الدكتور على عبد الفتاح » : إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدى . ط . القاهرة سنة ١٩٨٥ .

٢٨- الندوى « أبو الحسن » : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . ط . الدوحة سنة ١٩٨٦.

٢٩- نصار « الأستاذ الدكتور محمد » :

العقيدة الإسلامية : أصولها وتأويلاتها . ط . القاهرة - ١٩٨٩ .

فى الفلسفة الإسلامية : قضايا ومناقشات ط . القاهرة - ١٩٨٢ .

٣٠- النيسابورى « أبو سعيد عبد الرحمن » : الغنية فى أصول الدين . ط بيروت ١٩٨٧ .

٣١- النجار « عبد الوهاب » قصص الأنبياء . ط . دار إحياء التراث العربى - بيروت .

﴿ فهرس الموضوعات ﴾

رقم الإيداع بدار الكتب ۸۵۱۳/۱۹۹۵
ISBN ۹۷۷ - ۰۰ - ۹۰۰۰ - ×

مكتبى للطباعة والكمبيوتر ـ طنطا . تليفون : ٣٣٢٧٠٣